المؤرخ العربي

مجلة تصدرها
الأمانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب
بغداد - العراق

العدد الثالث

مجلة المؤرخ العربي

رئيس التحرير
الدكتور حسين أمين
الأمين العام
لاتحاد المؤرخين العرب

العدد الثالث

مجلة تصدرها
الأمانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب
بغداد - العراق

كلمة العدد

بكل اعتزاز تواصل مجلة المؤرخ العربي مساهمتها البناءة في نشر الوعي التاريخي والتعريف بالنشاط العلمي للمؤرخ العربي والعمل على ازدهار الدراسات التاريخية .

ومما يزيدنا شرفا ما احدثه الجزءان الاول والثاني للمجلة من أثر محمود وقبول حسن من لدن الباحثين والمؤرخين العرب والاجانب .

ان الامانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب اذ تواصل عملها العلمي ترجو من الاخوة الباحثين والمؤرخين مواصلة بحوثهم وكتاباتهم واسهامهم في تحرير مجلتهم الأولى في ميدان البحث التاريخي ، وتقدم جزيل شكرها وتقديرها لكل الذين ساهموا بالتحرير والاعداد والنشر.

والله ولي التوفيق .

الدكتور حسين امين
رئيس التحرير

فهرست

المولى اسماعيل وتحرير ثغور المغرب

للدكتور جلال يحيى
أستاذ ورئيس قسم التاريخ - جامعة أسيوط

تألق نجم سلطان من أكبر سلاطين المغرب منذ عام ١٦٧٢ ، وهي السنة التي ارتقى فيها المولى اسماعيل عرش بلاده • وكان اسماعيل قد ولد في عام ١٦٤٦ ، وارتقى العرش بعد أخيه المولى الرشيد •

وكان تاريخ المغرب قد تميز ، منذ قرون ، باستمرار الجهاد ضد القوى المسيحية ا سواء في شبه جزيرة أيبيريا ، أو في ثغور المغرب الأقصى نفسه حين جاءت القوات الاسبانية والبرتغالية لاحتلال هذه الثغور ، ومحاصرة العرب في القارة الافريقية ذاتها •

وكان المولى الرشيد إبنا لسلطان تافيلالت ، في جنوب المغرب ، وإمتاز بشجاعته وقوة عزيمته ، الأمر الذي ساعده ، في وقت ضعف سلاطين الدولة السعدية ، على أن يحتل عواصم المغرب الأربعة ، ويسيطر على فاس وتافيلالت وتارودانت ومراكش • واذا كان المولى الرشيد قد تمكن من تجميل عاصمته فاس ، الا أن حياته لم تمتد بشكل يسمح له بتثبيت دعائم وحدة الحكم على كل اقاليم المغرب الأقصى ، الأمر الذي توفر من بعد لأخيه المولى إسماعيل •

وكانت هناك اختلافات واضحة بين سكان الأقاليم المختلفة من

المغرب ، ورجع ذلك لأسباب جغرافية أو اقتصادية • فكان سكان جبال الأطلس يتميزون باستقلالهم وبدائيتهم ، ويصعب مقارنتهم بتجار مدينة فاس ، الذين كانوا يعيشون عيشة ناعمة ، كما كان من الصعب مقارنتهم برجال البحر في سلا ، والذين تميزوا بطموحهم وشهوانيتهم • وكان هناك رجال الحرب الذين كانوا يتمنون وقوعها في كل لحظة ، في الوقت الذي كان فيه تجـار فاس يأملون في سيادة السلم ، وبشكل يسمح لتجارتهم بالنمو ، وفي ظل الأمن اللازم لذلك • وكان هناك الفلاحون في منطقـة الدكالة والشاوية ، والذين كانوا يزرعون الشعير والقمح ، ويربون البهائم والجمال ، وتنتشر في اقليمهم الخيـام المصنوعة من الصوف الأسود ، وينتجون الزبد والشمع ، والصوف والحمص ، والعدس والفول • وكان هناك فلاحون آخرون ، أكثر توطنا واستقرارا منهم ، في منطقـة فاس ، وفلاحون آخرون في جبال الريف ، يمتازون بقسوتهم وخشونتهم وبفقر إقليمهم • أما في سهول الغرب فقد كان هناك نوع ثالث من المزارعين ، تمتد أراضيهم الى ساحل المحيط الأطلسي ، والى سلا ، وكان في وسعهم أن يصلوا الى البحر المتوسط عن طريق تطوان ، وبقرب القواعد العسكرية الاسبانية • أما منطقة مراكش ، عاصمة الجنوب ، ومنافسة فاس ، فانها كانت مركزا للعلم وللدراسات الاسلامية ، في نفس الوقت الذي كانت فيه مركزا تجاريا وحضاريا • وكان اقليمها مملوءا بالنخيل ، الذي كان يشارك في صنع لوحة رائعة مع أشعة الشمس المتلألئة على قمم الأطلس المغطاة بالثلوج • وازدهرت في هذا الاقليم زراعة أشجار الزيتون • أما منطقة تافيلالت ، فانها كانت واحة في وسط الصحراء ، وأحاطت الرمال فيها من كل جانب بأشجار النخيل ، وامتاز أهلها بتصميمهم على العمل ، وبثقتهم بأنفسهم • وكان في وسع من يسيطر علـى مراكش أن يفرض نفوذه عبر ممرات الأطلس الأعلى في الجنوب على وادي السوس ، وهو ذلك الاقليم الخصب ، والذي زاد من ثروته دخوله في معاملات تجارية مع الدول الأجنبية ، عن طريق ميناء أغادير ، الذي شهد إستيراد الأسلحة

والذخائر ، وتصدير خام النحاس وتبر الذهب • وفي أقصى الجنوب ، كان هناك وادي درعا ، الذي امتاز أهله بالقسوة والخشونة • ويمكننا أن نضيف الى ذلك أقاليم الطوارق ، التي كانت تثور أحيانا ، وتخضع أحيانا أخرى ، والأقاليم السودانية ، التي كان يتم غزوها من وقت لآخر، والتي امتازت بكونها مصدرا للجنود السود . الذين كان يسهل صيدهم، ويسهل تمرينهم وتدريبهم على الحرب ، والذين كانوا يشتهرون بالولاء، وحتى الموت •

وكانت القوافل هي وسيلة المواصلات الوحيدة بين هذه الأقاليم المتجاورة والمتميزة عن بعضها • ولا شك في أن الفوضى والاضطرابات كانت تؤثر أسوأ الأثر على سير هذه القوافل ، ولكنها كانت تسير ، بشكل أو بآخر ، رغم العقبات والعوائق ، اذ أنها كانت تستند الى ضرورات اقتصادية وضرورات معنوية ، للاتصال بين الأهالي المتجاورين في أقاليمهم ، حتى وان ضعفت السلطة المسيطرة عليهم جميعا في بعض الأوقات •

وكان هذا التباين الموجود بين أقاليم المغرب الأقصى المختلفة ، مع سيادة نظام الحكم الأسروي ، الاقطاعي ، سببا في ثورات وحروب داخلية بصفة شبه مستمرة ، وتشتد بشكل خطير ومهدد عند وفاة أحد السلاطين • وكان للمولى اسماعيل اثنين وثمانين أخا ، من والده ، المولى على الشريف ، أعطتهم له ما يقرب من خمسين زوجة وجارية • ونشأ هؤلاء الاخوة دون رعاية أبوية كافية ، وفي جو من التشاجر والتخاصم والتنافس ، وفي جو من المؤمرات وعمليات الاغتيال ، وفي مناخ من العقوبات البدنية القاسية التي كان الأمير يوقعها بزوجاته وابنائه ، وأثر كل ذلك في تربية « الامراء » وفي روح القسوة وحتى الوحشية التي تميزوا بها • وظهر ذلك بوضوح بينهم حين تولوا حكم عواصم المغرب، ومحاولة بعضهم الانفراد بحكم اقليمهم ، ومحاولة البعض الآخر السيطرة

على الاقليم المجاور • وكان السلاح هو وسيلتهم لذلك ، وفي شكل حرب أهلية ، ان جاز هذا التعبير ، أو حرب أسروية ، وخاصة اذا ما خلى مركز السلطنة • وكان أشدهم قسوة وقوة وغلظة ووحشية هو الذي يتمكن من الانتصار ، وكان على كل سلطان جديد للمغرب ان يبدأ حكمه عملية غزو لاقاليمه المختلفة ، وبحد السيف •

ومنذ عهد المولى الرشيد ، تميز أخاه المولى اسماعيل ، بالشدة والقوة والغلظة والوحشية • وعرف المولى الرشيد كيف يفيد من مزايا أخيه الأصغر ، خاصة وأن فترة حكمه كانت مليئة بالثورات والحملات العسكرية ، وبالوحشية في تنفيذ الحكم على المتمردين • وكان المولى إسماعيل هو الذي تمكن من اخماد الثورة التي كانت قد نشبت في تازا ، وبشكل جعله يحظى برضاء المولى الرشيد ، ويحصل على منصب أمير مكناس ، مكافأة له على تدعيم سلطته ، حتى وان كان ذلك نتيجة للقتل وللوحشية ، بين افراد نفس الأسرة • ومنذ ذلك الوقت أصبحت مكناس هي مدينة المولى اسماعيل المفضلة ، وسيقوم فيها بتشييد القصور والاسوار واصطبلات الخيل ، ويحاول تجميلها ، ويتخذها عاصمة له عند وصوله للسلطنة •

★ ★ ★

وكان المولى الرشيد يقيم في مراكش ، عاصمة الجنوب ، حين وقعت له حادثة في ثاني أيام عيد الأضحى لسنة ١٠٨٢ هـ (٢٤ مارس ١٦٧٢م)• ودخل المولى الرشيد بستان المسرة ، وهو على ظهر فرسه ، ليتجول فيه ، ولكن الفرس جمحت به دون أن يأخذ حذره ، فصدمت رأسه بأحد الفروع ، وقيل أن فرعا دخل في أذنه ، وسقط على الأرض مضرجا بدمائه • وكان في ذلك منيته •

وسرى خبر الحادث بسرعة الى عدد من الأمراء • وكانت فرصة

فريدة أمام المولى اسماعيل ، ولكن بعض اخوته ، الذين كان عددهم يزيد على الثمانين ، كانوا يمنون أنفسهم كذلك بالتربع على عرش السلطنة • وحاول المولى الحران ، وهو الاخ الأكبر للمولى الرشيد ، أن يسبق المولى اسماعيل في الاستيلاء على فاس ، خاصة وانها كانت العاصمة التي كان المولى الرشيد قد خبأ فيها كنوزه وثرواته • ولكن أنباء الحادث كانت قد وصلت الى المولى اسماعيل في وقت مبكر ، فتمكن من الاستيلاء على فاس ، وعلى مابها من كنوز السلطان السابق • واعترف علماء فاس وطلبة القرويين بالمولى اسماعيل ، ودعوا له في خطبة صلاة الجمعة • وسرعان ما وصلت الأنباء بأن المولى أحمد بن محرز قد أعلن نفسه سلطانا في مراكش وانه قد أخذ في الاستعداد للزحف بقواته الى الشمال ، لمحاربة المولى اسماعيل • وأصبح على هذا المولى أن يبدأ عملية اعادة غزو اقاليم السلطنة ، الاقليم تلو الآخر ، حتى يتمكن من الاحتفاظ بالسلطنة •

ولقد زحف المولى اسماعيل بسرعة صوب الجنوب ، والتقى الجيشان ، في موقعه بين ما يزيد على خمسين الف رجل ، في أحد السهول القاحلة ، وفي ميدان امتلأ بسحابة كثيفة من الغبار • وامتاز جيش المولى اسماعيل بانه قد اشتمل على اربع قطع للمدفعية يعمل عليها عدد من الأسرى المسيحيين • وظهر خوف رجال مراكش من البارود ، واسرع عدد كبير من جنودهم بالهرب وبالعودة للتحصن وراء أسوار عاصمتهم الحمراء ، وفر أميرهم من ميدان المعركة • ويروى الناصري ان المولى اسماعيل انتصر على أهل مراكش « وهزمهم ، ودخل مراكش عنوه يوم الجمعة سابع صفر سنة ثلاث وثمانين وألف ، فعفا عن أهلها ، وأجفل ابن محرز وشيعته الى حيث نجوا » (١) •

---

(١) الناصري : الاستقصا لاخبار دول المغرب الاقصى . دار الكتاب ، ١٩٥٦ . جـ ٧ ص ٤٦ .

وتمكن المولى اسماعيل ، بالشدة والقسوة من اخضاع اقليم مراكش ، ورغم ذلك فان سلطنة المغرب لم تكن قد خلصت له بعد . ووصلت الى المولى اسماعيل في ذلك الوقت أنباء تعلن نشوب الثورة ضده في مدينة فاس ، وأنباء أخرى تعلن أن المولى أحمد بن محرز ، الذي فر بعد الهزيمة قرب مراكش ، قد عاد واستولى على تازا ، وأخذ يستعد للزحف على فاس . ووصلت أنباء أخرى عن نشوب الثورة في الريف كذلك ضد المولى اسماعيل .

ولا يمكننا أن تتناسى أهمية ثورة الريف ، خاصة وأن الخضر غيلان كان قد عاد من الجزائر الى وطنه الأصلي تطوان . وكان الخضر غيلان من كبار أمراء البحر المجاهدين ضد السفن المسيحية ، وكان على صلات ود وصداقة وتحالف مع حكام الجزائر ، وله كثير من المؤيدين في شمال المغرب . وعاد الخضر غيلان الى المغرب ومعه اثنتي عشر سفينة حربية، بقيادة مصطفى باشا ريس ، أمير البحر الجزائري . ولا شك في أن اتجاه رجال البحر في شمال المغرب وفي الجزائر كان يتعارض مع نمو القوة البرية لسلاطين المغرب في داخل البلاد ، ويهدد بخروج جزء من أقاليم المغرب عن سلطة السلطان المغربي ، وفي صالح القوة البحرية التي كانت متحدة مع الدولة العثمانية .

وكان على المولى اسماعيل أن يواجه هذا الموقف بكل حزم ، رغم تعدد الاعداء في كل اتجاه . وعرف المولى اسماعيل كيف يفيد من الفرقة الموجودة بين اعدائه ، حتى يتمكن من ضربهم الواحد بعد الآخر .

وكانت مفاجأة أن يسير المولى اسماعيل من مراكش صوب الشمال مباشرة ، ويترك جناحه الأيمن معرضا لثورة فاس ، وللتمرد الموجود في تازا . وكانت جرأة منه ولا شك أنه حاول ابعاد هذا الخطر في الشمال، واستغلال اقليم الريف لتجنيد الرجال اللازمين له في حربه في منطقة فاس وتازا ، وفي الثغور . ولقد استخدم المولى اسماعيل السياسة بين سكان

فاس وبعضهم حتى يحصل على الوقت اللازم له لتوجيه ضرباته الى جهات أخرى • ونلاحظ أن معظم العمليات كانت تحدث في ذلك الوقت في ظل نظام اقطاعي واضح ، يشتمل على قيادات تتحالف أو تتحارب مع بعضها ، وتغير من مواجهاتها طبقا للدسائس أو المصالح التي يمكنها أن تحصل عليها من هذا الجانب أو ذلك •

وأسرع المولى اسماعيل بمهاجمة قوات الخضر غيلان وسط سهول المغرب ، دون أن يترك له حرية اختيار الزمان والمكان اللذين قد يحققان له النصر • وتمكن جيش المولى اسماعيل من هزيمة قوات الخضر غيلان وتشتيتها ، وقتل الخضر غيلان في المعركة ، ولم يتمكن المولى اسماعيل بذلك من استجوابه ومعرفة المكان الذي كان قد خبأ فيه كنوزه ، وتتيجة لسنوات طويلة من صيده البحري •

ولقد سمح هذا النصر للمولى اسماعيل بالسيطرة على الجزءالشمالي من المغرب ، وسهلت بذلك مواصلاته مع الدول الأوربية ، وأصبح فيوسعه أن يهدد المراكز والقواعد العسكرية الأوربية في شمال بلاده ، وعلى سواحلها الغربية •

أما في وسط المغرب ، فان المولى اسماعيل قد استخدم السياسة ونجح بها في فاس كذلك ، خاصة وأنها اشتملت على المكر والدهاء • واستجاب العلماء في فاس لهذا السلطان المنتصر ، والذي أعلن ودهواحترامه للعلماء ، رغم قسوته وجبروته على أعدائه في الحرب • ووجد من العلماء من مدح المولى اسماعيل ومروءته ، اذ أنه قد اكتفى بأخذ رأس الخضر غيلان بدلا من أن يطلب رؤوس كل امراء تطوان • فخرج علماء فاس وطلبتها مهللين للمولى اسماعيل « المظفر بالله » ، داعين له بالنصر ،ومعلنين له الولاء ، وطالبين منه العفو • وكان المولى اسماعيل قد أحضر معه من سهول الغرب رأس الخضر غيلان لكي يطاف بها في فاس ، ارهابا للاهالي ، ولكنه عاد وقبل توسط العلماء في أن يعاد الرأس الى القصر الصغير ،

ويدفن بكل اجلال واحترام ، بعــد حياة مليئة بالجهــاد من أجل الاسلام والمسلمين • ولا شــك في أن معاملة المولى اسماعيل للعلماء واستماعــه واستجابته لمطالبهم كانت تدعم من حكمه وتثبت من اركان سلطته في البلاد، وتظهره بمظهر القوى الذي يمنح • ولا شك كذلــك في أن اعتماد المولى اسماعيل على العلماء في عملية ضرب القيادات الاقطاعية الموجودة في ذلك الوقت كانت تشبه مــا حدث في أوربا في عصر الحــادي عشر ، وفي عصر نمو الملكيات الحديثة ، اذ أن الطبقة الوسطى الرأسمالية لم يكن لها وجود بالمعنى المفهوم في المغرب في ذلك الوقت • وتمكن المولى اسماعيل عن طريق العلماء والطلبة من القضاء على معارضة كبار الجالية الأندلسية في فاس ، والحصول على ولاء مدينتهم ، وأردف ذلــك بنزع الاسلحــة والذخائر من سكان فاس •

واذا كان المولى اسماعيل قد تمكن بهذه العمليات من السيطرة على الجزء الأوسط من سلطنته ، فقد كان عليه أن يسرع باخضاع بقية الاقاليم المغربية ، كما كان عليه أن يعمل على تحرير ثغور المغرب من الحكم الأجنبي، خاصة وأن القوات البريطانية كانت تحتل طنجة ، كما أن القوات الاسبانية كانت تحتل كل من سبته ومليلة ، والمهدية والعرائش وأصيلة • وسيكتب للمولى اسماعيل النجاح في تحرير الجزء الأكبر من هذه الثغور المغربيــة من أيدي قوات الاحتلال الأجنبي ، وبشكل يقرن هذه العملية باسمه في التاريخ •

★ ★ ★

كان وجود الجنود المسيحيين في أرض الاسلام وصمة عار للمغاربة ، وكذلك للمولى اسماعيل • وكانت طنجة من أعز مدن وثغور الاسلام على قلوب المغاربة ، ولكنهم رأوا احتلال البرتغاليين لها منذ سنة ١٤٣٧ حتى سنة ١٦٦١ ، ثم مجيء الانجليز لها بعد ذلك • وكان وجودهم فيها يعتبــر طعنة خنجر في هذه المدينة المغربية ، والثغر الاسلامي •

حقيقة أن وجود الانجليز في طنجة لم يكن يعني استمرار الحرب بينهم وبين المغاربة طول الوقت ، ذلك أن تبادل السلع والتجارة كان يتم بين الطرفين في الفترات الواقعة فيما بين المعارك والعمليات الحربية ، وكانت الاسلحة والبارود تصل الى ايدي المغاربة ومن التجار الانجليز أنفسهم • ولكن هذا الوضع كان لا ينفي وجود حالة الحرب بين الطرفين، أو الدولتين ، بشكل مستمر ، حتى وان كانت بعض الهدنات قد تخللت فترة الحروب الطويلة •

وحاول الانجليز ، منذ سنة ١٦٧٤ ، أن يصلوا الى اتفاق مع المغاربة، فوصل وايت حاكم طنجة الى فاس ، ومعه بعض أعيان سلا ، الذين كانت السفن البريطانية قد أسرتهم في عرض البحر ، واصطحبه أمير البحر عبد القادر مارينو حاكم سلا ، والذي كان قد ذهب اليه في القصر الكبير، لكي يصطحبه الى السلطان في فاس • وقابل المولى اسماعيل الحاكم الانجليزي مقابلة طيبة ، ولكن السلطان رفض عقد الصلح • وقبل المولى اسماعيل الأسرى المغاربة الثلاثين ، وزود حاكم طنجة بهدية اشتملت على ثلاثمائة رأس من البقر ، ومثلها من الغنم • ولا شك أن المولى اسماعيل قد أظهر كرما كبيرا في عملية دفع فدية عينية للاسرى ، اذ أنه لم يكن من طباعه دفع أية فدية عن أي مغربي يقع في أيدي الأعداء ، ويعتبر أنه قد فشل في الدفاع عن نفسه وعن بلاده ، ولا يستحق أي ثمن •

وبعد عامين من ذلك ، بدأت المباحثات من جديد بين انجلترا والمغرب، بشأن أعمال القرصنة والاعتداء على السفن في أعالي البحار • وكان هذا الوقت صعبا بالنسبة للمولى اسماعيل ، وكان مشغولا حينئذ في حملاته العسكرية التي كان يقوم بها ضد ابن اخيه ، المولى أحمد بن محرز ، وما أن انتهت هذه العمليات حتى بدأت العمليات الحربية من جديد بين المغاربة والانجليز في طنجة ، منذ يناير سنة ١٦٧٨ • وقاد القوات المغربية المحيطة بطنجة القائد عمر حدو ، الذي يمكن اعتباره على أنه خليفة للخضر غيلان،

بعد أن انتشر صيته وتدعم نفوذه في كل منطقة الغرب • وأخذت القوات المغربية في مهاجمة الحصون المحيطة بمدينة طنجة ، وتمكنت من تخريب بعضها • واستخدم المغاربة في هـذه العمليات الألغـام وبعض الغازات الخانقة ، وبعض النيران والقذائف المحرقة • وربما كانت هذه الأسلحة، والتمرن عليها ، قد وصل اليهم عن طريق الجزائر ، اذ أنها المنطقة الوحيدة من المغرب التي ظهر استخدامها فيهـا ، وكانت شائعة الاستخدام عنـد العثمانيين ، وحتى في الجزائر • وربما اشتمل جيش المغرب المحاصر لطنجة في ذلك الوقت على بعض المتطوعين من الجزائر ، خاصـة وأن عمليـات الجهاد في ذلك الجزء الشمالي من المغرب كانت دائما مرتبطة بعضهـا ، وفي كل شمال افريقية ، رغم خضوع بعضها لحكم العلويين ، والتفاف الآخر حول العثمانيين • ونجحت قوات القائد عمر حدو في شهر أبريل سنـة ١٦٧٩ في الاستيلاء على قلعتين أخرتين قريبتين من طنجـة ، وبشكل زاد من تهديد المغاربة للقاعدة الحربية البريطانية في شمال البلاد • وقام القائد عمر حدو ، في شهر مارس سنة ١٦٨٠ ، بهجمة كبيرة على طنجة ، وأردفها بهجمة ثانية في شهر أبريل ، ثم جاءته الأوامر من السلطان بضرورة زيادة الضغط على أسوار طنجة ، وأعلمه المولى اسماعيل بقـرب وصول بعض وحدات من الجنود السود ، العبيد البخارى ، وحرسه الشخصي ، لكي يعاونوه في عملية الهجوم على طنجة •

وتمكن القائد عمر حدو من محاصرة احدى القلاع الجديدة ، ومن تحطيم أسوار قلعة أخرى بالألغام • واضطر الانجليز الى سحب قواتهـم من المواقع الأمامية ، بدلا من تزويدهم هذه المواقع بقوات جديدة ، فأدى الأمر الى تمكين المغاربة من الزحف وزيادة الضغط على القوات الانجليزية المحاصرة في طنجة • وكان الانجليز قد اضطروا عنـد انسحابهم من بعض هذه القلاع الى اتلاف المدافع الموجودة فيها ، ووضع الالغام في داخلهـا حتى لا تقع سليمة في أيدي المغاربـة • وعمل تقهقر الانجليز علـى رفع

الروح المعنوية عند المغاربة ، خاصة وان المولى اسماعيل نشر في طول البلاد وعرضها أخبار انتصار قائده عمر حدو على الانجليز في طنجه ، وأمر باقامة الصلوات في المساجد شكرا لله على ذلك .

واذا كان نصر المغاربة حتى ذلك الوقت غير كامل ، فقد كان مما يزيد من قوته أن المغاربة قد قاموا بهذه العمليات ضد القوات البريطانية ، دون أية معاونة من الدول الأجنبية ، الأمر الذي زاد من هيبة المولى اسماعيل داخل البلاد ، وفي نظر الملوك الغربيين كذلك . وظهر تمرن المغاربة على استخدام الخنادق ، وتمرنهم على استخدام الألغام ، وبشكل لم يكن في حسبان الانجليز . وظهر فشل التحصينات التي كانت القوات البريطانية قد أقامتها حول طنجة بجذوع الاشجار بمجرد استخدام المغاربة للقذائف الحارقة ، بنفس طريقة استخدام العثمانيين لها في كل مكان .

ولا شك في أن انتصار المغاربة على الانجليز في هذه المرحلة الأولى من الحرب كان صدمة قوية للانجليز ، وعمل على خفض روحهم المعنوية، وبشكل واضح ، حتى أنه أصبح يهدد فاعلية الحامية البريطانية ،وامكانيات احتفاظها بهذه القاعدة في شمال البلاد . ويمكننا أن نضيف الى ذلك أن تقدم المغاربة في محاصرتهم لطنجه بهذا الشكل قد حرم الانجليز من كل امكانية للخروج من المدينة ، سواء أكان ذلك لمقابلة القوات المغربية ، أو للحصول على المواشي ومواد التموين . وكان من الصعب على انجلترا أن ترسل قوات جديدة ، وتنزلها الى ما وراء خطوط المغاربة المحاصرين لطنجة ، حتى تساعد على فك حصار هذه المدينة ، أما امكانية قيام الاسطول البريطاني بالضغط على المواني المغربية الأخرى ، وضربها بالمدفعية ، فلم يكن من المتوقع لها أن تؤثر على المغاربة أي تأثير . وظل الانجليز داخل أسوار طنجة ، عاجزين عن الخروج منها ، وعجزوا حتى عن ترميم الأسوار التي قام المغاربة بتحطيمها . وكانوا يشاهدون استيلاء المغاربة في كل يوم على قطعان البهائم ، وبشكل يوحي لهم بنقص مواد التموين اللازمة لهم.

وكان نقص الخضر والفواكه والنبيذ في طنجة أمر يؤثر على معنوية الجنود الانجليز ، الذين أصبحوا يشعرون بأنهم حامية محاصرة ، أو موجودة في المنفى ، وتعمل من أجل دولة ترفض أو تعجز عن امدادهم وفك حصارهم.

وحاولت انجلترا أن ترسل عددا من الضباط الممتازين الى طنجة للعمل على رفع الروح المعنوية بين الجنود ، ولكن دون جدوى . ثم قامت انجلترا بعد ذلك بارسال احدى الكتائب الى طنجة ، وسارت سفن الاسطول البريطاني لحراسة السفن التي تقلها ، وظهر خوف انجلترا من مهاجمة الاسطول المغربي أو الاسطول الجزائري لهذه القوة قبل وصولها الى طنجة ، هذا علاوة على خوف انجلترا من امكانية مهاجمة الاسطول الفرنسي لها ، وكانت في حرب معلنة ضد لوى الرابع عشر . ولا شك في أن ارسال انجلترا لهذا المدد قد ارتبط بعملية نجاح المغاربة في غزو قصبة المهدية في المعمورة ، وانتزاعها من أيدي الاسبانيين . وقبلت اسبانيا أن تقف الى جانب انجلترا لمحاربة المغاربة ، ومهاجمة قوات المولى اسماعيل ، وبصفته عدوا مشتركا لهم . وعقدت معاهدة وندسور التي تعهدت فيها اسبانيا لانجلترا بتزويدها بعدد من الفرسان ، وعدد من الخيول اللازمة لطنجة ، ولكن اسبانيا كانت مشتبكة في حرب مع المغرب ، وكان عليها أن تنجد قواتها المحاصرة هنا وهناك ، قبل قيامها بنجدة الانجليز المحاصرين في طنجة .

وفي شهر سبتمبر سنة ١٦٨٠ انتهت الهدنة المعقودة بين المغاربة والانجليز ، واعتمد الانجليز على الامدادات الجديدة التي وصلتهم ، وخاصة من الفرسان ، وقاموا بهجوم على خطوط المغاربة ، واستخدموا القنابل ، ولكن المغاربة أوقعوا بمعظم رجال القوة المهاجمة ، عن طريق الكمائن ، التي اقاموها لهم في كل مكان ، وقتل القائد الانجليزي في هذه العملية . وحاول الانجليز القيام بهجوم جديد في شهر اكتوبر ، وان كان ذلك لم يثبط من عزيمة المغاربة ، الذين زاد تمرنهم على استخدام المدفعية،

والتي كانوا قد ثبتوا قطعها داخل كهوف حفروها لها في الجبال • وهكـذا عجز الفريقان ، الانجليز والمغاربة ، عن تحقيق أي نجاح واضح في هـذه العمليات •

وكتب حاكم طنجة الى كل من المولى اسماعيل والى القائدعمر حدو، ينبئهم أن ملك انجلترا يرغب في عقد الصلح معهم • ووصل القائد عمـر حـدو ، على رأس كتيبـة من الجنود السود ، لاصطحاب « السفير » الانجليزي الى السلطان ، وقام الكولونيل كـيرك بهذه المهمة • ومنحـه المولى اسماعيل سلاما لمدة أربع سنوات ، ووقف كل عمليات حربية بيـن الجانبين • ثم وصل مندوب من انجلترا وعقد الصلح النهائي • وكـانت شروط هذا الصلح في جانب المغاربة ، اذ أن المغرب رفض اطـلاق سراح الأسرى الانجليز الموجودين لديه ، ورفض تطبيق هذا الصلح على عمليات الجهاد البحري بين سفن الدولتين • وبهذه الطريقة كان هذا الصلح مجرد هدنة مؤقته ، محددة بزمن معين ، وفي نطاق معين حول مدينة طنجـة وحدهـا •

وحتى في منطقة طنجة لم يكن السلم سائـدا بين الطرفيـن طوال الوقت ، رغم رفع الحصار عن المدينة • وعجزت سفارة أحمد حـدو الى انجلترا ، ومقابلته للملك وللملكة ، عن وضع حد للصعوبات الموجودة بين البلدين • وكانت معاهدة هوايت هول في ٢٣ مارس سنة ١٦٨٢ هي عبارة عن تأكيد اتفاقيـة مكناس ، دون أن تصل الى تسوية نهائيـة لموضوع طنجة • ومع استمرار الوقت شعر الانجليز بان المعاهدة شيء ، والتعامل بين القوات الانجليزية في طنجة ، والقوات المغربية حولها شيء آخـر • واستمر ذلك لمدة سنتين أخرتين •

وكانت الأوضاع الدينية والسياسية والمالية التي سادت انجلترا في ذلك الوقت ، وفي السنوات الاخيرة من حكم شارل الثاني تمثل ظهور الصراع بين انجلترا وبين أنصار البـابا في البرلمان البريطاني • وكـان

البرلمان يخشى من تحول الاسرة المالكة في بلاده من المذهب البروتستانتي الى المذهب الكاثوليكي ، فرفض الموافقة على الاعتمادات المالية التي طلبها الملك من أجل طنجة . وعلى أساس أنها قلعة كاثوليكية ، يسيطر فيها رجال الدين الكاثوليك من الاسبان والبرتغال ، وتعتبر بالتالي مركزا من مراكز تدعيم النفوذ الكاثوليكي ، الذي كانوا يحاربونه • فقرر شارل الثاني ، في نهاية سنة ١٦٨٣ ، هدم تحصينات طنجة . وهدم السقالات البحرية الموجودة في الميناء ، وهدم الميناء نفسه ، وسحب الحامية والرعايا الانجليز الموجودين فيها واعادتهم لانجلترا • وقام شارل الثاني بتعيين دارتسوث للاشراف على هذه العملية . ومنحه رتبة أمير البحر ، رغم انه أعلن في انجلترا انه ذاهب « للتحقيق » في احوال طنجة • وفي ٤ من اكتوبر سنة ١٦٨٣ أعلن الانجليز لسكان طنجة قرار الحكومةالانجليزية، ثم بدأت الأعمال • واستمرت عملية هدم السقالة البحرية لمدة ثلاثة أشهر ، كما أن هدم الأسوار والتحصينات استمر طوال فصل الشتاء ، رغم قيام أكثر من الفي جندي بريطاني بهذه العملية •

وفي أثناء ذلك الوقت ، كان المغاربة الذين يحاصرون طنجة يقومون بمحاولات متتالية للهجوم عليها بقيادة القائد علي بن عبدالله ، واظهار العملية على أنها عملية استيلاء على مدينة في أثناء الحرب • ويذكر لنا الناصري أن المولى اسماعيل قد عقد للقائد أبى الحسن علي بن عبدالله الريفي على جيش المجاهدين ، ووجهه لحصار طنجة فضيقوا على من بها من النصارى وطاولوهم الى أن ركبوا سفنهم وهربوا في البحر وتركوها خاوية على عروشها ••• قاله في « النزهة » وقال في « البستان » لما ضاق الأمر على النصارى الذين بطنجة ، وطال عليهم الحصار ضربوها وهدموا أسوارها وأبراجها وركبوا سفنهم وتركوها فدخلها المسلمون من غير طعن ولا ضرب وشرع قائد المجاهدين علي بن عبدالله الريفي في بناء ما تهدم

من أسوارها ومساجدها . (٢)

وكان استيلاء قوات المولى اسماعيل على طنجة خطوة هامة في سبيل تحرير بلاده وثغوره من الاحتلال الأجنبي . وجاءت هذه العملية بعد عملية تحرير المغاربة لثغر المعمورة أو المهدية .

★ ★ ★

وكان نجاح المولى اسماعيل في اخراج الاسبانيين من عدد من القواعد العسكرية التي كانوا يحتلونها في المغرب من بين أهم الأعمال التي قام بها هذا السلطان والتي ميزت حكمه بالنصر وبتحرير الثغور .

وكان استيلاء الاسبانيين على هذه القواعد في المغرب سببا رئيسيا من اسباب انتشار الفوضى والقلق في المنطقة ، وفي الفترة السابقة لحكم المولى اسماعيل . وكانت العلاقات بين المغاربة والاسبانيين هي علاقات عداء تقليدي ، وظهر ذلك بوضوح في عملية طرد المغاربة من الاندلس ، وفي عملية الاستيلاء على ثغور المغرب نفسه ، مع اعطاء ذلك شكل الحروب الصليبية . واذا كانت جهود العرب والمغاربة قد نجحت في ابعاد الاسبانيين عن ثغور الجزائر ومراسيها ، كما نجحت في ابعادهم عن تونس وطرابلس، بمساعدة الدولة العثمانية ، فان أقدام الاسبانيين قد ظلت ثابتة ومدعمة في عدد من ثغور المغرب الأقصى ، وخاصة نتيجة للضعف الداخلي ، وللانقسام في هذا الاقليم العربي من ناحية ، ونتيجة لقرب هذه الثغور المغربية من اسبانيا نفسها ، من ناحية أخرى . وكانت اسبانيا تحاول التوسع في عملية الاستيلاء على الثغور المغربية حتى بلغ بها الأمر ، في سنة ١٦١٤ الى الاستيلاء على قصبة المهدية ، التي تشرف على منطقة المعمورة ، وتعتبر من أهم القصبات في سهول الغرب .

---

(٢) أنظر : الاستقصا ، ج ٧ ص ٦٧ .

وكانت المهدية تبعد بمسافة خمس وأربعين كيلو مترا الى الشمال من سلا ، وكانت تمتاز عنها في صلاحية مينائها واتساعه ، وسهولة تحصينها بالمدفعية التي يمكنها أن ترد عنها غارات الأساطيل الأجنبية • هذا علاوة على وقوع المهدية على مرتفع يشبه برج المراقبة ، ويكشف ساحل المحيط ، والسفن القادمة فيه ، ولمسافة بعيدة • واذا كان نهر أبو رقراق يزود سلا بالمياه ، فان نهر سبو كان يزود المهدية بما يلزمها من المياه • وكان وقوع غابة المعمورة على مشارف قلعة المهدية يسمح لهذه القاعدة العسكرية بالحصول على كميات كبيرة من الأخشاب اللازمة للوقود ، واللازمة حتى لصناعة السفن ، ويسمح لحامية هذه القلعة باتخاذ الغابة منطقة دفاع طبيعية من الطراز الأول بالنسبة للقاعدة •

واتخذ المولى اسماعيل لنفسه سياسة تحرير ثغور المغرب من الأعداء • ولا شك أن مجهودات المولى اسماعيل في هذا الميدان كانت كبيرة ، وأنها أخذت جزءا كبيرا من وقته • ومن مجهوده ومجهود قواته المسلحة • ورغم قلة ما اوردته لنا الوثائق ، وضعف ما زودنا به المؤرخون العرب عن تفاصيل هذه العمليات ، وامكانياتها والطرق التي سارت بها ، وعدم اتفاق هؤلاء المؤرخين وبعضهم ، فيمكننا أن نرسم الخطوط العامة المبسطة لها ، مبتدئين بثغر المهدية •

ويذكر لنا « نشر المثاني » أن الاستيلاء على المهدية قد تم بالقوة المسلحة وقت صلاة الجمعة في يوم ١٥ من ربيع الثاني من عام ١٠٩٢ هجرية ، ولكنه يذكر في نفس الوقت وجود رواية ثانية تذكر أن هذه العملية الخاصة بدخول جنود المولى اسماعيل الى هذه القصبة قد تمت بدون حرب أو التحام ، ذلك أن المغاربة قد منعوا وصول المياه الى الحامية المسيحية الموجودة هناك ، مما اضطر رجالها الى التسليم ، واستولى المسلمون على القصبة دون أن يضحوا بمسلم واحد • ويدعم هذا الرأي الثاني خطابا تبعض الأسرى المسيحيين في المغرب الى الماركيز دي فيلار ،

والتي اشتملت على ذكر قوة قصبة المهدية وقلعتها ،وتوفر التموين والذخائر فيها بكميات كبيرة • ويعادل تاريخ استيلاء المغاربة على المهدية نهاية شهر أبريل سنة ١٦٨١ • وما أن دخل المسلمون ثانية الى قصبتهم حتى قاموا بتحسين الميناء ، واعادة ترميم الأسوار والحصون ، وساعدت أشجار غابة المعمورة على زيادة عدد سفن أسطول المولى اسماعيل • وأصبحت المهدية في عصر المولى اسماعيل من بين أقوى وأهم القواعد العسكرية البحرية للسلطنة المغربية •

وكتب أحد الفرنسيين الى كولبير ، الوزير الفرنسي ، في منتصف شهر مايو سنة ١٦٨١ ، عن استيلاء المغاربة على المعمورة والمهدية منذ خمسة عشر يوما ، وذكر أن قوة المغاربة المهاجمة بلغت عشرة آلاف رجل بقيادة القائد عمر بن حدو ، وأن المغاربة قد نصبوا بعض المدافع عند مصب نهر سبو من ناحية البحر لكي يمنعوا وصول أي امداد للاسبانيين، ثم أبلغوا ذلك للمولى اسماعيل الذي حضر بنفسه على رأس جيش آخر بلغ ١٤٠٠٠ ، ١٥٠٠٠ رجل • ووجد قائد الاسبانيين ألا أمل له في المقاومة ، فاضطر الى التسليم ، وحصل على الامان لنفسه ولأسرته •وكان في المهدية ما يزيد على مائة مدفع وكميات كبيرة من الذخائر والبارود •

ولكن هذه الروايات لا تشفي الغليل في معرفة تفاصيل هذه العملية، خاصة وأنها قد تمت بسرعة • ولا شك أن المولى اسماعيل قد عرف بطريقة أو بأخرى ، وربما عن طريق أحد الفارين الاسبانيين من هذه القاعدة ، بنقص مواد التموين فيها ، وربما انتشار بعض الامراض بين رجال الحامية • وكان المولى اسماعيل في ذلك الوقت يستعد للزحف صوب نهر ام الربيع ، وعلى رأس قواته لمحاربة ابن اخيه المولى أحمد بن محرز، فكلف القائد عمر بن حدو بمحاصرة المهدية ، والاستعانة في ذلك ببعض رجال الحاميات الموجودة في مكناس وفاس وتطوان والقصر الكبير وسلا • وكان المولى اسماعيل بكل تأكيد يحاول بهذه الطريقة اعطاء لون

« التطوع الوطني » لهذه القوة التي ستهاجم الاسبانيين في المهديـة . ولكن المولى اسماعيل احتفظ لنفسه بشرف الاستيلاء على هذه القصبـة بنفسه . وقام المغاربة بقطع كل الطرق التي يمكن عن طريقها لرجال الحامية المحاصرة أن يتصلوا بأوربا . ووصل القائد عمر بن حدو امام المهدية في ٢٦ أبريل . ولم تكن الاراضي الواقعة بين أسوار المدينة وشاطىء وادي سبو محصنة الا ببعض الحواجز من جـذوع الاشجار ، وبشكـل سمح للمغاربة بالتغلب عليها دون كبير صعوبـة . ثم بدأ المغاربة في مهاجمـة البرجين اللذين كانا يدافعان عن الميناء ، أو المرسي . واضطرت الحاميـة الاسبانية فيهما ، وكانت قليلة في عددها بالنسبة للقوات الوطنية المهاجمة، الى التسليم . وبدلا من أن يقوم المغاربة بقتل الاسرى ، أو ارسالهم الى معسكرات الاعتقال ، أو للعمل في منشآت السلطان ، تركوهم يذهبون مع بقية الحامية داخل أسوار المدينة . وكان عليهم أن يذكروا لزملائهـم ولقائدهم أن المولى اسماعيل سيحضر بنفسه ، على رأس جيوشه ، لمساعدة القائد عمر ، واذا ما قامت الحامية باطلاق مدفع واحد ، فان جميع رجال الحامية سيذبحون .

ومنح المغاربة للاسبانيين هدنة طويلة ، وحتى التسليم ، وتعهـدوا بالمحافظة على حياة الاسبانيين في حالـة تسليمهم ، ولكن على أسـاس تجريدهم من أسلحتهم ومن كل ما يملكون ، والاحتفاظ بهم حتى تقـوم دولتهم بدفع فدية ، ودفع جميع التكاليف العسكرية التي أنفقت في هذه العمليـة .

ولقد نجحت هذه السياسة كل النجاح ، وظهر تأثير الاسبانيين علـى بعضهم، كما ظهر خوفهم وهم محاصرون ، وصلتهم مقطوعة ببـلادهم . وبجحافل مغربية منحتهم الحياة ، رغم عدم ترددها في قتل أي عـدو . وشعر الاسبانيون أنهم أمام خصوم شرفاء ، وجنود أقوياء ، وان فكرتهم عن المغاربة كشعوب همجية ، تعيش على القتل والنهب والسبي ، هي فكرة

خاطئة من أساسها ، وأن في وسع المغاربة أن يكونوا فرسانا ، ولهم من أخلاق الفرسان وتقاليدهم ما يميزهم عن غيرهم • وأصبح الاسبانيون موزعين بين رغبتهم في الحرب ، والدفاع عن أنفسهم ، والرغبة في التسليم خوفا من انتقام المغاربة منهم كما وعدوهم • ولا شك أن قائد الحامية ، قد حاول استثارة همة رجاله وولائهم لملكهم ووطنهم • ولكن هذه المحاولة قد فشلت • وسلم معظم الرجال أسلحتهم لقائدهم معلنين عدم رغبتهم في حرب المغاربة • ولا شك كذلك في أن رجال الدين الموجودين في المعمورة قد حاولوا استثارة النخوه في قلوب الجنود المحاصرين ، وانهم قد تحدثوا عن الكنيسة وعن النساء والاطفال ، وعن وحشية المغاربة • ولكن هذه المجهودات ذهبت كلها هباءا اذ أن قائد الحامية قد طلب من المغاربة التسليم •

وارتفعت راية بيضاء في أعلى القصبة ، وشعر المغاربة بأن القائد الاسباني يرغب في التفاوض ، واستقبل القائد عمر بن حدو قائدين اسبانيين يحملان الهدايا ويعرضان التفاوض • وانتهى الأمر باتفاقية اشتملت على احتفاظ قائد الحامية وستة من ضباطه وأسرهم بحريتهم وبممتلكاتهم ، وبحقهم في أخذ أحد القسس الموجودين معهم لكي يحمل ما في الكنيسة الاسبانية التي انشأوها هناك الى اسبانيا ، أما رجل الدين الثاني فكان عليه أن يبقى مع الحامية الاسيرة حتى يقيم لها شعائر الصلاة• وكان على من يذهب الى اسبانيا أن يهتم بعملية دفع فدية الأسرى الذين تركوا بغير قادة • وتصبح هذه الشروط نافذة بمجرد موافقة المولى اسماعيل عليها •

وطار المولى اسماعيل من الفرح لمعرفته بهذه الانباء ، ويقال أنه أعطى مائة من الذهب الى الجندي الذي أبلغه هذه الاخبار • وفي صبيحة اليوم الثاني ، ومع شروق الشمس ، كان المولى اسماعيل على رأس حرسه الشخصي أمام أسوار المهدية • وكان قد سار بسرعة ،وأصدر

الأوامر لقادة الجيش بالاسراع واللحاق به هناك • وصدق المولى اسماعيل بسرعة على الاتفاقية وأرسلها للقائد الاسباني حتى يسلم مفاتيح المدينة للملك الغازي • وقدم القائد الأسباني لسلطان المغرب التحية العسكرية اللائقة به ، وجعل قواده يقبلون حذاءه • وخرجت الحامية الاسبانية من القصبة واصطفت في الخلاء بدون أي سلاح ، وكانت اللحظة تشتمل على الصمت والسكون الذي يمثل صلاة للشكر على هذا النصر الذي كتبه الله للمغاربة •

وبدلا من أن يرسل المولى اسماعيل القائد الاسباني الى طنجة ، أرسله الى ميناء العرائش ، وكانت قصبة ثانية في أيدي الاسبانيين كذلك، وحتى تعلم حاميتها بتسليم الحامية الاسبانية الرئيسية في المهدية لسيد البلاد ، وتعلم كذلك بالمعاملة التي عاملها لها • ولكن بدلا من أن ينجح المولى اسماعيل في هذا الجزء الجديد من خطته تدخلت عوامل أخرى في الموضوع • وكان لوجود حاكم عام اسباني في العرائش ، يمتاز بغطرسته وقسوته ، تأثيرا في سير الاحداث ، ذلك أنه أمر بالقاء القبض على قائد حامية المهدية ، وارساله مكبلا بالسلاسل الى قادس ، وادى ذلك الى وقوف هذا الرجل للمحاكمة أمام مجلس التاج الاسباني •

ولا شك أن اسبانيا قد رفضت دفع الفدية عن رجالها الباقين في المعمورة ، ويذكر أحد المسافرين في هذه المنطقة بعد ستة عشر عاما من التسليم كيف أن المهدية قد أصبحت قلعة اسلامية لها قوتها ، وان اسبانيا قد دفعت فدية مائة ضابط من ضباط الحامية ، ولكن المهدية كانت لاتزال تشتمل على ما يقرب من ألفي أسير اسباني رفضت اسبانيا افتدائهم،وبقوا في الأسر ، ولكي يعملوا في المغرب ، دون أن تهتم بلادهم بهم •

وكان هذا النصر سببا في أن يذكر صاحب « النزهة » :

« ومن محاسن الدولة الاسماعيلية تنقية المغرب من نجاسة الكفر،

ورد كيد العدو عنه ، قال وقد فتح السلطان المولى اسماعيل عدة مدن من يدي النصارى كانت من مفاسد المغرب ، ولم يهنأ للمسلمين معهم قرار • » ويذكر صاحب « البستان » أن الغنيمة كانت من حظ المجاهدين من أهل الفحص والريف اللذين كانوا مرابطين عليها ، وان السلطان قد رجع الى مكناسة بعد أن أنزل بالمهدية طائفة من عبيد السوس لعمارتها وسد فرجتها . وحضر هذا الفتح جماعة من متطوعة أهل سلا • وبعد أن فرغ المجاهدون من أمر المهدية ارتحلوا مع أميرهم عمر بن حدو الذي اصابه الوباء ومات في الطريق ، فتولى رئاسة المجاهدين من بعده أخوه القائد أحمد بن حدو ، واقتسمها مع القائد أبو الحسن علي بن عبدالله الريفي •

أما القصبة الثانية التي نجحت قوات المولى اسماعيل في الاستيلاء عليها من اعدائها الاسبانيين فكانت هي العرائش ، وتم هذا الفتح في سنة مائة والف هجرية ، وفي آخر شهر شوال ، أي في عام ١٦٨٩ م •

وكانت العرائش ثغرا يزيد في أهميته كثيرا عن المهدية ، فكانت قلعتها قوية ، ويسهل الدفاع عنها ، كما أن وقوعها عند مصب نهر اللوكوس كان يعطيها منعة وقوة • وكانت تحيط بها الأسوار والحصون القوية والمعدة أحسن استعداد ، وكانت تشتمل على الثكنات الجديدة ، ومخازن القمح ، ومصانع للبارود ، وكان يظهر أن في وسعها أن تقاوم مدة طويلة، خاصة وأنها كانت مفتوحة من ناحية البحر ، وكان نهر اللوكوس يزودها بما يلزمها من مياه من داخل الاقليم • والظاهر ان شعور رجال الحامية الاسبانية فيها بقوة موقعهم ، وقلة تقديرهم للمجاهدين المغاربة ، واعتماد الحامية على مدفعية قوية ، جعلهم يغترون بأنفسهم ، ولا يلتفتون كثيرا لخطورة زحف المجاهدين المسلمين على هذه القاعدة القوية •

ولقد سار القائد أبو العباس أحمد بن حدو في جماعة من المجاهدين لحصار العرائش التي كان الاسبانيون متمركزين فيها منذ عهد الشيخ ابن

المنصور السعدي • وينقسم المؤرخون في تقدير فترة حصار المجاهـدين المغاربة للعرائش ، وذكر البعض أنها ثلاثة أشهر ، وذكر البعض الآخر أنها بلغت خمسة أشهر • وزاد على ذلك الناصري لأنـه اعتمد على المؤرخين الاسبانيين ، وذكر أن لويس الرابع عشر ، طاغية الفرنسيين ، أو عاهـل فرنسا ، قد ساعد المغاربة ، وأعان المولى اسماعيل ، وحاصرها بحرا بخمس فراقط وقطع عنها المادة مدة •

ولا شك أن المغاربة قد استخدموا الالغام في عملياتهم ضد العرائش، ويذكر صاحب « النزهة » أن فتـح المسلمين لها كان بعـد معاناة ، وأن المجاهدين قـد « حفروا المسنيات تحت خندق سورهـا الموالي للمرسي، وملؤها بارودا ، ثم أوقدوها بالنار فنفطت وسقـط جانب من السور ، فاقتحم المسلمون منه وتسلقوا الى مـا كان من النصارى علـى الأسوار فوقعت ملحمة عظيمة ، وفر باقيهم الى حصن القبيات ••• واعتصموا به يوما وليلة ، فخامر قلوبهم الجـزع وطلبوا الامان ، فأمنهم القائد أبو العباس ، فنزلوا عليه ، فأخذوا اسرى بأجمعهم ولم يعتق منهم الا أميرهم وحـده • »

وكان عدد النصارى في العرائش قبل الاستيلاء عليها ثلاثـة آلاف ومائتين ، ولما ظفر بهم المسلمون أسروا منهم نحو الفين ، وقتلوا منهـم أثنتي عشرة الف • ووجد المسلمون بها من العدة والبارود الشيء الكثير، فوجدوا بها نحو ١٨٠ مدفع بعضها من النحاس والباقي من الحديد ، ومنها مدفع يسمى « الغصاب » • « طوله خمسة وثلاثون قدما بالحساب ،ووزن كرته خمسة وثلاثون رطلا بحيث حلق عليه بقرب خزاتنه اربعة رجال •»

وكان المسلمون قد تمرنوا على أعمال الألغـام من قبل مـع أسوار مدينة طنجة التي تحصن وراءها الانجليز لعدة سنوات • ولكن اذا كـان المغاربة قد أفادوا من وجود بعض عناصر الريف ، وبعض ابناء الجزائر في عملياتهم ضد طنجة ، فمما لا شك فيه أن استخدامهم للالغام ضد العرائش

قد جاء نتيجة لخبرتهم ضد طنجة ، ونتيجة لمعاونة فرنسا لهم بالبارود والألغام • وكان وجود بعض المجاري الرومانية القديمة تحت مدينة العرائش تسمح للمغاربة بالدخول فيها ، وبعمل الحفر لوضع الالغام تحت المدينة، دون أن يشعر الاسبانيون بذلك •

وأمر المولى اسماعيل بنقل الأسرى الاسبانيين من العرائش الى مكناسة ، وكان عددهم يقرب من الألفين ، واستخدمهم مع غيرهم من المساجين والاسرى في بناء قصوره بالنهار ، أما بالليل فكانوا يبيتون في الدهليز ، وهو في عرف المغاربة هرى تحت الارض • وأسكن السلطان أهل الريف في العرائش حتى يعمل على توطين جزء منهم ، ويحد من نزعتهم الاستقلالية التي أشتهروا بها في جبالهم ، وأمر قائدهم بان يبنى بها مسجدين وحماما ، ويبنى داره بقلعتها •

ولا شك أن فتح قوات المولى اسماعيل للعرائش كانت نصرا جديدا له دعمت من حكمه ، وأظهرته في شكل محرر للبلاد ، ومجاهد في سبيل الاسلام والمسلمين • وقال الشاعر عبد الواحد بن محمد الشريف البوعناني في هذا الفتح :

الا أبشر فهذا الفتح نور ... قد انتظمت بعزكم الأمور
وضوء النصر ساعده التهاني ... ونور الفخر نحوكم يدور
حميتم بيضة الاسلام لما ... بعين الحق قد حرس الثغور
وجاهدتم وقاتلتم فانتم ... لدين الله أقمار تنير
وأطلعتم صوارمكم نجوما ... لدى هيجاء صاحبها كفور
فأنت البدر يوم السلم حسنا ... وفي يوم الوغا الأسد الهصور
وفي ثغر العرائش قد تبدى ... لقدركم على الشعري الظهور
لقد كان الملوك فساموها ... وراموها وبان لها نفور
فلما جئتها انقادت وقالت ... اليك بحق مولانا المصير

ملكت قيـاد عزتهـا بـذل فما أغنى الحصار ولا العبـور
قهـرتهـم بابطـال ضخام على الهيجـاء كلهـم جسور
فكم رأس من الكفـار أمسى قطيع الرأس مجـرورا يخـور
وكـم نحـر قـلادته رمـاح وسن الرمح مركزه النحـور
وكم أسـرى وكم قتلـى بأرض وكم جرحى دمـاؤهـم تفـور
تمر بهـا الطيـور فتنتقيهـا وبات الذئب وهو لهـا شكور
واضحى الناس كلهم نشـاوى على طرب ومـا شربت خمـور
فبشراكم بهـذا الفتـح نـور وبشـراكم بمـا من الغفـور
بـه زادت مـآثركـم علـوا وقد عظمت به لكـم الأمـور
الا يا معشر الكفـار هـذا بيددكـم وليس لـه فتـور

ولا شك أن هذا النصر قد أظهر المولى اسماعيل بأنه محرر المغرب، وفتح الافاق امامه لمواصلة عملية الجهاد وعملية التحرير ودعم ملكه أن الناس قد نظروا اليه على أنه سيقوم كذلك بتحرير بقية الثغور في المغرب الاقصى ، وسيخرج الاسبانيين منها ، كما سيخرجهم من سبته ، وحتى من وهران الجزائر ، وحتى اعادة حكم المسلمين الى الاندلس :

الا يا أهـل سبته قـد أتاكـم بسيف الله سلطـان وقـور
اذا ما جـاء سبتـه فـي عشى تنـاديه اذآ كـان البكـور
ووهـران تنـادى كـل يوم متى يأتي الامـام متى يـزور
فيهزمهـم ويقتلهـم ويسبى وسيف الحـق في يـده ينـور
أيا مولاي قم وأنهض وشمـر لاندلس فأنت لهـا الأميـر
وجاهدهـم وحاربهـم وفرق جموعهـم فربكـم النصـير
ولا يمنع بفضـل الله منهـا كما قد قيل بـرا أو بحـور
لسان الحال ينشـد كل يوم ومعنى الحـال تفهمـه الصدور
بقرطبـة تنـال المجـد طـرا ويأتي العـز والملـك الكبير
وذلكـم بعـون الله سهـل ومن بركاتكـم أمـر يسـير

أيا مولاي اسماعيل هذا ... عبيدكم الضعيف المستنير
يناديكم بناديكم ويدعو ... دعاءا لا تعييه الدهور
فيارب البرية يا الهي ... ويارحمن يا نعم المجير
أثب هذا الأمير بكل خير ... ولا تجعل تجارته تبور
وأبق الملك فيه وفي بنيه ... ولو كرهت زيود أو عمور

وكان على المولى اسماعيل قبل أن يبدأ في مهاجمة سبته ، أو القيام بعمليات ضد وهران الجزائر ، ومحاولة اعادة الاندلس الى المسلمين أن يواصل تحرير بلاده نفسها قصبة بعد قصبة ، وكانت أصيلا هي أقرب الثغور اليه بعد العرائش ، وكان من اللازم أن يخلصها من حكم الاسبانيين كذلك بعد أن نجح المغاربة في تحرير طنجة والمهدية والعرائش .

وكانت أصيلا تقع على المحيط الاطلسي بين العرائش وطنجة ، وكان وقوع هذين الثغرين اللذين يحاصرانها من الشمال ومن الجنوب في ايدي المغاربة يوجه الانظار الى أن المولى اسماعيل سيقوم بتحريرها كذلك ، مادامت قد أصبحت محاصرة بممتلكاته من كل جانب . ويذكر المؤرخون المسلمون أنه لما فرغ المجاهدون من أمر العرائش عمدوا الى مدينة أصيلا، ونزلوا عليها وحاصروا النصارى الذين بها سنة كاملة ، الى ان بلغ بهم الحصار كل مبلغ ، فطلبوا الامان ، وامنهم المغاربة . ولكن الاسبانيين لم يطمئنوا للعهد ، فركبوا سفنهم ليلا ، ونجوا الى بلادهم ، ودخل المسلمون الى المدينة وملكوها . وعمرها أهل الريف كذلك ، وبنوا بها مسجدين ومدرسة ، وبنى قائد المجاهدين منزله بالقلعة كذلك .

وكان من حسن حظ المولى اسماعيل أنه اعتمد في هذه العمليات على رجال من المجاهدين ، صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، وكان الجهاد يجري مع الدماء في عروقهم ، واعتمد على قياد ورجال من أبناء الريف ، الذين كانوا يولدون مجاهدين ، وكانوا ينظرون الى الجهاد على أنه الطريقة الوحيدة لترجمة رغبتهم في الكفاح من أجل الحياة نفسها ، وعلى أنه

المهنة الوحيدة التي يحق للرجل أن يفخر بقيامه بها • وكان هؤلاء الرجال يتدربون على الاسلحة منذ صغرهم حتى اليوم الذي يتمكنون فيـه من استخدامها ضد اعداء البلاد • وكانت الطبيعة مع البيئة هي التي تؤهـل أبناء الريف للتحول الى مجاهدين من الطراز الاول ، خاصة وان اخلاقهم، وظروف منطقتهم كانت تدربهم على الصبر والعيش بالقليـل ، مع قـوة التحمل ، وارتفاع الروح المعنوية والحماس ، وبشكل ملحوظ • وكـانت سرعة ابناء الريف وخفتهم ، مع قوة مقاومتهم تفوق ما يمكن تصوره فـي المحارب العادي ، وكان تحركهم في الاراضي الوعرة يثير الدهشة ، هذا علاوة على حـدة بصرهم ، وانتباههم ويقظتهم حتى يعجز اعـداءهم عن الوقيعة بهم في الكمائن • وكان في وسع ابناء الريف أن يفيدوا من طبيعة الارض في مهاجمتهم الاعداء بعد أن يصلوا اليهم ودون أن يشعروا بهم• وكانوا يشبهون ابناء السودان في كفاءتهم الحربية ، وان كانوا قد امتازوا عليهم بعملهم في الجبال وفي المناطق المغطاة بالثلوج وبكل قوة وانتبـاه ورشاقة في نفس الوقت • وكان من طباع ابناء الريف ، وهو ما يميزهـم على غيرهـم ، أنهم كانوا لا يأبهون بالحيـاة ، ولا يلتفتون الى الاغنـام والاسلاب • وكانت هذه الصفات المادية والمعنوية تعطي لبعض فرق قوات المولى اسماعيل قيمة كبيرة ، يسهل معهـا تفسير انتصار المغاربة علـى الاوربيين ، رغم تفاوت الاسلحة بين الجانبين في ذلك الوقت•ورغم تحصن الاوربيين في الثغور والمدن الحصينة التي تحيط بهـا الأسوار والابراج وتشتمل على القـلاع • وكان هؤلاء الرجال هم الذين حاصروا مدينـة سبته لمدة ستة وعشرين عاما ، وان كانوا لم ينجحوا في الاستيلاء عليها ، ولكنهم عادوا من جديد لمحاربة الاسبانيين فيها ، وللهجوم عليها ، ولمـدة أثنى عشر عاما جديدا من حكم المولى اسماعيل •

وكانت الروح العامة في المغرب تنادي المولى اسماعيل بتحرير سبته ان لم تكن تناديه بطرد الاسبانيين من كل أرض انتزعوها من بلادالاسلام•

والواقع أن المولى اسماعيل قد قام من أجل سبته بما يشبه التعبئة العامة في كل الجزء الشمالي من سلطنته ، وكون لذلك جيشا فريدا في نوعه ، قويا في عزيمته على الكفاح والجهاد . ولكن تراجع ملك اسبانيا بشأن المهدية والعرائش ، ثم انسحاب الحامية الاسبانية من أصيلا جعلت الاسبانيين في بلادهم يخشون من فقد قواعدهم في شمال افريقية . ولا شك أن هذا التنافس الموجود بين الملك ورجال الدين الكاثوليك في اسبانيا جعلهم ينظرون الى فشل القوات الملكية في الاحتفاظ بقواعدها في شمال افريقية على أنه ضعف مادي ومعنوي من جانب الملك وحكومته، ومن جانب الشعب نفسه . فانتشرت في اسبانيا حركة دعائية كبيرة برئاسة رجال الدين الذين خطبوا ووعظوا واهابوا بالاسبانيين أن يحافظوا على المراكز والقواعد التي رفع جنود الملكة المسيحية ايزابيلا الصليب عليها حتى يمنعوا المسلمين « الكفار » من العودة لاحتلال اسبانيا بعد ذلك ، واشتملت هذه الحملة الدعائية على كثير من الصلوات والادعية والخطب كما ظهر فيها الشعر الذي يبكي المسيحية ويولول لها أمام سيوف وحراب المسلمين المتوحشين . ولا شك أن هذه الحملة الدعائية قد أثرت في الروح المعنوية للحامية الاسبانية الموجودة في سبته كما أثرت في الحكومة الاسبانية نفسها ، فقررت ارسال الامدادات ، وضرورة الاحتفاظ بسبته بأي ثمن . وكان قرب سبته من قادس ومن بقية الموانى الاسبانية ، يسمح لاسبانيا بالاستمرار في تزويدها وامدادها ، ولأطول فترة ممكنة .

وعلينا أن نذكر من ناحية أخرى أن طول مدة الحرب قد أثرت في رجال الجهاد المسلمين ، وفي قوادهم ، خاصة وأنهم كانوا قد تركوا أسرهم واراضيهم ومزروعاتهم وبهائمهم منذ سنوات طويلة ، وكان طول مدة الحصار حول سبته ، وبدون الوصول الى نتائج واضحة أكثر من تهديم جزء من الاسوار ، أو وصول بعض قذائف المدفعية الى أحد أبواب المدينة ، كان يساعد على وصول الملل الى ابناء الريف . هذا بالاضافة

الى أن المولى اسماعيل كان قد قام بسحب فرق من ابناء الريف من حول سبته لارسالهم الى البريجة ، مما أضعف قوة الجيش المحاصر لسبتـه . وكان تجميع جزء كبير من القوات المحاربة المغربية حول مدينة سبتـه ، ولمدة طويلة يخلى مناطق اخرى من الاداة الاولى لحكم المولى اسماعيـل للبلاد ، ويساعد بالتالي على قيام بعض القيادات الاقطاعية بالامتناع عن دفع الضرائب أو اعلان الثورة ضد سيد البلاد .

وليس معنى ذلك أنه لم تقع معارك حربية ذات قيمة حول سبتـه . ذلك أنه في السنوات الاولى من الحصار حاولت القوات الاسبانيةالخروج من سبته لمواجهة قوات المغرب ، وانهزمت هزيمـة ساحقـة أمام فرسان المسلمين ، ثم قام المشاة من المغاربة بقتل كل من وجدوه حيـا على أرض المعركة وبعد انسحاب بقية الاسبانيين ورجوعهم الى سبته صمموا علـى عدم الخروج منها وامتنعوا عن الاشتباك من جديد مع المغاربة . وأمـر المولى اسماعيل قائده أمام سبته بعسكر من عبيده ، وأمر قبائل الجبل بأن تعين كل منها حصتها للمرابطة على سبته ، وكذلك أمر أهل فاس . وبلغت قوات المسلمين أمام سبته خمسة وعشرين الفا . ويتهم النـاصري المولى اسماعيل بأنه قد عزا الى قواده المحاصرين لسبته بعدم النصح في افتتاحها لئلا يبعث بهم بعدها الى حصار البريجة فيبعدوا عن بلادهم مع أنهـم قد سئموا كثرة الاسفار ، ومشتقات الحروب . وكان طول فترة الحرب قد صرف أنظار المولى اسماعيل عن سبتـه ، وجعله يشتغل بتمهيد المغـرب واخضاعه ، ومقاتلة برابرة جبل فازاز وغيرهم . ويذكر الناصري ان الله لم يهيىء أمر فتح سبته على ايدي المولى اسماعيـل . واذا كانت هـذه الجملة تدل على اعطاء المولى اسماعيل مجرد حقه لا اكثر في تحرير المغرب، فان الرغبة في استخلاص سبته من ايدي الاسبانيين ظلت موجودة فيقلوب المغاربة الذين كانوا يشيرون الى آثار ضرب القوات المغربية لأبواب سبته

على أنها مادة يعتبر بها من يأتي بعدهم ، وحتى يزداد احتياطا وحزمـا ، وعزما وقوة على الاعداء •

ولكن المولى اسماعيل بلغ بهذه العمليات الحربية ضد قوات الاحتلال الاجنبية الموجودة في بلاده الى نتائج واضحة وثابتة وبدأت باستيلائـه على طنجة من ايدي الانجليز ثم استيلائه على المهدية والعرائش واصيلا ، وبشكل يجعل من المولى اسماعيل محـررا لثغور المغـرب سيطرة الدول الاستعمارية •

الدكتور جلال يحيى

★ ★ ★

الاقتصاد في الاسلام

الأستاذ خير الله طلفاح
رئيس مجلس الخدمة العامة - بغداد

المشكلة الاقتصادية تتبوأ مركز الصدارة في العالم اذ هي تشغل بال المفكرين من رجال الاقتصاد لان الاضطراب السائد في المجتمعات الرأسمالية والاشتراكية والتطاحن القائم بين عوامل الانتاج عقد هذه المشكلة وازم الموقف بين العامل ورأس المال حتى بات ينذر بشر مخيف ، ولتجنيب العالم من كارثة حرب قد تؤدي في الحضارة العالمية اصبح لزاما على كل عاقل ومفكر ان يسعى الى ايجاد الحلول السلمية لها • ولعل في الاسلام حلا لهذه المشكلة لما فيه من مقومات توفق بين العامل ورأس المال وقبل ان نستعرض خصائص الاسلام لا بد لنا من القاء نظرة فاحصة على النظامين الاقتصاديين الرأسمالي والاشتراكي •

اولا — الاقتصاد الرأسمالي :

يقوم الاقتصاد الرأسمالي على اساس حرية العامل فيما يختاره من عمل فله مليء الحرية ان يكون تاجرا ام صانعا ام فلاحا وله أيضا ان ينتج النوع الذي يشاء والكمية التي في وسعه ان ينتجها • وان يتعامل مع غيره بكل مافي الحرية من مجال وبعبارة اصح (يرتكز الاقتصاد الرأسمالي على سياسة الباب المفتوح في الداخل والخارج) • ويقول علماء الاقتصاد الرأسمالي لكي تكون الحياة الرأسمالية صحيحة وسليمة لا بد ان تستند على اسس ثلاثة هي :—

١ ـ المصلحة الشخصية :ـ ان العامل يهدف في الواقع ان لا يعمل عملا الا اذا كانت له مصاحة شخصية فيه تدفعه الى العمل .

٢ ـ المزاحمة :ـ تسير العامل اخلاقه وطبيعته اكثر مما يسيره عقله وذكاؤه فلاجل ان يقتحم مصائب ومصاعب العمل لابد له من مزاحم يدفعه الى ذلك .

٣ ـ الحرية :ـ الحرية في العمل تخلق المنافسة والمنافسة تضاعف النشاط إذ أن المنفعة الشخصية لا تتحقق الا بدافع الحرية .

ان ترك الناس في مثل هذا الجو من الحرية الاقتصادية المطلقة قد ولد جملة مشاكل اقتصادية خطيرة كتضخم الانتاج وكتكدسه في الاسواق وانخفاض سعره خصوصا بعد ان حلت الالة محل العمل اليدوي ومن تلك المشاكل ما يلي :ـ

١) اقفال باب المعامل والمصانع والاستغناء عن العمال .

٢) ان هذا الاجراء يسبب لبطالة وينتج عن لبطالة عدم حصول لعامل على ما يوفر به عيشه بشكل رضي كالطعام واللباس والسكن .

٣) وهذا بدوره يدفع العمال الى المظاهرات والاضطرابات والثورات وقد تكون تلك المعامل مستهدفة لشر العمال من هدم وحرق وتدمير وغير ذلك .

٤) يلحق اضرارا باصحاب رؤوس المال ويجعل بينهم وبين العامل عداوة تفقد ثقة احدهما بالاخر وحيث ان الاعمال التجارية هي ائتمان ، ففقدان الائتمان مفسدة للمهنة .

ثانيا ـ الاقتصاد الاشتراكي :

في مثل هذا الجو المفعم بالفواجع والكوارث قام انصار العمال

وهاجموا النظام الرأسمالي واوضحوا مساؤه وكان من جملة ما قالوه :ـ (ان مبدأ المصلحة الشخصية في الاقتصاد لا يمكن ان يؤول الا الى تكديس الثروة بيد الاقلية واخضاع الاكثرية الى الانقياد لاوامر هذه الاقلية فتتحكم فيها وتستغلها) • وقالوا ايضا : (ان النظام الرأسمالي يشيع الفقر والبؤس والظلم بين الطبقات) ويضيفون الى ذلك قولهم بـ (ان المزاحمة الحرة لا تؤول الى تبديد القوى الانتاجية واشاعةالافلاس بين المضاربين ومن عيوب المزاحمة ايضا عدم تكافؤ فرص المتزاحمين وان الحرية الاقتصادية في نظرهم لا تعني سوى الفوضى لانها تجعل الفرد حرا في انتاج ما يشاء كيفما يشاء كما ونوعا فتنشأ الازمات الاقتصادية ولهذه الاسباب والمبررات نادى انصار الاقتصاد الاشتراكي بالشعارات التاليـة :ـ

١ ـ محو الملكية الفردية الواسعة للارض ورأس المال وتسليمها للدولة لتتصرف بها لمصلحة المجموع وعلى الافراد ان يؤدوا الاعمال للدولة لقاء اجر يتقاضونه بالتساوي على اساس قيمة العمل الذي ينتجه كل منهم •

٢ ـ توزيع السلع الاستهلاكية على الافراد كل حسب حاجته وكل حسب انتاجه •

٣ ـ وضع منهاج للانتاج تحدده حاجة المجتمع من حيث النوع والكم•

وهذه الاسباب بنظرهم تزيل التفاوت بين الافراد وتمحي الطبقات الاجتماعية فيتساوى ابناء المجتمع في كل شيء وعندها فلا ازمات اقتصادية ولا شحناء على المال ولا تباغض ولا تحاسد انما هناك اخوة وتعاون وسلام•

مساوىء النظام الاشتراكي :

ومع احتواء هذا النظام على ماذكره من محاسن الا انه لا يخلو من

مساوىء خطرة على الحياة الاقتصادية العامة للمجتمع الانساني ومن تلك المساوىء ما يلي :ــ

١ ــ اماتة المواهب والقابليات التي يتميز بعض الناس فيها عن البعض الاخر ما دام اجر الجميع واحدا ومعلوما .

٢ ــ تميت العوامل المحفزة في الانسان لكثرة الانتاج وتحسينه وهي عوامل فطرية غريزية فكبحها يؤدي الى موتها وبالتالي يحرم المجتمع من تلك القابليات التي لو اطلق لهـا العنان لكانت سببا لكثـرة الانتاج وتحسين نوعه .

٣ ــ يجعل النظام الاقتصادي الاشتراكي منتسبيه آلة صماء تتحرك بدوافع خارجية هي ضغط السلطة ومحاسبتها وليس بدافع داخلي هو حب الكسب الذي اوجده الله في الانسان فطرة .

ثالثا ــ النظام الاقتصادي في الاسلام :

يختلف النظام الاقتصادي في الاسلام عن الانظمة الاقتصادية الوضعية وعلى رأسهـا النظـامان الاشتراكي والرأسمالي فهو فريـد في بابـه ووحيد في كنهه وهو نظام وسط لا افراط فيـه ولا اسراف ولا تقتير اذ جمع من النظامين محاسنهما ولفظ الى غير رجعة مفاسدهما ومساؤهمـا وفيه قال الله سبحانه وتعالى :ــ (وكذلك جعلناكم امة وسطا لتكونـوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيـدا) وجاء عن رسول الله (ص) قول (الحسنة بين السيئتين) . وجاء قوله تعالى (والذين اذا انفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما) . فقد حوى من الرأسمالية احسن مافيها ولفظ عيوبها ومساؤها ومن الماركسية خيرها ووقى الناس شرهـا .

فأول ما نراه في الاسلام في نظامه الاقتصادي انـه يحترم الملكيـة

الفردية ولكنه يقيدها ويراقبها فهو يقرها بقيود عديدة لينقيها من اوضارها فهو يختلف عن الرأسمالية فيما يلي :ـ

١ ـ يحارب تكديس الثروة ويحرمها ويمنع تجمعها في يد واحدة او عند فئة قليلة بل يجنح الى جعلها رأسماليات متوسطة او صغيرة وهناك قوله تعالى :ـ (وما افاء الله على رسوله من اهل القرى فلله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كي لايكون دولة بين الاغنياء منكم وما اتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا) •

٢ ـ يحفظ بما سنه من تشريعات اموال الامة والفرد حيث جعل الملكية الفردية مصونة ولا تنتزع الا بتشريع وبتعويض عادل وعندما تدعو الضرورة لذلك لان للضرورات حكمها اذ يقول الفقهاء (الضرورات تبيح المحضورات وتقدر بقدرها) •

٣ ـ دعا الاسلام الى العطف والبر بالطبقات الفقيرة والطبقات المعدمة وجعل ذلك من صلب العبادات فقال جل شأنه :ـ (والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب اليم) وقال في اية اخرى : (والذين في اموالهم حق معلوم للسائل والمحروم) وقال في ذلك رسول الدعوة الاسلامية : (ان يدخل الجنة من بات شبعانا وجاره يتضور جوعا) وقال : (كلكم عيال الله واحبكم الى الله انفعكم لعياله) وقال : (المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا •• الخ) •

عوامل تفتيت رأس المال :

لقد لجأ الاسلام الى عوامل اقتصادية واجتماعية حكيمة مبنية على دراسة علمية واسعة لتفتيت رأس المال ومحاربة تكديس الثروة بيد شخص او اشخاص قلة لئلا يتحكموا في الاكثرية الساحقة من ابناء الشعب او

يستغلوهم لان الاسلام يحرم استغلال الانسان لاخيه الانسان ومن تلك العوامل ما يلي :ـ

اولا ـ الزكاة :

جعل الاسلام الزكاة ركنا من اركان الاسلام الخمسة وهي : الشهادة والصلاة والصوم والحج والزكاة وقصده في ذلك اشباع حاجة المعوزين من جهة وتفتيت الملكية الكبيرة من جهة اخرى ومن لم يؤدها عد مقصرا في اداء ركن من اركان الاسلام الخمسة وهذه الزكاة حق معلوم في اموال الاغنياء للمعوز والمحروم وهي نسبة معينة في اموال الغني يؤديها لمستحقيها جبرا ان لم يؤدها طوعا وهذه النسبة تتفاوت وتختلف باختلاف نوع المال ففي النقود مثلا هي واحد من اربعين اي اثنان ونصف في المائة ، وفي الحبوب اذا سقيت بالواسطة واحد من عشرين واذا كانت سيحا او مطرا كانت واحدا من عشرة واذا كانت غنما فهي واحد في المائة وهكذا .

وتعطى الزكاة ايضا عن عروض التجارة ويشترط في الاموال المزكاة ان تكون فائضة عن الحاجة وان يمضي عليها عند صاحبها عام كامل وتنفق عادة على الفقير وهو الذي يملك شيئا يقل عن حاجته والمسكين وهو الذي لا يملك شيئا وابن السبيل وهو المسافر عن اهله ولا يملك ما ينفق في السفر وتنفق ايضا على من يطلبها وله فيها حاجة ماسة وعلى الذين غرموا ولم يملكوا ما يدفعونه لجهة الغرامة وفي حالة عتق الرقبة وهي غير موجودة في الوقت الحاضر وللذين يعملون على جبايتها كقوله تعالى : (انما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين في سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم) .وكانت الحكومة تجبيها وتوزعها على مستحقيها كما تفعل الحكومات الحالية في جمع الضرائب .

ثانيا ـ الارث :

وقد شرع الاسلام قانون الارث لمنع تكديس الأموال في ايدي قليلة لتقليص الفوارق بين طبقات المجتمع الانساني إذ ساعد هذا القانون على توزيع الثروة على اكبر عدد ممكن من ذرية الميت • ووسع دائرة الانتفاع بها ، اذ يرث من تركه المتوفي جميع ابنائه ذكورا واناثا بعد سداد دين المتوفي وهذا بعكس القانون الانكليزي الذي يورث اكبر الاولاد ويحرم الباقين من حقهم الشرعي وما ينطبق على القانون الانكليزي ينطبق على القوانين الوضعية الاخرى في بلاد اخرى •

وقد شرع الارث في الاسلام نعمة للوارث لا نقمة عليه وذلك باعفاء الوارث من تسديد ما زاد من ديون الموروث على التركة اذ (لا تركة الا بعد سداد الدين) فتخرج الديون من التركة فان بقي منها شيء قسم على الورثة بنسبة حصصهم الشرعية وان استغرق الدين كل التركة فلا ميراث للورثة وان فاض شيء من الدين على تركة المتوفي فلا يتحمل الورثة منه شيئا ولهذا قلنا الميراث نعمة وليس نقمة وقد قسم الاسلام الورثة الى طبقتين الاولى طبقة الاولاد والاباء والازواج والثانية طبقة الاخوة والاخوات ويسمى جميع من ذكر في الطبقة الاولى ورثة مباشرين اما ورثة الطبقة الثانية فلا يرثون شيئا الا اذا انعدم ورثة الطبقة الاولى او معظمها وقد يتفرق من الطبقتين المتقدمتين طبقة ثالثة هي طبقة الاحفاد عند انعدام الابناء والاجداد فعند فقدان الاباء يحل الاعمام واولاد الاخوة والاخوات وهكذا تنفتت ثروة الثرى عند موته •

ويقول لدكتور (جوستاف لوبون) الفرنسي المشهور في كتابه (حضارة العرب) ما نصه (•• ومبادىء المواريث التي نص عليها الاسلام في القرآن على جانب عظيم من العدل والانصاف فالشريعة الاسلامية منحت الزوجات ــ اللواتي يزعم ان ازواجهن من المسلمين لم يعاشروهن

بالمودة ـــ حقوقا في المواريث لانجد لها قبلا في قوانيننا . راجع ص ٤١٦ الترجمة العربية للاستاذ محمد عادل زعيتر . اذ جعل الاسلام حق الزوجة ربع تركة الزوج المتوفي اذا لم يكن له اولاد والثمن عند وجود الاولاد .

والآيات التي فصلت الميراث هي قوله تعالى : (يوصيكم الله في اولادكم للذكر مثل حظ الانثيين فان كن نساء فوق اثنتين فلهن ثلثا ما ترك . وان كانت واحدة فلها النصف ولابويه لكل واحد منهما السدس مما ترك ان كان له ولد فان لم يكن له ولد وورثه ابواه فلامه الثلث فان كان له اخوة فلامه السدس من بعد وصية يوصي بها او دين . آباؤكم وابناؤكم لا تدرون ايهم اقرب لكم نفعا . فريضة من الله ان الله كان عليما حكيما . ولكم نصف ما ترك ازواجكم ان لم يكن لهن ولد . فان كان لهن ولد فلكم الربع مما تركن من بعد وصية يوصين بها او دين ولهن الربع مما تركتم ان لم يكن لكم ولد فان كان لكم فلهن الثمن مما تركتم من بعد وصية توصون بها او دين . وان كان رجل يورث كلالة او امرأة وله اخ او اخت فلكل واحد منهما السدس . فان كانوا اكثر من ذلك فهم شركاء في الثلث من بعد وصية يوصي بها او دين غير مضار وصية من الله والله عليم حكيم) النساء الاية ٩١ـــ١١٢ . وقوله تعالى :(يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلالة . ان امرؤ هلك ليس له ولد وله اخت فلها نصف ما ترك وهو يرثها ان لم يكن لها ولد فان كانتا اثنتين فلهما الثلثان مما ترك . وان كانوا اخوة رجالا ونساء فللذكر مثل حظ الانثيين يبين الله لكم ان تضلوا انه بكل شيء عليم) النساء آية ١٧٦ .

ومن يتأمل حكمة الاسلام في احترام الملكية الفردية ووضع القواعد العامة للمواريث عرف ان هذا من اكبر الدوافع التي تحفز اصحاب الاموال الى استثمار اموالهم في مجالات الانتاج لانمائها وتكثيرها وهذا يحمي تلك الاموال من ان تطالها يد الاسراف والتبذير .

والملكية الفردية تشجع وتدفع اصحابها او من يستثمرها الى الابتكار

والابداع لانه يعرف ان عائداتها سترجع له وتزيد ثروته اذ الانسان الذي يعرف ان هذه الاموال التي صرف على جمعها عقله وصحته ستصير الى الدولة ولا ينتفع منها ، فلا يكون هناك ما يحفزه الى ادخارها والمحافظة عليها ومن ثم يميل الى الكسل والخمول ما دام يقبض راتبه على الدنيا العفى •

ولهذا رأينا روسيا عندما الغت الملكية الفردية فشلت في انجاح اشتراكيتها • اذ ظهر لها ان الناس الذين امنوا حاجتهم بالرواتب التي دفعتها لهم لم يوجد ما يحفزهم الى العمل الجدي والابتكار ومالوا الى الكسل والخمول ما دام كل امرىء مجزيا على عمله بما يكفل حاجته • واصبحوا يفضلون الاعمال غير المجهدة لذلك عمدت روسيا الى اصدار تعديل لنظامها فكان دستور ٩٣٦ الذي سمح للملكية الفردية الصغيرة ان تنمو ولهذا تغير تالقاعدة من (كل حسب قدرته ولكل حسب حاجته) الى (كل حسب قدرته ولكل حسب ما يؤديه من عمل ، ومن لا عمل له ليس له الحق في أن يأكل) •

ثالثا ــ الوصية :

ومن العوامل التي اتخذها الاسلام في تفتيت رأس المال ومكافحة مساوىء التكديس الوصية اذ اباح الاسلام لكل مسلم أن يوصي بجزء من ماله لينفق على الفقراء وعلى المشاريع التي تدر النفع والخير على ابناء المجتمع • وقد جعل القرآن للوصية مرتبة سامية بالتشريعات التي سنها وقد اوجب اداءها وقرن اهمية الاداء مع اهمية سداد الدين حيث قال الله تعالى : (من بعد وصية توصون بها او دين) • وقوله ايضا : (من بعد وصية توصين بها او دين) • وقال رسول الله (ص) : (لا تركة الا بعد سداد الدين) والمقصود بالدين هو الدين الحقيقي والوصية اذ ان الوصية دين بذمة الموصي يجب على الورثة ان يؤدوه ، غير ان الاسلام لم يجعل الوصية مطلقة بل حددها بثلث التركة في حدها الاعلى وحرمها على الورثة

حيث قال رسول الله (ص) : (لا وصية لوارث) وذلك لئلا يظفر الوارث بنصيبين الوصية وحصته من التركة وهو ضرب من ضروب تكديس الاموال التي حاربها الله .

وجعل الشارع الميراث اجباريا في الثلثين الباقيين بعد اخراج لوصية وهي كما قلنا ثلث الميراث في حدها الاعلى بخلاف بعض القوانين المدنية التي يعمل بها في الوقت الحاضر عند بعض الدول والتي تجيز الوصية لأي كان ويجمع المال سواء كان الموصى له وارثا او غير وارث . وقد جوزوا الوصية لغير الانسان حيث اجازوها للكلاب والقطط وسائر الحيوانات الاخرى بخلاف النظام الاسلامي الذي يأمر بتوزيع حصص الارث توزيعا واسعا فيعطي للاقارب حصصا بشكل واسع ومتفاوت اعطاء اجباريا ولا يسمح لصاحب التركة ان يتصرف بها وصاية الا بحدود الثلث والمقصود من ذلك هو الحفاظ على التوازن الاقتصادي .

رابعا ـ نصيب الفقراء من الفيء والغنائم :

ومن وسائل التخفيف من طغيان رأس المال التي لجأ اليها القرآن انه اجبر رجال الحرب والغزاة ان يشركوا معهم بالغنائم المستضعفين من الامة الذين لم يتمكنوا من اداء مهمة القتال فقال عز من قال : (واعلموا انما غنمتم من شيء فان لله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل) صورة الانفال الاية ٤١ .

فاليتامى والمساكين وابن السبيل وغيرهم ممن ذكرتهم الاية المتقدمة هم ولا شك مستضعفون وهم قاعدون اي عاجزون عن الاشتراك في الجهاد لعلل واسباب متنوعة ومختلفة ولذلك فان الله سبحانه وتعالى لم يجز حرمانهم من الفيء والغنائم بل جعل لهم نصيبا مفروضا مع المجاهدين الذين يخوضون غمار الموت من اجل العقيدة .

ولهذا كان الرسول (ص) يأخذ خمس تلك الغنائم ليوزعها على

الاشخاص الوارد وصفهم بالاية المتقدمة •

اما الاخماس الاربعة الاخرى فتوزع على منتسبي الجيش كل بنسبة مجهوده هذا بالنسبة للغنائم اما اذا كان الغنم فيئا وهو الذي يحصل عليه المسلمون بلا قتال فالقرآن لا يكتفي بالخمس بل يوزع المال كله على تلك الاصناف التي ذكرناها فيما تقدم وهذا قول الله تعالى مصداق على ذلك: (ما افاء الله على رسوله من اهل القرى فلله وللرسول ولـذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كي لا يكون دولة بين الاغنياء منكم متداولا وملكا لهم لان ذلك تكديس للمال وهو محرم اذ تكون فيه الحركة والاستغلال والاستبداد وكلها محرمة في شرع الاسلام •

خامسا ـ تحريم كنز الاموال :

حرم الاسلام بشكل واضح وصريح كنز الاموال والكنز هو منـع المال من التبادل والتداول الاقتصادي الذي لا بد منه لحاجة المجتمع الماسة اليه وذلك بقصد استخدامه في الانتاج الاقتصادي وفي مشاريع الاستثمار الاقتصادية المختلفة بزيادة الدخل القومي وتنمية الثروة القومية ، لكـل هـذا حرم الاسلام كنز الاموال وتوعـد الفاعلين لان اموالهم المكنوزة ستكون في الاخرة نارا تحرق اجسامهم وتأكل اعضاءهم وهذا قول الله العليم : (والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونهـا في سبيل الله فبشرهم بعذاب اليم • يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههـم وجنوبهم وظهورهم هذا ماكنزتم لانفسكم فذوقوا ماكنتم تكنزون)•التوبة الايتان ٣٤ ، ٣٥ •

والمقصود من التحريم في هذه الاية هو خزن الاموال وعدم اخراج زكاتها فالفرد اذا علم انه يتوجب عليه ان يخرج مما كنزه في كل عام ربع العشر من ماله فانه سيعمل عندئذ الى استثمارها خشية ان تفنيها الزكاة مع طول عمرها،واذا علمنا ان ثروة الامة هي عبارة عن ثورة الافراد منضمة

الى بعضهـا ادركنا انه يتحتم علـى الاثرياء ان لا يجمدوا اموالهـم بل يستثمرونها لمنفعة المجموع .

واذا اصر الاغنياء على كنز اموالهم وعدم استثمارها لمصلحة المجموع حق للدولة الاسلامية ان تصادر تلك الاموال المكدسة وتستثمرها بالشكل الذي تختاره وحفظ اصل المال لصاحبه مع اعطائه حصة من الربح كما انه يتحمل قسطه من الخسارة . واهذا نجد ان غرض الاسلام هو اعداد نظام للملكية الصغيرة ليقي المجتمع من اوضار الرأس المال الكبير وطغيانـه وليسعف الطبقة المحتاجة علما بان النظام الاسلامي اقام الملكيات الصغيرة على معيار قانوني واخلاقي يجعلها مقيدة بالمصلحة العامة بصورة واضحة وقد حرص الاسلام على اموال الافراد والجماعات من التبدد كما يتبين ذلك من الاجراءات التالية :

اولا ـ الحجر على السفهاء :

السفهاء هم المبددون للاموال في غير الوجوه الصحيحة اما لفسـاد اخلاقهم وضعف عقولهم او لسوء تدبيرهم . ولمنعهم وضع الحجر عليهم بقوله تعـالى : (ولا تؤتوا السفهاء اموالكم التي جعـل الله لكم قياما وارزقوهم فيها واكسوهم وقولوا لهم قولا معروفا) النساء آية ٥ .

فالاية نهت المسلمين ان يطلقوا ايدي السفهاء في الاموال ليبعثروها ولا يحسنون التصرف فيها . وفي الاية اشارتان مهمتان تحث المسلمين على المحافظة على اموال السفهاء وصيانتها من اسرافهم وتبذيرهم وهما : جاء في قوله تعالى : (اموالكم) ولم يقل: (ولا تؤتوا السفهاء اموالهم) بل قال : (ولا تؤتوا السفهاء اموالكم) ليلفت النظر الى ان مال السفيه هو في الوقت نفسه مال الامة . فيجب المحافظة عليه وعدم افساح المجـال للسفيه لتبديدها لان تبديدها خطر علـى المجتمع ، فالتضامن الاجتماعي يعتبر مال السفيه مال المجتمع لانه جزء من الثروة القومية وفي قوله تعالى:

(التي جعل الله لكم قياما) لان الاموال تقوم باعاشة المجتمع وتبني بها مصالحهم المشتركة اذ بها قوام وعماد الحياة الاقتصادية ففي تضييع السفيه لها ضياع لهذا القوام الذي هو عماد الحياة .

فالسفيه اذا بدد ماله على الفساد او في مواطن ليست له ولأمته فيها مصلحة فعمله هذا يعتبر تبديدا لاموال الامة او الدولة التي ينتسب اليها السفينة لان الفرد جزء من المجتمع وماله جزء من مال المجتمع كله . وبالتالي يؤدي عمله هذا الى افقار نفسه ومجتمعه وخصوصا اذا تسرب هذا المال الى ايد اجنبية كما نلاحظه في الوقت الحاضر على الذين يسافرون او يذهبون للاصطياف في بلاد اجنبية ومن وسائل تبديد المال تعاطي المعاقرة والمقامرة ومعاشرة الغواني فهي فجوة كبيرة تتبدد فيها الاموال وتنتهك فيها المحرمات ويغضب لها الله لانها وسائل لهو وعبث لذلك على السلطة ان يحجروا على هؤلاء المبددين ويعطوهم من اموالهم قدر حاجتهم وليس لهم الحق بالتصرف باكثر من ذلك لانهم سفهاء توجب حجرهم ومن المؤسف ان نرى كثيرا من المسلمين يبددون ولا يلتزمون ولا حجر ولا حساب لان الحكومات تحكم بقوانين وضعية تاركة الشريعة الاسلامية وراء ظهرها .

ثانيا ـ اختبار الايتام قبل تسليمهم اموالهم :

وهذا اسلوب آخر من اساليب الاسلام لحفظ اموال الناس افرادا وجماعات فلمنعهم من تبديد اموالهم في طرق غير مشروعة وخصوصا القاصرين منهم قبل تسليم أموالهم اليهم حيث ورد قول الله عز وجل : (وابتلوا اليتامى حتى اذا بلغوا النكاح فان آنستم منهم رشدا فادفعوا اليهم اموالهم ولا تأكلوها اسرافا وبذارا ان يكبروا . ومن كان غنيا فليتعفف ومن كان فقيرا فليأكل بالمعروف فاذا دفعتم اليهم اموالهم فاشهدوا عليهم وكفى بالله حسيبا) النساء آية ٦ . ومعنى الاية يا أيها الاولياء اختبروا من كان تحت ولايتكم من اليتامى فاذا وجدتم انهم قد بلغوا

رشدهم فادفعوا اليهم اموالهم واذا كانوا دون ذلك فاستمروا في ولايتكم عليهم • ثم يشير من جهة اخرى الى انه يجوز للوالي اذا كان فقير الحال ان يأكل من اموال اليتامى ممن هم تحت ولايته بقدر حاجته واذا كان غنيا فليترفع عن ذلك تطبيقا لقوله تعالى : (ومن كان غنيا فليتعفف) •

ثالثا ــ كتابة العقود المالية :

لكتابة العقود في العصر الحاضر فائدة كبرى ذلك ليعلما طرفا العقد او ورثتهما او أي شخص تخصه تلك العلاقة في الحاضر والمستقبل حقوقه وواجباته ، لان مرور الزمن مدعاة للنسيان وموت الشهداء او الشهود مدعاة للانكار وان عدم تسجيل الاموال يتيح الفرصة المنكرين من اكلة اموال الناس بالباطل ، فلأجل عدم الوقوع في مثل هذه المزالق توجب تسجيل الاموال في حالة الاستدانة او الرهن او الاجر او غيرها لان تسجيل هذه العقود حرز لها وصيانة من الضياع • ويقاس على ما تقدم جميع العقود المالية لانها لا تقل اهمية عن الدين وفي ذلك جاء قوله تعالى :ــ (يا ايها الذين آمنوا اذا تداينتم بدين الى اجل مسمى فاكتبوه • وليكتب بينكم كاتب بالعدل • ولا يأب كاتب ان يكتب كما علمه الله • فليكتب وليملل الذي عليه الحق وليتق الله ربه ولا يبخس منه شيئا فان كان الذي عليه الحق سفيها او ضعيفا او لا يستطيع ان يمل هو فليملل وليه بالعدل واستشهدوا شهيدين من رجالكم فان لم يكونوا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء ان تضل احداهما فتذكر احداهما الاخرى ولا يأب الشهداء اذا مادعوا ولا تسألوا ان تكتبوه صغيرا او كبيرا الى اجله • ذلكم اقسط عند الله واقوم للشهادة وادنى أن لا تكتبوها • واشهدوا اذا حاضرة يديرونها بينكم فليس عليكم جناح ان لا تكتبوها • واشهدوا اذا تبايعتم ولا يضار كاتب ولا شهيد • وان تفعلوا فانه فسوق بكم واتقوا الله ويعلمكم الله والله بكل شيء عليم • وان كنتم على سفر ولن تجدوا كاتبا فرهان مقبوضة • فان أمن بعضكم بعضا فليؤد الذي أؤتمن امانته

وليتق الله ربه ولا تكتموا الشهادة ومن يكتمها فانه اثم قلبه) البقرة آية ٢٨٢ و ٢٨٣ .

يتبين من الايات مارت الذكر في سبيل حفظ الحقوق المالية مايلي:ــ

١ ــ كتابة الدين المؤجل الى تاريخ معين وهذه النظرية اخذ بها القانون الفرنسي في اواخر القرن الثامن عشر اذ اشترط ان يكون الدين مكتوبا ولا تسمع فيه البينة الشخصية اذا تجاوز العشرة دنانير وكذا فعل القانون المدني العراقي . وبهذا ايضا اخذت بعض القوانين الاوربية.

٢ ــ ان يكتب وثيقة الدين او الحق المالي كاتب عدل خبير بشؤون التوثيق عالم باحكام الشريعة وهذا يستلزم وجود العلم عند هذا الكاتب بالاضافة الى صفة التمرس بشؤون توثيق الحقوق بين الناس وهذا ما ندعوه بالاختصاص .

٣ ــ ان الذي يملي على الكاتب هو المدين وليس الدائن والمقصود من ذلك ان يكون الاملاء بحضوره واخذ اعترافه ليكون ما يكتب في الوثيقة حجة عليه ملزم ان يبرزها الدائن عند حلول اجل الدين او عند الاستحقاق . واذا كان المدين لا يستطيع ان يمل كأن يكون عاجزا او جاهلا بشؤون التعامل واصوله ناب عنه وليه بهذا الواجب خشية ضياع الحقوق او الاساءة فيها .

٤ ــ وبعد الفراغ من كتابة الوثيقة يجب ان يشهد عليها شاهدان من الرجال العدول على الاقل ، فان تعذر وجود رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء ، والحكمة من جعل امرأتين بدل الرجل الواحد ذلك ان المرأة يغلب عليها النسيان فان نسيت احداهما ذكرتها الاخرى بالاضافة الى ان ممارسة المرأة لشؤون المعاملات المالية غير مألوفةوقليلة.

٥ ــ لقد استثنى القرآن الدين التجاري واجاز اثباته بغير الكتابة بواسطة البينة الشخصية وعلة ذلك ان الصفقات التجارية تقتضيالسرعة

ولا تحتمل التأخير فاشتراط الكتابة فيها بعطل المعاملات التجارية ويلحق بها الاضرار وقد تضيع فرصة الكسب على المشتري وهذا ما اخذت بـه القوانين الوضعية في وقتنا الحاضر •

٦ ـ لقد اشارنا القرآن الى نوع آخر يحفظ لنا حقوقنا وهو الرهن فاذا كانت المعاملة قد جرت في سفر ولم يجدوا كاتبا عوض الرهن عـن الكاتب والشهود وبذلك جاء القرآن يقول (وان لم يكن كاتب فرهـان مقبوضة) • ويروي ان الرسول (ص) رهن درعه عند يهودي لاثبـات دينـه •

٧ ـ ولقد حرم القرآن على الانسان ان يمتنع عن الشهادة اذا دعي اليها • لان المصلحة العامة تحتم تعاون ابناء المجتمع الواحد لحفظ حقوقهم من الضياع وهذا ما يجري شبيهه في المحـاكم التي اخذت بالقوانـين الوضعيـة •

رابعا ـ تحريم الربا :

حرم الاسلام على اتباعـه تعاطي الربا في المعاملات المالية حيث قال : (واحل الله البيع وحرم الربا) لانـه يميت مشاعر الشفقة والرحمـة في الانسان ، لان المرابي يكون مصاص دماء لا يرحم ولا يتردد عن تجريـد المدين من امواله كلهـا لان المراباة تجعل منه مخلوقا قاسيا خارجا علـى مألوف الجماعة التي تربط بينها اوشاج الرحمة والعطف والمودة •

فالمال في عرف الاسلام ملك الله اودعه في الانسان ليوظفه في خير الجماعة ومنفعتها العامة فاذا اساء التصرف فيها اغضب الله وخسر عطف الجماعة ومحبتها وهو ممنوع من ان يتحين فرصة حاجتهم ليأخذ منهم اكثر مما اعطاهم (فلكم رؤوس اموالكم لا تظلمون ولا تظلمون) •

وقد حتم الاسلام على اتباعه الاثرياء ان يعطوا الى المحتاجين قروضا

بلا فائدة لان هذه السلوكية هي تمتن المودة وتشيع التكافل والتضامن بين ابناء المجتمع الواحد ، بينما الربا يمحق المودة ويثير العداوة والبغضاء بين الغني والفقير • وقد اعتبر الاسلام الربا منكرا اقتصاديا غليظ الاثم لانه يتنافى مع تعاليمه التي تحض على المعاونة الصادقة والمساعدة لمن يحتاجها اذ قال جل شأنه : (يمحق الله الربا ويربي الصدقات) آية ٢٧٦ من سورة البقرة •

ويقول الله جلت قدرته في التحذير من الربا : (يا ايها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا ان كنتم مؤمنين • فان لم تفعلوا فاذنوا بحرب من الله ورسوله • وان تبتم فلكم رؤوس اموالكم لا تظلمون ولا تظلمون • وان كان ذو عسرة فنظرة الى ميسرة • وان تصدقوا خير لكم ان كنتم تعلمون) البقرة آية ٢٧٨ — ٢٨٠ •

حرمت هذه الايات الربا تحريما قاطعا بقوله تعالى : (فان لم تفعلوا فاذنوا بحرب من الله ورسوله) ثم قال : (فان تبتم فلكم رؤوس اموالكم) وفي هذا نص صريح على ان الدين يستحقه صاحب الدين من دينه انما هو رأس ماله فقط بدون زيادة • ثم قال : (وان كان ذو عسرة فنظرة الى ميسرة) ومعنى ذلك اذا كان المدين معسرا فمن الواجب الديني والوطني امهاله ريثما يتيسر لديه المال ليسدد دينه • وجاء في القرآن ايضا في تحريم الربا قوله تعالى : (يا ايها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا اضعافا مضاعفة واتقوا الله لعلكم تفلحون واتقوا النار التي اعدت للكافرين واطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون) آل عمران ١٣٠ — ١٣٢ •

هذه الآيات وغيرها نص قاطع على تحريم الربا لما فيه من ظلم شديد للانسان من اخيه الانسان ، لانه يجيز للدائن ان يأخذ من المدين اضعافا مضاعفة لما اعطاه له من دين وقد تسبب الربا في اضاعة املاك المدينين بعد ان استغرقها الدين فاصبح فقيرا معسرا بعد ان كان غنيا موسرا ولهذا حرمه الاسلام ولهذا اوعد الله فاعلي الربا بعذاب شديد •

والربا الذي حرمه الاسلام وحاربه هو ربا النسيئة : اي التأخير بالدفع مقابل زيادة الدين • وفي ذلك يقول « الجصاص » في كتابه احكام القرآن ما نصه : (الربا الذي كان الناس يعرفونه ويتعاطونه انما كان اقراض الدراهم الى اجل بزيادة على مقدار القرض بنسبة يتراضون عليها) ويقول ايضا : (انه معلوم ان ربا الجاهلية انما كان قرضا مؤجلا بزيادة مشروطة من المال فكانت هذه الزيادة بديلا عن الاجل فابطل الله تلك الفعلة وحرمها بقوله تعالى : (وان تبتم فلكم رؤوس اموالكم) وقوله تعالى: (وذروا مابقي من الربا) •

وربا النسيئة يعرف ايضا : ــ بربا الجلي فيقول ابن القيم في كتابه اعلام الموقفين الجزء الثاني ص ٩٩ : (الجلي او ربا النسيئة كما كان يسمى هو الذي كان يفعله الجاهليون في عصر الجاهلية كأن يؤخر دينه على المدين مدة من الزمن فيزيد في المال المقترض مقدارا وكلما اخره زاد المال حتى تصبح المائة عنده آلاف مؤلفة) •

وهناك نوع آخر من الربا ذكرته السنة تفصيلا ويطلق عليه : ربا الفضل وهو مبادلة عين بعين مع زيادة في المال يأخذها احد المتبادلين بدون تأجيل كأن يتبادل احمد بناقة مع عمر بناقة اخرى ويشترط عمر على احمد ان يدفع له عشرة دنانير زيادة على ناقته بدون تأجيل العين المتبادل بها وهذا النوع من المعاملات التجارية قليل التداول في زماننا هذا فلسنا بحاجة الى تفصيله •

مضار الربا :

حرم الاسلام الربا لاسباب كثيرة منها :ــ

١ ــ انه يسبب العداوة والبغضاء بين افراد المجتمع •

٢ ــ ويمنع قيام التعاون بينهم اذ التعاون اساس المجتمع الناهض اذ

الفرد عاجز عن القيام بواجباته الاجتماعية منفردا مهما اوتي من قوة وقديما قيل (الانسان مدني بالطبع) •

٣ ـ وقد هدف الاسلام من تحريم الربا الى الحيلولة دون المحاباة برأس المال على حساب الجمهور لان الربا ضرب من ضروب تكديس المال عند القلة •

٤ ـ والربا يجعل صاحبه طفيليا استغلاليا يعيش على كد الكادحين ويمنعه من العمل النافع المجدي للجماعة كلها وقد رد القرآن على من قال : انما الربا بيع بقوله : (ذلك لانهم قالوا انما البيع مثل الربا • واحل الله البيع وحرم الربا) البقرة الاية ٢٧٥ •

وسبب الاختلاف ان البيع مهنة احلها الله لانها تستلزم عملا ومهارة واخلاقا عالية لان العمل اذا خلا من الضابط الخلقي ربما تجاوز الحد الى حقوق الغير وذلك ما تحرمه شرائع السماء بالاضافة الى القوانين الوضعية الصحيحة •

٥ ـ منع الربا شرعا لانه يؤدي الى خلق طبقة مترفة مستغلة مستبدة تتحكم في رقاب الغير دون عمل نافع تؤديه للمجتمع فتتضخم اموالها وتتكدس الثروة بين أيديها دون جهد ولا عمل وهو محرم عرفا وتشريعا •

٦ ـ ومن مساوىء الربا ايضا انه يحمل اصحابه على الدخول في مغامرات في صفقات تجارية كبيرة ذلك ان التاجر بدلا من ان يحدد تجارته في رأس المال الذي بحوزته يأخذ مالا بفائدة من المرابين ليوسع تجارته وقد يكسب منها ولكن كم تكون العاقبة مهلكة عندما تنزل بتجارته نازلة كأن تحترق تلك البضاعة او تغرق او تهبط قيمتها فيصبح المدين عاجزا عن الايفاء بالتزاماته نحو الدائن ومن ثم يؤدي به ذلك الى الافلاس وهنا تثور العداوة والبغضاء بين المقرض والمقترض وتشغل المحاكم بدعاوى هي في غنى عنها لولا الربا والمرابون ناهيك عن السمعة السيئة والمصير الاظلم

الذي يحيق بمعلن الافلاس وكثيرا ما يضطر الى الانتحار تخلصا مما يحيق به من شقاء وعذاب .

٧ ـ ومن اوضار الربا انه يوجد اضطرابا نفسيا وقلقا ذاتيا مستمرا بالنسبة للمرابي والمدين على حد سواء .

٨ ـ والربا وسيلة جيدة وناجحة لغزو الاستعمار الاقتصادي الى البلاد الفقيرة جملة وتفصيلا فكم من دولة فقيرة اقترضت مالا من دولة غنية عجزت عن تسديد الفائدة فتضاعف المال المقترض بسبب التأجيل على الدولة المقترضة مما هيأ الفرصة المقرضة أن تستعمر الدولة المدينة بحجة استرجاع مالها المقترض فتضع يدها على مصادر الثروة في تلك البلاد لجمعها وابتزازها بحجة سداد دينها ولذلك قال رسول الله (ص) : (لعن الله آكل الربا وموكله وكاتبه وشاهديه وهم سواء) فآكل الربا هو صاحب المال الذي يقرضه بفائدة وموكله هو المدين الذي اقترض المال بفائدة يعطيها لصاحب المال المقترض منه يستحقان اللعنة . اما كاتب الربا وشاهداه فانهما ملعونان لانهما اعانا على عمل حرمه الله وقد يعترض البعض على ما بيناه من الربا ومساوئه وعيوبه قائلا : اننا نعيش في زمن ليس فيه دول اسلامية قوية تقيم الاسلام وتستغني عمن يخالفها في احكامها بل هناك دول مادية علمانية قبضت على ناصيت الثروة في العالم حتى صارت تتحكم فيها فما هو موقف الاسلام من ذلك والجواب على هذا يتلخص فيما يأتي :

١ ـ ورد تحريم الربا في القرآن والسنة نصا . والقاعدة الفقهية تقول : (لا اجتهاد في مورد النص) .

٢ ـ وهناك استثناء للقاعدة ورد ايضا في القرآن (فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا اثم عليه) .

٣ ـ ان للضرورات احكامها فقد اباح العلماء اللجوء الى تخطي

الحدود عند الضرورات على ان يكون ذلك مقيدا بقيود حيث ورد (الضرورات تبيح المحضورات وتقدر بقدرها) •

سبل القضاء على الربا :

بالرغم من تفشي الربا في وقتنا الحاضر ووجود من يشجعه اخذا وعطاء فان هناك بعض الوسائل اذا عمدت الدولة مخلصة في تنفيذها استطاعت ان تحد من فحشاء الربا او تقضي عليها ومن تلك الوسائل ما يلي :

١ ــ فريضة الزكاة : تستطيع الدولة ان تحصي اموال الاغنياءوتستلم فريضة الزكاة منهم وتوزعها على مستحقيها من المعوزين •

٢ ــ القرض بدون فائدة : وباستطاعة الدولة ان تقرض المعوزين او تسلفهم ما يحتاجونه من رأس مال بدون فائدة لغرض استغلالها في مشاريعهم النافعة •

٣ ــ انشاء تعاونيات زراعية وصناعية وتجارية تساهم الحكومة بقسم من رأسمالها عوضا عن المواطنين الذين لا يملكون رأس مال وهم اعضاء في مثل هذه التعاونيات على ان يسترجع المال المقترض من مقترضيه بآجال وبدون فائدة من ارباح هذه التعاونيات •

انواع الربا :

الربا نوعان استهلاكي وانتاجي وكلاهما في الاسلام محرمان ويقول العلامة شارل جيت (ان تحريم الربا كان من الضروريات في العصور الغابرة وان اباحته في هذا العصر من الضروريات ايضا لان الدين فيما مضى كان للاستهلاك واما الان فهو للانتاج) راجع كتاب الاقتصاد السياسي الجزء الثاني •

لقد اعترض العلامة المذكور فقال : ان الربا الذي يكون للاستهلاك

واجب التحريم كما جاء به القرآن ولكنه اباح الربا الانتاجي ونحن نقول للعلامة : هل ان جميع الربا في عصرنا الحاضر يذهب للانتاج اذ قسم منه يذهب للاستهلاك هذا من جهة ومن جهة اخرى اذا سلمنا جدلا ان الدين بالربا للانتاج مفيد فكيف نفرق بين دين الانتاج ودين الاستهلاك ؟ واذا فرقنا بينهما فما هو العوض الذي نقدمه لمقرض الدين الاستهلاكي اذا جوزنا تعاطيه واذا منعناه فباي شيء ومن اي مصدر نسد حاجة المقترضين في حالة الدين الاستهلاكي ؛ لهذه الاسباب وهذه الصعوبات حرم الاسلام الربا بنوعيه صراحة بقوله تعالى : (واحل الله البيع وحرم الربا) دون ان يذكر ان هذا التحريم وقع على ربا الاستهلاك دون ربا الانتاج والصراحة لا تقبل التأويل والتفسير اذ (لا اجتهاد في مورد النص) .

وقد يؤيد بعض الناس مشروعية الربا الانتاجي ويقولون (انه يحصل او ينشأ وليدا من التزاوج بين عمل المدين ورأس مال الدائن) وجوابنا على هذا ان تعاطي التجارة والحرف الاخرى برأس مال يقدمه الثري وعمل يقوم به العامل وهذا ما هو معروف بعروض التجارة يغني عن اللجوء الى القرض بفائدة اذ يتحمل كل منهما خسارة المشروع ويقتسمان ربحه.

فائدة المال المذخر في البنوك وصناديق التوفير :

يذهب البعض الى تحليل الفائدة المأخوذة عن المال المذخر في مصارف او في صناديق التوفير باعتبار ان تلك الفائدة هي جزء من ربح المذخر وقبل ان نبدي رأينا بالموضوع ننقل نص الفتوة الصادرة عن مشيخة الازهر والتي تقول : (ان اخذ فائدة من رأس المال المودع في المصارف او صندوق التوفير محرم لانه من الربا المحرم في الكتاب والسنة والاجماع ويرى فضيلة الشيخ محمود شلتوت رأيا آخر في الفائدة التي تؤخذ من صندوق التوفير فيقول (يرى بعض علماء الحلال والحرام ان هذا الربح حرام لانه اما فائدة ربوية للمال المودع او منفعة جرها قرض . والذي نراه تطبيقا لاحكام الشريعة والقواعد الفقهية السليمة انه حلال ولا حرمة فيه.

ذلك ان المال المودع لم يكن دينا لصاحبه على صندوق التوفير ولم يكن قرضا اقترضته دائرة صندوق التوفير من صاحبه وانما تقدم به صاحبه من تلقاء نفسه الى مصلحة البريد طائعا مختارا ملتمسا قبول المصلحة اياه وهو يعرف انها تستغل الاموال المودعة لديها بمواد تجارية ويقدر فيها ان لم يكن معدما الكساد او الخسران ، وقد قصد في هذا الايداع :

١ ـ حفظ ماله من الضياع وتعويد نفسه على التوفير والاقتصاد .

٢ ـ وقصد امداد المصلحة بزيادة رأس مالها ليتسع نطاق معاملتها وتكثر ارباحها لينتفع العمال والمواطنون وتنتفع الحكومة بفاضل الارباح. فاذا ما عينت المصلحة قدرا من ارباحها منسوبا الى المال المودع اي نسبة تريد وتقدمت به الى صاحب رأس المال كانت دون شك معاملة ذات نفع تعاوني عام ليس فيه ادنى شائبة بظلم احد او استغلال لحاجة احد وانما هو تشجيع على التوفير والتعاون اللذين يستحبهما الشرع) .

اما نحن وان كنا نرى في وجهة نظر الاستاذ شلتوت رأيا مقبولا تجوزه الضرورات فان لنا رأيا آخر يتلخص من نقطتين :

١ ـ الاولى : ايداع الاموال الفردية والجماعية لدى المصارف وصناديق التوفير امانة بدون فائدة وذلك لان ايداعها في مثل هذه المؤسسات اكثر امنا من حفظها في البيوت فما دام الامر بقصد الائتمان عليها فلتودع بدون فوائد .

٢ ـ والنقطة الثانية : اذا كان المقصود من ايداعها الحصول على الفائدة فلتدخل رأس مال في تلك الصناديق والمصارف تتحمل اوضارها وتنتفع من مكاسبها هذا صريح رأينا ولنا فيه الحجة والبينة .

تحريم اكل اموال الناس بالباطل :

قال الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم في تحريم اكل اموال الناس

بالباطل : (ولا تأكلوا اموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها الى الحكام لتأكلوا فريقا من اموال الناس بالاثم وانتم تعلمون) البقرة آية ١٨٨ .

ومعنى الاية ان الله يقول : يا ايها الناس لا يأكل بعضكم مال بعض لان ذلك جناية على نفس الآكل وعلى الامة التي هو احد ابناءها اذ لا بد ان يصيبهم سهم من كل جناية تقع عليها ولذلك اختار الله عز وجل لفظ (اموالكم) للاشعار في وحدة الامة وتكاتفها فمال البعض هو مال الجميع لان المال عصب حياة الامة فكان لزاما على افراد الامة جميعا ان يتكاتفوا لصيانته والمحافظة عليه .

اما معنى قوله تعالى : (وتدلوا بها الى الحكام) اي ولا تعطوها للحكام رشوة (لتأكلوا فريقا من اموال الناس بالاثم وانتم تعلمون) ان الاستعانة بالحكام بعد ارشائهم على اكل مال الغير بالباطل محرم لان حكم الحكام لا يعتبر الحق ولا يحل للمحكوم له بطلا .

وفي الوقت الذي نرى الله جل جلاله يحرم اكل اموال الناس عامة نراه في مواضع اخرى يشدد هذا المنع على اموال فئة او فئات خاصة منها تحريم اكل اموال اليتامى ظلما ووعد الفاعل بعقوبة النار فقال جل شأنه : (ان الذين يأكلون اموال اليتامى ظلما انما يأكلون في بطونهم نارا وسيصلون سعيرا) النساء آية ١٠ .

وذم الله بعض رجال الدين من المسيحيين الذين يأكلون اموال الناس بالباطل فقال : (يا ايها الذين آمنوا ان كثيراً من الاحبار والرهبان ليأكلون اموال الناس في الباطل ويصدون عن سبيل الله) التوبة آية ٣٤ .

هذه الآية حذرت الاحبار والرهبان الذين يأكلون اموال الناس بغير حق ويقاس على هذا التحريم ما يبذله كثير من الناس لمن يعتقدون فيه العبادة ليدعو لهم عند الله في قضاء حاجاتهم فالدعاء من الله مطلوب ومقبول ولكن بدون ثمن وعلى هذا ايضا يقاس ما يأخذه سدنة قبور

الاولياء الصالحين من الهدايا والنذور التي تحمل الى ساكني تلك القبور اذ حارب الاسلام هذه الظواهر ما ظهر منها وما بطن ٠

تحريم القمـار :

ورد ذكر القمار في القرآن الكريم باسم الميسر وهو معروف عند العرب في جاهليتهم فكل ما يتراهن الناس فيه من معاملة فيها خطر الكسب المطلق او الخسارة المطلقة سمي قمارا او ميسرا ويدخل في مسميات الميسر اليوم اوراق اليانصيب أو الرهان في سباق الخيل وغيرها وقد حرم الاسلام الميسر بانواعه فقال تعالى : (انما الخمر والميسر والانصاب والازلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون) المائدة ٩٠٠

وسميت المقامرة قمارا لخروجها عن الطريق القويم لكسب العيش ويعود الناس الكسل وانتظار الرزق من السبل الوهمية ويضعف مواهب العقل بترك الاعمال المفيدة كالزراعة والتجارة والصناعة التي ترقي المدارك الفكرية وتدر على الامة رزقا حلالا كريما ويضيع الوقت بدون فائدة حقيقية وفي القمار تخريب البيوت وهدمها وكم من غني اصبح فقيرا ، وكم من اسرة نشأت في الغنى والعز فاضاع القمار ثروتها وهدم الميسر عزتها وكرامتها فاصبحت فقيرة تتكفف ايدي المحسنين او ربما انحرف فاعلوها الى طريق الجريمة قتلا ونهبا وسرقة فاضحى من سكان القبور او نزلاء السجون ٠

تحريم التلاعب بالكيل والميزان :

ومما شرعه الاسلام للحفاظ على اموال الناس وتأمين حقوقهم كاملة غير منقوصة هو ما امر به وحض عليه بخصوص تنظيم الموازين والمكاييل وعدم التلاعب بها وقد حذر الاسلام اتباعه من ان يبخسوا الناس اشياءهم فينقصوهم حقهم حيث قـال : (وزنوا بالقسطاس المستقيم) وقـال : (واقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميـزان) الاية ٩ من سورة

الرحمن • ويمنع التلاعب بالاوزان ووعد فاعليه بعذاب النار فقال : (ويل للمطففين الذين اذا اكتالوا على الناس يستوفون واذا كالوهم او وزنوهم يخسرون الا يظن اولئك انهم مبعوثون ليوم عظيم يوم يقوم الناس برب العالمين) سورة المطففين الآية ١ ـ ٦ •

ومن هذا يظهر لنا ان الاسلام منع التلاعب بالارزاق والمكاييل وقياسا على ذلك كافة المقاييس والمعايير التي يبيع الناس بموجبها ويشترون لان هذا فضلا عن انه حرام تعاقب صاحبه القوانين الشرعية والوضعية فهو خيانة اجتماعية لانه يزيل الثقة بين المتعاملين ويدخل الشك والريبة الى قلوبهم فتتفكك عرى المجتمع وتشيع العداوة والبغضاء بين ابناء المجتمع الواحد بدلا من ان تشيع بينهم الود والمحبة والصفاء • ولهذا اوكل الاسلام في الدولة الاسلامية امر محاسبة اولئك وفرض العقوبة عليهم الى السلطة فقد خولت امر مراقبة الباعة وفحص وسائل الوزن والكيل والقياس وانزال العقوبات الرادعة بحق العابثين والمفسدين ليقضي على الغش وفاعليه لان الغش عامل مهم من عوامل افساد المجتمع الاسلامي ولذلك قال رسول الله (ص) : (من غشنا فليس منا) اي ان المجتمع الاسلامي يرفض ويأبى ان يكون الغشاشون من ابنائه ومنتسبيه•

النهي عن الاسراف :

ولحفظ اموال الافراد والجماعات من التبديد والاسراف في طرق الانفاق في غير مواضعها فقد نهى الاسلام عنها لان الاسراف يؤدي بصاحبه في النهاية الى الافلاس الذي بسببه تضيع اموال المسرف وتنحط قيمته الاجتماعية وربما كان سببا في ضياع اموال الغير اذا كان ممن اقترض مالا من غيره ولعظم مسؤولية المسرفين والمبذدين فقد قرنهم الله تعالى بالشياطين الذين يعملون على اضلال الناس والعبث في الارض فسادا فقال تعالى في محكم كتابه : (ولا تبذر تبذيرا ان المبذرين كانوا اخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفورا) الاسراء الاية ٢٦ و ٢٧ •

فالمبذرون يفسدون في الاسراف نظـام عيشهم ومعيشتهم ويكفرون بالنعمة التي حباها الله لهم وكان عليهم ان يحفظوها ولا ينفقوها الا في مواضع صرفها شاكرين من نعمته مقدرين عليهم فضله شاعرين بما الناس في اموالهم من حق يؤدونه الى مستحقيه كما جاء في قوله تعالى : (انمـا الصدقات للفقراء والمساكين) .

وقد وصف الباري جلت قدرته عاقبة المسرفين والمبذرين ووضع قاعدة للصرف معتدلة قائمة بين التبذير والتقتير وقال جلت حكمته : (ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعـد ملوما محسورا) الاسراء آية ٢٩ .

ومعنى الآية ان الله سبحانه وتعالى يحرم الاسراف بالانفاق ويحرم كذلك البخل والتقتير فالانفاق يجعل صاحبه ملاما من الناس محتاجا الى عونهم متحسرا على ما فرط من امر ثروته وقانا الله شر المبذرين والمقترين وجعلنا من المقربين اليـه والمقبولين وقل الحمد لله رب العالمين والصـلاة والسلام على سيد الاولين والآخرين امام الهدى نبي المتقين وعلى آلـه واصحابه ومن دعا بدعوته الى يوم الدين .

خير الله طلفاح

★ ★ ★

الملك الأفضل العبّاس الغساني مؤرّخاً

شاكر محمود عبد المنعم
كلية الآداب - جامعة بغداد

اسمه ونسبه :

الملك الافضل العباس [1] بن علي بن داود بن يوسف بن عمر بن علي ابن رسول الفتح بن هارون بن نوحي بن ابي الفتح بن نوحي بن جبلة بن الحارث بن جبلة بن الأيهم بن جبلة بن الحارث بن ابي جبلة بن الحرث بن ثعلب بن عمرو بن علية جفنة ، ويتصل نسبه بيشجب بن يعرب بن قحطان بن الازد ويسمى يقطن بن عاد بن شح بن ارمخشد بن سام بن نوح [2] .

---

(١) انظر ترجمته في : ابن خلدون ، العبر ، مجلد ٥ ق٥ ص ١٠٩٥ الخزرجي ، العسجد المسبوك ، الورقة : ٣١٣ — ٣٢٤ . الكفاية والاعلام ، الورقة : ١٨٥ . العقود اللؤلؤية ، ج٢ ص ١٥٧ — ١٦٠ . القلقشندي ، صبح الاعشى ، ج ٥ ص ٣٢ . ابن المقرىء ، عنوان الشرف ، الورقة : ٩٥ — ٩٧ . ابن حجر ، إنباء الغمر ، ج ١ الورقة : ٤٩ والمطبوع ، ج ١ ص ٢١٠ ابن الديبع ، بغية المستفيد ، الورقة : ٨ — ١١ . وقرة العيون (نسخة مكتبة المتحف العراقي) الورقة : ٢٩٢ . ابو مخرمه ، تاريخ ثغر عدن ، ج٢ ص ١٠٥ — ١٠٧ الكبسي ، اللطائف السنية ، الورقة : ٢٠٨ — ٢٠٩ . وآخرون لا مجال لذكرهم .

(٢) انظر : الملك الافضل العباس ، نزهة العيون . مخطوط دار الكتب المصرية رقم (٣٥١) تاريخ ، الورقة : ١٢٣ أ . والخزرجي ، العقود اللؤلؤية، ج ١ ص ٢٦ — ٢٧ .

ويتفق المؤرخون اليمنيون جميعا على هذا النسب ، وبناء على ذلك فهو عربي اصلا باعتبارهم • غير ان هذا الاجماع بين المؤرخين اليمنيين وجد خروجا عليه من لدن مؤرخين ليسوا يمنيين ذهبوا الى القول ان آل رسول الذين ينتسب اليهم الملك الافضل العباس انما هم من اصل تركماني (٣) • وانفرد المقريزي بالقول ان نسبهم كردي (٤) • وذهب بعض المؤرخين الى ذكر النسبين (التركماني والغساني) • دفعا للاحراج كما ذهب ابن تغري (٥) بردي الى ذلك مثلا • ولقد اصعد الملك الاشرف عمر بن رسول ـ الجد الثالث للملك الافضل ـ نسبهم الى جبلة بن الايهم وهو بهذا يؤكد ان اصلهم عربي (٦) • واوضح الخزرجي السبب الذي كان يدفع كثيرا من الناس الى الظن بانهم من التركمان ، وذلك ان جدهم جبلة بن الايهم انتقل الى بلاد التركمان فسكن وقبيلته هناك مع قبيلة يقال لها (مَجك) فاقاموا بينهم وتكلموا بلغتهم وبعدوا عن العرب فانقطعت اخبارهم عن كثير من الناس ، فلما خرج اهل هذا البيت الى العراق نسبهم من يعرفهم الى غسان ونسبهم من لا يعرفهم الى التركمان(٧)• وقال العرشي انهم نسبوا الى التركمان لانهم سكنوا مع قبيلة منهم يدعون (بَجنَك) فاختلطوا بهم وقيل هم تركمانيون (٨) •

---

(٣) انظر الحوادث الجامعة ، ص ١٢٣ • ابن حجر ، انباء الغمر ، ج١ • الورقة : ١٩٩ • العيني ، عقد الجمان ، ج ٢٥ ق ١ الورقة : ١٦٧ • السخاوي ، الضوء اللامع ، ج ٢ ص ٢٩٩ • ابن العماد ، الشذرات ، ج ٧ ص ٢٦ • وتابعهم عدد من المحدثين في اعتبار اصل بني رسول تركمانيا ومنهم حسين بن احمد العرشي ، بلوغ المرام ، ص ٤٤ • وعمر رضا كحالة ، معجم المؤلفين ، ج ٢ ص ٢٧٥ •

(٤) انظر : الذهب المسبوك ، ص ٧٩ •

(٥) النجوم الزاهرة ، ج ٨ ص ٧١ •

(٦) طرفة الاصحاب ، ص ٨٨ ـ ٩٠ •

(٧) العقود اللؤلؤية ، ج ١ ص ٢٧ • والكفاية والاعلام ، الورقة : ٩١

(٨) بلوغ المرام ، ص ٤٤ •

مما تقدم يمكن القول ان نسب آل رسول يكتنفه بعض الغموض . وخاصة اذا علمنا ان اغلب المصادر سكتت عن ذكر الاسم الحقيقي لجدهم رسول . كما لم تذكر المصادر اسم الخليفة العباسي الذي قربه منه وادناه واختصه برسالته فسمي رسولا . والغريب ان الذين ذكروا اسم رسول هـذا ، وهم قلة ، اختلفوا في ايراد اسمه . فسماه الافضل العباس (٩) (الفتح بن هارون بن نوحي) وسماه الخزرجي (١٠) « محمد بن هارون » .

ومع ذلك فلم اجد من مؤرخي اليمن ، وهم اعلم بتأريخ هـذه الاسرة من غيرهم ، من جعل نسبهم تركمانيا او كرديا . فضلا عن تأكيد افراد هذه الاسرة انفسهم على انهم من اصل عربي لذلك فان ما أوضحه الخزرجي هو الراجح حينما قال : « فلما خرج اهل هذا البيت الى العراق نسبهم من يعرفهم الى غسان ومن لا يعرفهم الى التركمان » (١١) . على ان تاريخ هذه الاسرة يبدو واضحا في أيام الايوبيين في اليمن ، واشتهر من بينهم الامير الكبير شمس الدين علي بن رسول بن هارون بن ابي الفتح الغساني من نسل جبلة بن الايهم (١٢) .

اسرتــه :

يتصل نسب الافضل عباس برسول ، واسمه محمد بن هارون على الارجح ، وكان احد وزراء الايوبيين بمصر . ثم اصبحت له حظوة عند الخليفة العباسي . ولا تشير المصادر الى اسم هذا الخليفة ولا الى عصره واكتفى الخزرجي بالقول : « فقربـه الخليفة العباسي صاحب بغـداد وادناه منه واختص به ورفع عنه الحجاب .... » (١٣) . وراسل بـه

(٩) نزهة العيون ، الورقة : ١٢٣ ا .

(١٠) العقود اللؤلؤية ، ج ١ ص ٢٧ . والعرشي ، بلوغ المرام ص٤٤ . واحمد حسين شرف الدين ، اليمن عبر التاريخ ، ص ٢٢١ .

(١١) العقود اللؤلؤية ، ج ١ ص ٢٧ .

(١٢) طرفة الاصحاب ، ص ٨٩ .

(١٣) الكفاية والاعلام ، الورقة : ٩١ .

الملوك ثقة به ، بما يريد من الامور من غير كتاب ويرجع بالجواب على لسانه ايضا من غير كتاب .

ومن هنا جاءت تسميته بـ (رسول) . وتشير المصادر الى ذكائه وفطنته وهذا أمر طبيعي لأن مهمة الرسول صعبة تقتضي ذلك ، وكان لا بد للرسول من ان تتوفر فيه ميزات خاصة كالوقار وثبات العقل والصبر وما الى ذلك (١٤) . فكان محمد بن هارون جليل القدر (١٥) تتوفر فيه الشروط الواجب توفرها في الذين يتراسل بهم الملوك . ويبدو أن ما حصل عليه من جاه وحظوة قد افاد منه ابنه الامير علي بن رسول فاصبح وزيرا للايوبيين (١٦) .

والمشهور من بني رسول باليمن هو المنصور نور الدين عمر (١٧) بن علي بن رسول مؤسس الدولة الرسولية بتعز وقد انابه الملك المسعود صلاح الدين يوسف بن الملك الكامل عندما توجه الى مصر سنة ٦١٥ هـ . ولما وصله نبأ وفاة المسعود بمصر سنة ٦٢٦ هـ استقل بالامر لنفسه وضرب السكة باسمه وامر الخطباء بذكره على المنابر واعلن سلطانه على البلاد وتلقب بالمنصور بعد أن طلب الاذن من الخليفة العباسي وقتئذ . وهكذا يطوى التاريخ صفحة من تاريخ بني ايوب في اليمن ليفتح صفحة

---

(١٤) راجع ان شئت ابن الفراء ، رسل الملوك ومن يصلح للرسالة والسفارة ، ص ١٠ — ٢٠ .

(١٥) العقود اللؤلؤية ج ١ ص ٢٧ .

(١٦) طرفة الاصحاب ، ص ٨٩ .

(١٧) ترجم له كثيرون منهم : الحوادث الجامعة ص ١٢٣ . بهجة الزمن في تاريخ اليمن ، ص ٨٥ . العطايا السنية : الورقة ٤٠ أ العسجد المسبوك ، مطبوع على الآلة الكاتبة بتحقيقنا ص ٤٧٧ . العبر ، مجلد ٥ ق٥ ص ١٠٩٦ — ١٠٩٧ . صبح الاعشى ج٥ ص ٣٠ . تحفة الكرام ، الورقة : ٨٧ . عنوان الشرف ، الورقة : ٩٤ — ٩٥ . الذهب المسبوك ، ص ٧٩ — ٨١ . وغير ذلك كثير لامجال لذكرهم .

اخرى جديدة لبني رسول [١٨] .

وتعاقب ملوك بني رسول على اليمن منذ التاريخ المذكور ، واتسم عصرهم بتشجيع العلوم والاداب وبناء المدارس ورعاية العلماء . كما برز منهم مؤلفون في الطب والفقه والحديث واللغة . فكان الملك المظفر شمس الدين يوسف بن الملك المنصور نور الدين عمر المتوفي سنة ٦٩٤هـ قد اخذ من كل فنٍ بنصيب ... وكانت له معرفة بالطب [١٩] . كما ان ابنه الاشرف عمر بن يوسف المتوفي سنة ٦٩٦ هـ من العلماء بالطب وله عدد من المصنفات منها : شفاء العليل في الطب ، وطرفة الاصحاب في معرفة الانساب ، والتبصرة في علم النجوم ، وجواهر التيجان ،والمغني في البيطرة ، كما الف كتابا في الاسطرلاب بعد ان زاول عمله واتقنه [٢٠] وتنسب اليه كتب اخرى . وكان اخوه المؤيد ابو المظفر هزبر الدين داود ابن الملك المظفر يوسف محبا لجمع الكتب والتحف جمع من مصنفات العالم على اختلافها وتباينها ما ينيف على مائة الف مجلدة وحملت اليه الكتب والتحف من كل جهة وكان عنده مع ذلك زيادة على عشرة نساخ

---

(١٨) انظر ان شئت تفاصيل عن ذلك مع اختلاف بين المؤرخين في تحديدهم لقيام الدولة الرسولية والمؤسس الحقيقي لها في الذهب المسبوك، ص ٧٩ ـ ٨٠ . وغاية الاماني ، ص ٤١٠ . اللطائف السنية ، الورقة : ١٨٥ . وصبح الاعشى ، ج ٥ص٣٠ ـ ٣١ . انباء ابناء الزمن الورقة : ٦٨.

(١٩) انظر مثلا : بهجة الزمن ، ص ٨٨ . العسجد المسبوك ، حوادث سنة ٦٤٨ ص ٤٧٧ . الكفاية والاعلام ، الورقة : ١٠٠ . صبح الاعشى ، ج ٥ ص ٣١ الذهب المسبوك ، ص ٨٤ . النجوم الزاهرة ، ج ٨ ص ٧١.

(٢٠) انظر على سبيل المثال لا الحصر عن ترجمته وعن كتبه : ـ العطايا السنية : الورقة : ٤٠ أ . الكفاية والاعلام ، الورقة ١٢٨ وما بعدها . صبح الاعشى ، ج ٥ ص ٣١ . تاريخ تعز عدن ، ج ٢ ص ١٨١ ـ ١٨٣ انباء ابناء الزمن ، الورقة : ٧٤ وما بعدها . غاية الاماني ، القسم الاول ، ص ٤٧٧ . العقود اللؤلؤية . ج ١ ص ٢٧٧ ـ ٢٧٨ . القاموس الاسلامي مجلد ١ ص ١١٥ . معالم تاريخ الجزيرة العربية ، ص ١٩٨ .

ينسخون الكتب وترفع الى خزانته بعد مقابلتها وتحريرها وكان فاضلا سائسا شجاعا عالما يحفظ التنبيه وغير ذلك . واخذ الحديث عن علماء عصره . وتوفي سنة ٧٢١ هـ (٢١) . وكان المجاهد علي بن داود متجها نحو الادب نظما ونثرا وله ديوان شعر ومعرفة بعلم الفلك والنجوم وبعض العلوم الشرعية ويقال انه اعلم بني رسول (٢٢) .

وكانت وفاته سنة ٧٦٤ هـ على الارجح (٢٣) .

الافضل ملكا :

وبعد وفاة المجاهد اجتمع امراء دولته على قيام ولده الملك الافضل العباس (٢٤) بن داود ولم يكن في اولاد المجاهد من هو ارشد منه ولا اعقل ولا اولى للامر منه وان كان فيهم من هو اكبر منه سنا .

ولا جدال في ان الافضل عباس نشأ في بلاط ملكي ووسط ثقافي

---

(٢١) انظر حول ترجمة : بهجة الزمن ص ١٣٢ . مرآة الجنان ، ج ٤ ص ٢٦٦ . نزهة العيون ، الورقة : ١٢٣ أ الكفاية والاعلام ، الورقة : ١٣٠ - ١٥٥ . العقود اللؤلؤية ، ج ١ ص ٤٤١ . صبح الاعشى ، ج ٥ ص ٣١ . تاريخ ثغر عدن ، ج ٢ ص ٧٢ . إنباء أبناء الزمن ، الورقة : ٦٨ . غاية الاماني ، القسم الاول ، ص ٤٩٤ .

(٢٢) انظر مثلا : - مرآة الجنان ، ج ٤ ص ٢٦٦ . اللطائف السنية ، الورقة : ٣٥ ب العبر ، ج ٥ ص ١٠٩٥ . العقود اللؤلؤية ، ج ٢ ص ١٢٣ - ١٢٧ . الكفاية والاعلام ، الورقة : ١٥٥ أ . تاريخ تعز عدن ، ج ٢ ص ١٣٩ - ١٥٠ .

قرة العيون ، نسخة المتحف العراقي ، الورقة : ٣٠٩ . ونسخة دار الكتب ، الورقة : ١١٠ أ .

(٢٣) هناك اختلاف في سنة وفاته فقد جعلها ابن خلدون والقلقشندي سنة ٧٦٦ هـ . اما الخزرجي وابو مخرمة فقد جعلها سنة ٧٦٤ وحددها المقريزي سنة ٧٦٩ . واكد زامباور ما ذهب اليه الخزرجي وابو مخرمة . راجع الحاشية اعلاه .

المعت اليه فيما فات • وجريا على عادة الملوك في تأديب ابنائهم وتعليمهم لا يستبعد انه تتلمذ على شيوخ كفاة • ولا يستبعد أيضا انه قرأ القرآن ودرس الحديث وبعض الفقه والتاريخ والادب •••• والراجح انه تثقف ثقافة خاصة قيضتها له ظروفه الخاصة •

ويلوح لي من خلال البحث ان المسؤوليات التي تقلدها ، من ادارة وحرب وتنظيم وسياسة لم تقض على طموحه الثقافي • وقد يكون من الضروري ان اشير هنا الى ثقافة اسلافه من بني رسول • واهتمامهم بالعلم والعلماء • فلقد ظهر من بينهم مؤلفون وقفنا على اهمهم ورأينا كيف أن كلا منهم كان مشتهرا بعلم او فن معين وملم بعلوم اخرى • وعلى العموم فلقد كانوا على معرفة تامة بثقافة عصرهم ، مهتمين ببناء المدارس•

وقد قويت في ايام الافضل شوكة الخارجين في زمن ابيه فبدأ حكمه باعمال عسكرية استهدفت القضاء على الاضطرابات واخضاع المخالفين ففرق كلمتهم واستأصل شأفتهم (٢٥) ثم قام باعمال عمرانية كبناء المدارس في مكة وفي تعز ورتب بها المدرسين والمعيدين وايتاما يتعلمون القرآن الكريم والشريعة واوقف عليها الاوقاف وجدد سور زبيد وعمر خنادقها(٢٦)

---

(٢٤) انظر ترجمته : في العبر ، مجلد ٥ ق ٥ ص ١٠٩٥ . العسجد المسبوك والزبرجد المحكوك ، الورقة : ٣١٣ ــ ٣٢٤ . الكفاية والاعلام الورقة: ١٨٥ . العقود اللؤلؤية ، ج ٢ ص ١٥٧ ــ ١٦٠ . صبح الاعشى ، ج ٥ ص ٣٢ . عنوان الشرف الوافي ، الورقة : ٩٥ ــ ٩٧ . انباء الغمر ، ج ١ الورقة : ٤٩ والمطبوع ج ١ ص ٢١٠ ــ ٢١١ . بغية المستفيد ، الورقة : ٨ ــ ١١ .

قرة العيون ، نسخة المتحف العراقي ، الورقة : ٢٩٢ . تاريخ ثغر عدن ، ج ٢ ص ١٠٥ ــ ١٠٧ اللطائف السنية الورقة ٢٠٨ وغير ذلك.

(٢٥) العقود اللؤلؤية ، ج٢ ص ١٥٩ . وعنوان الشرف الوافي ، الورقة : ٩٨ .

(٢٦) العقود اللؤلؤية ، ج ٢ ص ١٥٨ ــ ١٥٩ . تحفة الكرام الورقة : ٨٧ ب .

الافضل مؤرخا :

وكان الافضل ذكيا مشاركا للعلماء في عدة فنون من العلم عارفا بالنحو والآداب واللغة والانساب وسير العرب والملوك . واشتهر من بين ملوك آل رسول بما صنفه من مؤلفات قيمة لا تزال مخطوطة لا تمتد اليها الا أيدي بعض المتخصصين وفيما يلي أستعرض أهم هذه المؤلفات :

١ ــ العطايا السنية والمواهب الهنية في المناقب اليمنية (★)

رأيت هذا الكتاب في دار الكتب المصرية تحت رقم ٣٥١ اثناءوجودي في القاهرة عام ١٩٦٩ . ويقع في ٥٧ ورقة ذات لوحين . مخطوط بقلم معتاد ذكر فيه طبقات فقهاء اليمن وكبرائها وملوكها ووزرائها وعلمائها وذكر مناقبهم ، فذكر فضائل اليمن ثم بدا بايراد التراجم مرتبة على حروف المعجم مبتدءا بحرف الالف . ولاحظت كنى المترجمين في هذا المخطوط مكتوبة بالحبر الاحمر . وثمة ملاحظة تسترعي الانتباه وهي انه يترجم حتى اولئك الذين ماتوا في زمنه . وينتهي هذا المخطوط بالورقة ٥٧ . وكان الفراغ من نسخه في العشرين من المحرم سنة ٩٠٤ هـ وحرى بي ان اذكر انني اعتمدت على هذا الكتاب اثناء تحضيري لرسالة الماجستير قبل ست سنوات ولاحظت ان الكتاب ليس هو كل ما اراده المؤلف تحت عنوان (العطايا السنية) فلعله مهذب عن الاصل او ان اقسامه الاخرى ضائعة . ومع ذلك فان الكتاب ذو قيمة تاريخية لا يستهان بها ، ويصح ان يكون بين كتب التراجم والسير المهمة .

٢ ــ نزهة العيون في تاريخ طوايف القرون (★)

اطلعت على هذا الكتاب ايضا في دار الكتب المصرية في مجلد واحد مع اللطائف السنية تحت رقم ٣٥١ تاريخ ويبدأ بالورقة ٥٨ ب بمقدمة

(★) في مكتبتي الخاصة نسخة مصورة عنه .

اوضح فيها نهجه في كتاب العطايا السنية وانه دون فيه تواريخ واخبارا عن الرجال والنساء واسمائهم ومدد اعمارهم من عصر آدم (ع) الى عصر من ذكرهم في كتابه العطايا السنية ، وانه اراد ان يذكر في نزهة العيون ما اغفله في كتابه الاول ويجعله ذيلا متمما ولم يبسط القول فيه بسطا ولم يختصره اختصارا مخلا • فتعرض الى « ارباب التأريخ» كما سماهم ، وطرائقهم ومقاصدهم في التدوين واوضح رأيه فيها على شاكلة تمثل خطا وسطا بين الاسهاب والاختصار ثم بين مصادره في تأليف كتابه فذكر انه جمعه من نيف وثلاثين كتابا ورتبه على حروف المعجم • وقد دونت على الصفحة الاولى التي تضمنت العنوان اسماء الكتب التي استقى منها المؤلف مادته • ولقد اثنى الخزرجي على كتاب نزهة العيون بقوله : ـ « لم يحذ على مثاله ولم ينسج على منواله » [٢٧] وما بين الورقة ٦٠ ب حتى الورقة ٩١ ب ، تحدث عن النبي (ص) وحياته وغزواته ووفاته ثم ذكر آدم وابراهيم وايوب واسحق عليهم السلام من الانبياء ، وافلاطون وابقراط وغيرهم ممن تبدأ اسماؤهم بحرف الالف ثم يتابع ذكر التراجم على حروف المعجم ••• وبعد ان يترجم الافضل في نزهة العيون لمن وقع اسمه تحت حرف الياء يكون قد وصل الى الورقة ٢٦٣ • ثم يفرد بابا يتعلق بالانساب حيث ينتهي بالورقة ٢٧٨ • وهو مدون بقلم معتاد وعلى هامشه تقييدات كثيرة ويرجع تاريخ نسخه الى اليوم السابع والعشرين من شهر ذي القعدة سنة ٩٠٤ هـ •

٣ ـ مختصر تاريخ ابن خلكان الذي سماه الدرر والعقيان المختصر من تاريخ ابن خلكان :

وقال عنه « اثبتنا فيه جماعة من العلماء وكبار العظماء •••• واثبتنا

---

(٢٧) العقود اللؤلؤية ، جزء الثاني صفحة ١٥٨ •

رواياته في مدرستنا بتعز » [٢٨] وقد ذكر هذا الكتاب اغلب الذين ترجموا للافضل ، وكتاب وفيات الاعيان لابن خلكان مشهور ومدروس ولا فائدة من تحصيل ما هو حاصل الا انني ارى من الضروري الاشارة الى ان هناك ستة مختصرات لوفيات الاعيان والدرر المذكور احدها .

٤ ــ نزهة الابصار في اختصار كنز الاخبار

اصل هذا الكتاب من مصنفات الشريف عماد الدين ادريس بن علي الحمزي [٢٩] المتوفى سنة ٧١٤ هـ واسمه الكامل : « كنز الاخبار في معرفة السير والاخبار » واغلب الظن انه مفقود في الوقت الحاضر ، ولم استطع العثور عليه بعد مراجعة فهارس المكتبات المختلفة . ويقع في اربعة اجزاء، فالاول منها في سيرة النبي (ص) والخلفاء من بعده . والثاني في اخبار بني امية من معاوية الى قريب المائة الثانية . والثالث في اخبار بني العباس وغيرهم . والرابع في ذكر ملوك حمير التبابعة قبل النبوة [٣٠] .

ولقد اعتمد على كتاب كنز الاخبار كل من الافضل عباس وابنه الاشرف اسماعيل والخزرجي وغيرهم .

---

(٢٨) انظر : نزهة العيون ، الورقة ٥٨ ب . والعطايا السنية ، الورقة : ١ ب .

(٢٩) وكان اميرا على القحمة ولحج في زمن الدولة الرسولية بايام الملك المؤيد . اعتمد في كتابه كنز الاخيار ويرد احيانا (الاخبار) على تاريخ الطبري والمسعودي وابن الاثير . ثم اضاف اليه اخبار العراق ومصر والشام الى سنة ٧١٣ هـ واخبار اليمن الى سنة ٧١٤ هـ . واعتمد عليه ــ كنز الاخيار ــ الخزرجي في مؤلفاته واشار الى ذلك تصريحا في تضاعيف مؤلفاته . انظر : غاية الاماني ، ص ٤٩١ . نزهة الافكار ، الورقة :١٥٨. تاريخ آداب اللغة ، ج ٣ ص ٢٢٠ .

(٣٠) غاية الاماني في اخبار القطر اليماني / القسم الاول ص ٤٩١ــ ٤٩٢ .

٥ ــ بغية ذوي الهمم في انساب العرب والعجم :

وهو كتاب خاص بالانساب. ذكره الخزرجي[٣١] في العقود اللؤلؤية وقال عنه جرجي[٣٢] زيدان مختصر مفيد منه نسخة في برلين . ولقد كانت كتب الانساب ، وما تزال ، تمثل حقلا من حقول التاريخ المهمة واذا كان معاصروا الافضل قد اهتموا بانساب العرب . فلقد وسع دائرة معارفه الى الالمام بانساب العجم . ولذلك فالكتاب جدير بالدراسة والتحقيق.

٦ ــ دلايل الفضل في علم الخط والرمل :

وقد انفرد يحيى بن الحسين في ذكر هذا الكتاب ولم استطع في الوقت الحاضر الحصول على تفاصيل عنه .

هذه هي اهم مصنفات الملك الافضل التي ذكرها مترجموه[٣٤].

ولقد سبقت الاشارة الى مشاركته العلماء واهتمامه بهم . ثم وجدت تشابها بين بعض التراجم والحوادث التي اوردها الافضل في كتابه نزهة العيون وبين ما أورده ابنه الملك الاشرف اسماعيل في كتابه العسجد المسبوك . بل ان الاشرف اعتمد على بعض مصنفات والده ومنها : نزهة العيون واشار الى ذلك في مواضيع عديدة[٣٥] من العسجد المسبوك

(٣١) انظر / ج ٢ ص ١٥٨ .
(٣٢) تاريخ آداب اللغة العربية ، ج ٣ ص ٢١٩ .
(٣٣) انباء ابناء الزمن ، الورقة : ٩٤ .
(٣٤) انظر المصادر في الحاشية (١) التي تقدمت سلفا وانظر
Brockelman , Geschichte Der Arabischen Litterature (5 vols), Zweiter Supplementband Leiden , E. J Brill, 1958 , P. 236

(٣٥) انظر على سبيل المثال : دار الكتب المصرية رقم ٢١٨٩ميكروفليم تاريخ : الورقة : ٤٩ ب ، ٦٩ ب ونسخة دار الكتب المصرية رقم ٣٨٦٣ تاريخ . الورقة ٥ ب ، ٤٣ أ ، ٦٣ ب ، ٦٦ أ ، ١٣٣ ــ ١٤٠ أ . وفي الورقة : ٤٣ أ قال (ذكر ذلك مولانا الوالد في كتابه نزهة العيون عن مشايخه) .

والجوهر المحكوك في طبقات الخلفاء والملوك كما اشار الى اعتماده على كتاب نزهة الابصار •

لذلك فان الافضل لم يترك لمن جاء من بعده نفوذا سياسيا وحسب، بل ترك وراءه ثروة فكرية متمثلة بمصنفاته التي لاحظنا اعتماد ولده الاشرف عليها • كما ترك مجاميع المصنفات التي كانت تأتيه من كل جهة ومن هذا المنهل ارتشف الاشرف فاستفاد وافاد ، وترك لنا مؤلفا ضخما غنيا بمادته التاريخية هو العسجد المسبوك الذي سنحدثك عنه في مقال آخر •

وكانت وفاة الملك الافضل يوم الجمعة الحادي والعشرين من شهر شعبان سنة ثمان وسبعين وسبعمائة (٣٦) • فحصل الاجتماع على قيام ولده الملك الاشرف اسماعيل بن العباس ابن رسول •

ويمكن تقويم كتابات الملك الافضل التأريخية بصورة اجمالية كما يلي :

١ ــ اهتمامه بتأريخ اليمن ، الذي ما زال دارسوه يعانون من قلة المصادر عنه لاستجلائه •

٢ ــ ان اهتمامه بتراجم الرجال كان كبيرا ، وعندما يكون هذا الاهتمام صادرا عن ملك يكتسب اهمية خاصة ولك ان تفسر ذلك كما تشاء •

٣ ــ لقد اعتمد على موارد اولية ومهمة وبعضها يعتبر مفقودا حتى هذه اللحظة وهذا يضفي على كتاباته التأريخية اصالة واهمية كبيرة •

٤ ــ وكان له وجهة نظر خاصة في تدوين التأريخ •

ولذلك فان تلك الكتابات بحاجة الى دراسة مستقلة قد تترتب عليها نتائج مهمة من الناحية التأريخية •

---

(٣٦) العقود اللؤلؤية ، ج ٢ ص ١٥٧ . وبغية المستفيد ، الورقة: ١١٣ أ .

المصادر والمراجع

أولا : الخطيـة :

ابن حجر ، احمد بن علي بن محمد العسقلاني (ت ٨٥٢ هـ)

١ ــ إنباء الغمر بأنباء العمر ، نسخة مكتبة الاوقاف العامة ببغداد رقم ٥٨٨٣ .

ابن الديبع ، عبد الرحمن بن علي بن محمد بن عمر الشيباني (ت ٩٤٤ هـ)

٢ ــ بغية المستفيد في اخبار مدينة زبيدة مخطوط دار الكتب المصرية رقم ١١م تاريخ

٣ ــ قرة العيون في اخبار اليمن الميمون ، نسخة دار الكتب المصرية رقم ٢٤٤ تاريخ . ونسخة مكتبة المتحف العراقي رقم ١٧٥٠ .

ابن المقرىء ، شرف الدين اسماعيل بن ابي بكر اليمني (ت ٨٣٧ هـ).

٤ ــ عنوان الشرف الوافي في الفقه والنحو والتاريخ والعروض والقوافي ، نسخة مكتبة المتحف العراقي ببغداد رقم ١٤٢٧ .

الانف ، ادريس بن الحسن بن عبدالله (؟)

نزهة الافكار وروضة الاخبار وفي ذكر من قام باليمن من الملوك الكبار والدعاة الاخيار ، جـ ١ ، نسخة دار الكتب (رقم ٢٢٥٣) ميكرو فيلم .

الحسني الكبسي ، محمد بن اسماعيل بن محمد الكبيسي الحمري (ت ١٣٠٨ هـ) .

٦ ــ اللطائف السنية في اخبار الممالك اليمنية ، نسخة المكتبة التيمورية رقم ٧٢٤ تاريخ .

الخزرجي ، ابو الحسن علي بن الحسن الخزرجي المعروف بابن وهاس (ت ٨١٢) .

٧ ــ طراز الزمن في اعيان اليمن ، جزءان ، نسخة المكتبة التيمورية رقم ٧٨٣ تاريخ .

٨ ــ العسجد المسبوك والزبرجد المحكوك فيمن ولي اليمن من الملوك، نسخة دار الكتب المصرية رقم ٢١٥ ميكرو فيلم المصورة عن مكتبة الامام يحيى في اليمن رقم ٥٢ تاريخ .

٩ ــ العقد الفاخر الحسن في طبقات اعيان اهل اليمن ، الجزء الثاني والثالث نسخة معهد المخطوطات العربية بجامعة الدول العربية رقم ٣٣٧ ميكرو فيلم مأخوذة عن نسخة كيمبرج .

١٠ ــ الكفاية والاعلام فيمن ولي اليمن وسكنها في الاسلام . نسخة دار الكتب المصرية رقم ٢٢٠٦ ميكرو فيلم .

العباس بن رسول ، الملك الافضل عباس بن علي (ت ٧٧٨ هـ)

١١ ــ العطايا السنية والمواهب الهنية في المناقب اليمنية ، مخطوط دار الكتب المصرية رقم ٣٥١ تاريخ .

١٢ ــ نزهة العيون في تاريخ طوايف القرون ، مخطوط دار الكتب المصرية رقم ٣٥١ تاريخ .

العيني ، نور الدين ابو محمود بن احمد (ت ٨٥٥ هـ) .

١٣ ــ عقد الجمان في تاريخ اهل الزمان ، نسخة دار الكتب الفوتوغرافية رقم ١٥٨٤ الفاسي ، تقي الدين محمد بن احمد الحسيني (ت ٨٣٢ هـ) .

١٤ ــ تحفة الكرام في اخبار البلد الحرام ، مخطوط دار الكتب المصرية رقم ١٦٤٦ خصوصية .

يحيى بن الحسين ، (ت ١١٠٥ هـ (★)) .

١٥ ــ إنباء ابناء الزمن في تاريخ اليمن ، نسخة دار الكتب المصرية رقم ١٣٤٧ تاريخ .

ثانيا المطبوعة :

ابن تغري بردي ، جمال الدين ابو المحاسن يوسف الاتابكي (ت٨٧٤هـ)

١٦ ــ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، القاهرة / ١٩٢٩ ــ

(★) وجعل بعضهم وفاته سنة ١١٠٠ هـ

١٩٥٦ . ابن حجر ، ابو الفضل شهاب الدين احمـد بن علي العسقلاني (ت ٨٥٢ هـ) .

١٧ ــ إنباء الغمر بأنباء العمـر ، جزءان ، تحقيق الدكتور محمـد عبد المعيد خان مطبعة مجلس دائرة المصارف ، حيدر آباد /١٩٦٧/١٣٨٧. ابن خلدون ، عبد الرحمن بن محمد المغربي (ت ٨٠٨ هـ)

١٨ ــ العبر وديوان المبتدأ والخبر في ايام العرب والعجم والبربـر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الاكبر ، منشورات دار الكتاب اللبناني ، بيروت ١٩٥٦ ــ ١٩٦١ .

ابن عبد المجيد اليماني ، تاج الدين عبد الباقي (ت ٧٤٣ هـ) .

١٩ ــ بهجة الزمن في تاريخ اليمن ، تحقيق مصطفى حجازي ،مطبعة مخيمر ، ١٣٨٤ ــ ١٩٦٥ .

ابن العماد الجنبلي ، ابو الفلاح عبد الحي (ت ١٠٨٩ هـ) .

٢٠ ــ شذرات الذهب في اخبار من ذهب ، مكتبة القدسي ، القاهرة ١٣٥٠ ــ ١٣٥١ هـ .

ابن الفراء ، ابو علي الحسين بن محمد (ت ؟) .

٢١ ــ رسل الملوك ومن يصلح للرسالة ، تحقيق صلاح الدين المنجد، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة / ١٣٦٦ ــ ١٩٤٧ .

ابو مخرمة ، الطيب عبدالله بن احمد (ت ٩٤٧ هـ) .

٢٢ ــ كتاب تاريخ ثغر عـدن ، جزءان . تحقيق اوسكارلو فكرين ، مطبعة بريل ، ليدن / ١٩٣٦ .

باوزير ، سعيد عوض .

٢٣ ــ معالم تاريخ الجزيرة العربية ، الطبعة الثانية ، عدن / ١٣٨٥ــ ١٩٦٦ . جرجي زيدان .

٢٤ ــ تاريخ آداب اللغة العربية ، الطبعة التي راجعها الدكتور شوقي ضيف ، دار الهلال ، القاهرة / ١٩٥٧ .

الخزرجي ، ابو الحسن علي بن الحسن المعروف بابن وهاس (ت ٨١٢هـ)

٢٥ ـ العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية ، جزءان ، تحقيق محمد بيسوني عسل ، مطبعة الهلال بالفجالة / القاهرة ١٣٢٩ ـ ١٣٣٢ / ١٩١١ ـ ١٩١٤ .

الدلجي ، احمد بن علي (ت ٨٣٨ هـ) .

٢٦ ـ الفلاكة والمفلوكون ، طبع على نفقة مكتبة ومطبعة الشعب ، القاهرة / ١٣٢٢ هـ . زامباور .

٢٧ ـ معجم الانساب والاسرات الحاكمة في التاريخ الاسلامي ،جزان، اخرجه الدكتور زكي محمد حسن بيك وحسن احمد محمود واشترك في ترجمته آخرون ، مطبعة جامعة فؤاد الاول / القاهرة ١٩٥١ .

السخاوي ، شمس الدين محمد بن عبد الرحمن (ت ٩٠٢ هـ).

٢٨ ـ الضوء اللامع لاهل القرن التاسع ، نشرته مكتبة القدسي القاهرة / ١٣٥٤ ـ ١٣٥٥ هـ .

العرشي ، القاضي حسين بن احمد .

٢٩ ـ بلوغ المرام في شرح مسك الختام ، عني بتحقيقه انستاس ماري الكرملي ، مطبعة البرتيري ، القاهرة / ١٩٣٩ .

عطية الله ، احمد .

٣٠ ـ القاموس الاسلامي ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة/١٣٨٣ـ ١٩٦٣ عمر بن رسول ، الملك عمر بن يوسف بن رسول (ت ٦٤٧)

٣١ ـ طرفة الاصحاب في معرفة الانساب، تحقيق ك . و. سترستين، دمشق / ١٣٦٩ ـ ١٩٤٩ .

عمر رضا كحالة .

٣٢ ـ معجم المؤلفين ، المكتبة العربية بدمشق ، مطبعة الترقي،دمشق ١٣٧٦ ـ ١٩٥٧ / ١٣٨٠ ـ ١٩٦١ .

الغساني ، ابو العباس اسماعيل بن العباس الغساني (ت ٨٠٣هـ)

٣٣ ـ العسجد المسبوك والجوهر المحكوك في طبقات الخلفاء والملوك، مطبوع على الالة الكاتبة (رسالة ماجستير) ، تحقيق ودراسة شاكر محمود عبد المنعم ، بغداد / ١٩٧٠

القلقشندي ، ابو العباس احمد بن علي القاهري (ت ٨٢١ هـ).

٣٤ ـ صبح الاعشى في كتابة الانشا ، القاهرة / ١٣٣١ ـ ١٣٣٨ / ١٩١٣ ـ ١٩١٩ .

مجهـول .

٣٥ ـ الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة ، تحقيق الدكتور مصطفى جواد ، المكتبة العربية ، مطبعة الفرات ، بغداد /١٣٥١هـ.

المقريزي ، تقي الدين احمد بن علي (ت ٨٤٥ هـ) .

٣٦ ـ الذهب المسبوك في ذكر من حج من الخلفاء والملوك ، تحقيق الدكتور جمال الدين الشيال ، القاهرة / ١٩٥٥ .

اليافعي ، عبدالله بن اسعد بن علي بن سليمان اليمني المكي(ت٧٦٨هـ)

٣٧ ـ مرآة الزمان وعبرة اليقضان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان ، حيدر آباد الدكن / ١٣٣٨ .

يحيى بن الحسين بن القاسم (ت ١١٠٠ هـ) .

٣٨ ـ غاية الاماني في اخبار القطر اليماني ، تحقيق الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور ومراجعة الدكتور محمد مصطفى زيادة /القسم الاول/ دار الكاتب العربي للطباعة والنشر ، القاهرة / ١٣٨٨/١٩٦٨ .

★ ★ ★

دور البربر في سقوط الدولة الأموية في الأندلس

الدكتور عبد الجليل عبد الرضا الراشد
قسم التاريخ ـ كلية الآداب ـ بغداد

قام البربر بدور كبير في نشر الاسلام في الاندلس وجعله من أقطار الدولة الاسلامية ، فهم اول من دخل الجزيرة على شكل غزاة عندما قاد طريف الطالعة الاولى لاختبار امكانية فتحها ، فعندما استشار موسى ابن نصير الخليفة الوليد في فتح الاندلس ، وافق الخليفة بشرط أن يختبرها بالسرايا لأنه كان يخاف على المسلمين ، وعمل موسى بما أوصاه به الوليد ، فبعث طريفا في مائة فارس وأربعمائة راجل وعبروا المضيق ونزلوا بالجزيرة التي سميت (جزيرة طريف) وكان أغلب أفراد هذه المجموعة من البربر [١] .

وبعد هذه العملية الناجحة قاد طارق جيشا كله من البربر ولم يكن فيهم من العرب الا القليل ، هم الذين تولوا مناصب القيادة فيه بناء على ما رواه المقري [٢] .

وقد تعددت الروايات في نسب طارق فأرجعه بعضهم الى همذان في فارس وأنه ليس بمولى لموسى بن نصير [٣] ولاحظ هذا الاختلاف الكثير ، ابن عذاري ، وذكر ان الغالبية تنسبه الى (بربر نغزة) [٤] وقد اختلف الرواة في عدد البربر الذين عبروا مع طارق ، فهم ما بين سبعة آلاف وعشرة الاف أو اثنى عشر الف [٥] ويظهر ان البعض يخلط بين

جيش طارق والمدد الذي بعثه له موسى بن نصير عندما طلب مساعدته بعد أن علم أن القوط قدموا عليه بأعداد هائلة لامثيل له بهـا ، وربمـا بنى البعض فكرته على ما ذكره ابن خلدون من ان جيش طارق كان كله من البربر فان القبائل البربرية التي شاركت في جيش طارق هي مصغـرة مديونة ، مكتاسة ، هواره ، وكلها متفرعة من زناته فلا عجب أن ينسب البربر فضل الفتح لهم وهم يرون أن الجيش وقائده منهم (٦) .

ومن الغريب أن الخلافات بين البربر والعرب بدأت منذ الايام الاولى لنزولهم في الجزيرة ، فان العرب الذين وصلوا الاندلس بعد فتحها قـد استأثروا لأنفسهم بخيرات الجزيرة ، وأحسن الاراضي ، وجعلوا أنفسهم حكاما للجزيرة ، يصرفون وحدهم امورها ، فلم تذكر المصادر التاريخية أن بربريا تولى امارة الاندلس (٧) ولعل هذا الامر جاء من شعور العرب بأنهم سادة المغرب ، وطبيعي أن يكونوا هـم سادة الاندلس . وأهـم المناطق التي نزلها البربر من الأندلس هي الشمال الغربي والوسط وهـي مناطق جبلية وعـرة المسالك ، فكانت مناطقهم وادي الحجارة وشرقي اشبيلية ، وقد ذكر ابن حزم مناطق سكنى بعض القبائل البربريةفينورزين بالسهلة ، وذو النون بوبذه ، وبنو الفرج ، بوادي الحجارة (٨) وهـذه المناطق الوعرة هيأت لهم مواقعا حصينة شجعتهم على اعلان الثوراتضد حكامهم العرب (٩) .

ان سكنى البربر لم تقتصر على هذه المناطق ، فالبعض منهم استقر في أخصب نواحي الاندلس ، والجنوب الشرقي والغرب ، بل ان شبـه الجزيرة الخضراء كادت أن تكون مقصورة عليهم (١٠)

ويبدو ان هذا الرأي صح فان بعض الامارات البربرية قد تأسست في هذه المناطق عند حدوث الفتنة وقد اعتمدت هذه الامارات على الجذور البربرية التي اتخذت هذه المناطق سكنا لهم وخاصة الجزيرة الخضراء ومالقة وغرناطة (١١) ويبدو أن مسألة الاراضي لم يكن لها الاثر الكبيـر

وان كانت سببا ثانويا ولكن السبب المهم هو أن العرب لم يكونوا ينظرون البربر على قدم المساواة ، بل أنهم كانوا يعتبرونهم دونهم مكانة ، فكان لهذه النظرة والمعاملة غير اللائقين أثر سيء على علاقات البربر والعرب.

ولم تكن هذه المعاملة السيئة من جانب العرب وليدة اليوم ، فان علاقات البربر بهم في أفريقية لم تكن على ما يرام ، منذ أيام الفتح الاولى، واضطر العرب الى صرف السنين الطويلة حتى استطاعوا فرض سيطرتهم على البربر . وطالما ثار البربر ثورات دموية هائلة ضد حكامهم العرب وخاصة في سنوات الحكم الاموي الأخيرة .(١٢)

وكانت مقدارت اسبانيا مرتبطة بمقدرات المغرب ، فالحوادث التي كانت تجري في العدوة نجد لها صدى قويا في الأندلس ، فان بربر الأندلس ـ على فرض انهم لم يكونوا مضطهدين ولكنهم على الاقل شاطروا اخوانهم بربر أفريقيا في كرههم للعرب ، وكانوا دائما يشعرون أن فضل الفتح كان يعود لهم وان العرب لم يقوموا بأكثر من الاستيلاء على المدن التي كانت مهيأة للفتح . وحينما كانت المسألة مسألة اقتسام خيرات الفتح ، فقد أخذ العرب لأنفسهم حصة الاسد واصبح في حوزتهم أثمن ما في الجزيرة من خيرات . وقد ثار البربر عدة ثورات ولعل أهمها ثورتهم ضد الوالي عبد الملك بن قطن الفهري سنة ١١٦ هـ ، واستعان عبد الملك بجنود الخليفة من أهل الشام في افريقية بقيادة بلج القشيري، ودارت معركة رهيبة عند وادي سليط ، انتهى أمرها بهزيمة نكراء للبربر وظل الشاميون وجند عبد الملك يلاحقونهم ويقتلونهم (١٣) ، وانتهت ثورة البربر ومزقت جموعهم وطوردوا في مكان من الاندلس ، وكان من نتيجة هذه العلاقات السيئة والحوادث المؤسفة أن أصبح البربر دائما يمثلون الجماعات المهيئة للثورة وظلوا يستغلون كل فرصة للانتفاض على العرب ومحاولة انتزاع السلطان منهم ، ولكنهم لم تقم لهم قائمة في عهد الدولة الاموية التي أسسها عبد الرحمن الداخل حتى جاء المخلافة هشام المؤيد بن

الحكم المستنصر وحفيد الناصر العظيم وكان المؤيد صغيرا ، فاستولى على اموره محمد بن أبي عامر وتولى السلطة الفعلية ،وابن عامر من شخصيات التاريخ الفذة ، وقد تدرج في المناصب ، حتى أصبح الحاكم الفعلي للاندلس . وحجر على الخليفة هشام وقد ظهر ابن أبي عامر منذ أيام الخليفة المستنصر ، فقد رأى فيه من الذكاء والمقدرة وقوة الشخصية . ما جعله يؤثره على غيره ، وقد ساعدته السيدة « صبح » أم هشام لاعجابها به، وكان لها التأثير الكبير على سيدها الحكم (١٤) .

وعند وفاة الحكم لعب ابن ابي عامر دورا كبيرا في حفظ الخلافة لهشام ، وشعر هذا بفضله عليه ، فولاه وزارته وفوض اليه أموره ، وازدادت علاقته بالسيدة (صبح) (١٥) وابن ابي عامر من الرجال الذين قل أن يجود الدهر بمثلهم ، وقد استعان بكل وسيلة بعد وصوله الى منصب الوزارة لأزاحة منافسيه عن طريقه بأسلوب دل على ذكائه . فقد استعان بهؤلاء المنافسين التخلص من بعضهم حتى تم له ازاحتهم جميعا من طريقه دون أن يشعر هؤلاء بالخطر الداهم الذي عرضهم له . حتى انفرد بالأمور وحده (وجرى بذلك مجرى المتغلبين على سلطان بني العباس بالمشرق من امراء الديلم) (١٦) . وكان ابن ابي عامر يرى في الأسر العربية العريقة المتنفذة في قرطبة عائقا يقف في سبيل تنفيذ مشاريعه ، فرأى أن يعتمد على قوى خارجية يستعين بها على مواجهة خصومه واعدائه في الداخل ، فوجد في بربر المغرب خير من يعينه على مشاريعه، فأستجلب منهم اعدادا كبيرة وكون جيشا تحت أمرته (١٧) وقد خدمته الظروف ، فعندما أحس عامل الخليفة الفاطمي على أفريقية ان المغرب قد هجرته القوات الاموية سار على رأس قواته فأكتسح المغرب وأخذ يزيح بكل سهولة اولئك الأمراء الذين اعترفوا بسلطة قرطبة والجأهم الى اسوار سبته فوجدها المنصور فرصة طيبة لان يحصل مرة واحدة على مئات الفرسان البارعين ، فكتب اليهم مرفقا كتبه بالاموال والوعود بالحياة

الرغيدة في الأندلس ، وسرعان ما استجابوا لدعوتـه التي كانوا ـ بـلا شك ـ يتمنونها للخلاص من الحال التي آلوا اليها (١٨) وقد ادرك ابـن ابي عامر أنه لا يسكنه الاعتماد على العناصر العربية في الاندلس ، فاتجه ببصره عبر البحر الى المغرب الذي كان كالمخزن الذي لا ينضب معينه من المتطوعين الراغبين في سبيل الجهاد وجمع الأموال والحصول علـى الغنائم . لذلك اتبع سياسة التقارب مع زعماء زناته باذلا الاموال دون حساب ، (١٩) وظل البربر يتوافدون علـى الأندلس حتى كونوا أغلب جيشها وهم الذين أحرزوا للمنصور النصر في جميع غزواتـه في أرض الاعداء (٢٠) ولم يكن المنصور ولا البربر يجهلون شعور أهل قرطبـة الممزوج بالخوف والكره ، لهؤلاء الذين أعتبروهم دخـلاء على بلدهم ، والذين عانوا منهم الكثير واعتبروهم السند القوي للمستبد الأندلسي.(١١) الذي سيطر بيد حديدية على البلاد وارهب الأعداء في الشمال وسارعوا الى طلب صداقته ورضاه ، ورغم ذلك فقد كانت الامور تنـذر بتحول خطير فلم تكن الارستقراطية العربية ، التي فقدت نفوذها مؤقتا ولا أفراد البيت الاموي ، يرضيهم حصر السلطة كلها في يد شخص من غيـر أفراد البيت الحاكم ، او حتى سليل أسره لها مجدها وسابقتها في الزعامة غيـر أن قوة المنصور وجبروته وقسوته اتجاه خصومه حالت دون القيام بأي حركة ضد سلطته وبطانته ، وساد الاندلس جو من الهدوء ولكنه كـان مشوبا بالترقب الذي يسبق العواصف السياسية والحروب الاهلية (٢٢).

فالأرستقراطية العربية التي كانت تمسك زمام الامور في الأندلس، والتي فقدت مراكزها وامكانياتها في عهد المنصور ، ظلت تنتظر الفرصة لتأخـذ دورها وتستعيـد مكانتها ، التي احتلها الآن نوع جديـد من الارستقراطية وهي ارستقراطية العبيد الجديدة التي نمت وترعرعت بحماية دكتاتور الأندلس الذي كان يسنده البربر (٢٣) وجاءت الفرصة بعد وفاة المنصور وأبنه المظفر عبد الملك ومجيء عبدالرحمن الناصر بن ابي عـامر

الى الحكم الذي كان يختلف اختلافا كبيرا عن أبيه وأخيه من حيث الشجاعة والمقدرة الادارية فان البربر لم يكونوا على استعداد للتخلي عن مراكزهم التي كسبوها بدمائهم ، وهم على استعداد لعمل أي شيء وركوب المخاطر حتى لا يعودوا فئة مهملة كما كانوا ايام الدولة الاموية، فعندما شعروا أن مركزهم بدأ يتمرج ولمسوا ضعف عبدالرحمن بن ابي عامر ، سرعان ما أنقلبوا عليه واسلموه لخصومه ، وراحوا يبحثون عن شخص يلتفون حواله .

لقد ساهم عبد الرحمن بن ابي عامر على انهاء حكم اسرته ، وذلك عندما استشار المحافظين من اهل الأندلس الذين لا يرون لهم انتقال الخلافة من البيت الأموي ــ بطلبه من الخليفة هشام المؤيد أن يعينه وليا لعهده فلم يجد هؤلاء بدا من الثورة والقضاء عليه (٢٤) ووجد هؤلاء في شخص محمد بن هشام من أحفاد الناصر ، الشخص المنشود ، ولم يكن صعبا على محمد هذا أن يجد المؤيدين من أهل قرطبة ، هؤلاء الذين عرفوا بسرعة تقلبهم ، ولعل محمد بن هشام ، قد اصابته الدهشة من هذا التأييد الواسع ، وربما لم يكن يتوقع أن يتخلى البربر بهذه السرعة عن أبن سيدهم ، ولم يفق محمد (الذي لقب نفسه بالمهدي) واتباعه من دهشتهم الا عندما قدم لهم رأس عبد الرحمن بن أبي عامر (٢٥) الذي انتهت بمقتله فترة من أروع فترات الحكم الاسلامي للاندلس ، واكثرها قوة ورهبة وقسوة ، وسرعان ما خابت آمال البربر الذين غدروا بقائدهم ، والذين توقعوا أن تكون لهم الغنائم ، ويعترف الحاكم الجديد بفضلهم ، ويكون لهم المركز المفضل في الدولة الجديدة ، ولعل هؤلاء تناسوا ما قاساه منهم أهل قرطبة ، الذين صبوا جام غضبهم على هؤلاء الدخلاء الذين أذاقوهم سوء العذاب وتحكموا في مصائرهم زمنا طويلا والآن وقد جاء يوم الحساب ، فقد نهبت دورهم وصودرت أموالهم وقتلوا في كل مكان (٢٦) وتحول البربر الذين كوفئوا أسوأ مكافأة الى ثوار دائمين ، لاتهدأ لهم

حال . وقد وجدوا ضالتهم في سليمان بن الحكم ، فبايعوه وسموه (المستعين) ، وكان سليمان لا يثق بالبربر ولا يمكنه الاعتماد عليهم بصورة مطلقة ، فأثر أن يستعين بنصارى الشمال ، الذين أسرعوا بتقديم العون له ، وهم متأكدون أنهم بعملهم هذا يضعفون الجانبين . ويكون الربح لهم أخيرا وكان هؤلاء عند حسن ظن سليمان ، فقد مهدوا له الطريق لدخول قرطبة على جثث عشرين الف قتيل من أهلها ، (٢٧) ولم يهنأ المستعين بنصره هذا ، فقد استطاع أهل قرطبة طرده هو والبربر الذين تحولوا بقيادته الى لصوص وقطاع طرق واستطاعوا أخيرا أجبار أهل قرطبة على الرضوخ لتعين سليمان خليفة (٢٨) ورأى أن يكرم البربر الذين أوصلوه الى الحكم فعين رجلا منهم ــ علي بن حمود ــ حاكما على سبتة والجزيرة الخضراء ، وكان علي يطمح الى أكثر من ذلك . فزحف على قرطبة بجموع البربر ودخلها بعد أن قتل سليمان الذي أحسن اليه (٢٩) وليس هذا الأمر بغريب ، ففي عصر كهذا عندما تضطرب الأمور وتسود روح الغدر والخيانة ، لا يمكن اعتبار الغدر وقطع اليد المحسنة أشياء يعاب عليها ، فالقيم الاخلاقية لا تجد من يطالب بها .

الآن وقد أضحى البربر الاحتياطي الدائم لأي ثائر أو متمرد منهم في خدمة من يدعوهم اذا ما شعروا أن الغنائم ستكون وفيرة على يديه ، ولكنهم سرعان ما ينقلبوا ضد من أيدوه . (٣٠)

وضاعوا وسط هذه الفوضى ، فلم يعودوا يفكرون في تصرفاتهم فسيوفهم في خدمة من يطلبها ، ورأى أهل قرطبة أنهم تحملوا اكثر مما يجب من البربر وآل حمود ، ووجدوا العون من أخوانهم أهل اشبيلية، الذين كانوا لا يقلون كرها للبربر ، فعندما وصلت الانباء الى اشبيلية بأن أهل قرطبة قد انتقموا من البربر وأخذوا منهم بثأرهم وطردوا آل حمود ، أغلقوا مدينتهم بوجه القاسم الهارب معلنين أنهم سيتولون شؤونهم بأنفسهم ، وطولوا ثلاثة من زعماؤهم الادارة امور مدينتهم وعلى

رأس هؤلاء القاضي اسماعيل بن عياد التنوخي [٣١] واستقر القاسم هو والبربر الذين آثروا ملازمته في (مالقة) [٣٢] .

ازاء هذا الوضع المرتبك الذي أصبح فيه أهل قرطبة ، بعد هذه الفترة العصيبة ، استقر رأي الجماعة فيها ، دون مشاورة بقية الولايات الأندلسية ، حيث لم يكن هناك متسع من الوقت للتشاور ، رد الأمر لبني أمية لعلهم يعيدون الهدوء والأستقرار للاندلس ، والواقع أن هذهالعائلة قد انتهى أمرها ولم يعد فيها الرجل الذي يصلح لهذه الظروف أو أنه يستطيع حكم الجزيرة الممزقة ، وأثبتت الحوادث لسكان قرطبة ضآلة تفكيرهم وأنهم كانوا مخطئين بمجرد التفكير في اعادة ال أمية للحكم فالخلفاء الذين تعاقبوا على الحكم بعد طرد ال حمود المستظهر بالله والمستكفي وأخرهم المعتد بالله [٣٣] لم يكونوا فقط لا يستحقون هذه الثقة بل ان مجيئهم زاد الأمور تعقيدا ، مما أوحى لأهل العاصمة أن الخلافة أصبحت عبئا ثقيلا ، وأنهم من الآن فصاعدا عليهم أن يفكروا بمصير مدينتهم فقط ولتتعرف الولايات الباقية حسبما يحلو لها وبما تراه مناسبا • وفوض أهل قرطبة أمرهم الى شيوخهم الذين اصدروا مرسوما أعلنوا فيه زوال رسوم الخلافة نهائيا ، وتضمن المنشور الرغبة في الا يبقى أحد من آل أمية في المدينة ، وكان تاريخ هذا المنشور ١٣ ذي القعدة سنة ٤٢٢ هـ ٣٠ نوفمبر (تشرين) سنة ١٠٣١ م [٣٤] وسرعان ما استجابت بقية المدن الكبيرة لدعوة أهلقرطبة الذين كانوا بلاشك ينتظرونها وتتأهب الزعماء والمتقذون البلاد ، وتفرق أهل الاندلس فرقا (وتغلب في كلجهة متغلب وتقسموا القاب الخلافة) [٣٥] لقد أثارت هذه الحوادث الدهشة والجدل ، ذلك لأنها جاءت بعد دور المجد والعظمة الذي وصلت اليه الدولة الأموية في عهد المنصور والمظفر فقد كانت الأندلس أقوى دولة في تلك المنطقة ، وكان نصارى الشمال يتجنبون التحرش بها ويقدمونفروض الطاعة والولاء ، وكان الامن الداخلي مستتبا وازدهرت التجارة والحياة

الفكرية [٣٦] ولكن هل كانت اسباب التصدع بفعل عوامل خارجية ؟ من المؤكد انها لم تكن كذلك ، لأن كل الدول المجاورة للأندلس تتسابق لطلب صداقتها ورضاها والعيش معها بسلام فاذا كانت هناك أسباب وعوامل داخلية كامنة في جسم المجتمع الأندلسي نتيجة للتناقضات التي سادت مجتمع الأندلس ، والتي تمتد جذورها الى سنين بعيدة ولكن قوة الحكام منعت الانفجار او على الاقل آجلته الى حين . [٣٧] فالعرب الذين كونوا أغلبية أقسام المجتمع والذين غلبوا على أمرهم زمن المنصور شعروا أن دورهم قد جاء بعد وفاته وأنهم لا بد أن يستعيدوا مكانتهم. والعنصر الثاني البربر الذين لم يكونوا على استعداد للتخلي عن مراكزهم التي كسبوها بقوتهم ومساندة المنصور لهم ، ولم يكن الصقالبة بأقل من البربر خوفا على مراكزهم ، وهناك فئة أخرى هم النصارى والمولدون وهؤلاء كانوا دائما محل شك من قبل السلطات الحاكمة ، وقد اطلق المؤرخون على هذه الفترة اسم (الفتنة البربرية) [٣٨]

اما هذا الدور فقد اطلق عليه المؤرخون (عصر الطوائف) ويعد من أكثر أدوار التاريخ الأندلسي تشعبا واضطرابا ، وقد شغلت هذه الفترة ما يقرب من سبعين عاما أنقسمت فيها البلاد الى وحدات سياسية، تقوم في كل منها دولة . [٣٩]

وكان للبربر بعنادهم وتصلبهم وحقدهم اليد الطولى في وصول الأندلس الى هذه الحالة وكما كان لهم الدور الأفضل في فتح الأندلس لعبوا الدور الأسوأ في سقوط الدولة الأموية واضعاف المسلمين هناك .

الحواشي

(١) ابن عذاري المراكشي ـ البيان المغرب حـ ١ ص ٤٥ . السيد عبد العزيز سالم ـ تاريخ المسلمين واثارهم في الاندلس ص/٢٩٠ .

(٢) المقري ـ احمد بن محمد ـ نفح الطيب ـ ٣١٦/١ .

(٣) مجهول ـ أخبار مجموعة ـ ص ـ ٦

(٤) ابن عذارى ـ البيان المغرب ـ ٧/٢

(٥) مجهول ـ اخبار مجموعة ص ـ ٦ ، المقري ـ نفح ـ ٢١٦/١ ابن الاثير ـ الكامل ـ ١١٩/٤ ابن خلدون . تاريخ ٤٣ ص ٢٥٤ .

(٦) ابن خلدون ـ تاريخ م ٤ ص ٢٥٤ .

(٧) محمد عبدالله عنان ـ دولة الاسلام في الأندلس ـ ص ـ ٨٦ ـ

(٨) ابن حزم ـ علي بن احمد الاندلسي ـ جمهرة انساب العرب حـ ٢ ص ٤٩٩ .

(٩) محمد عبدالله عنان ـ دولة الاسلام ـ ص ـ ٢٠٣ .

(١٠) حسين مؤنس ـ فجر الاندلس ـ ص ـ ١١٥ .

(١١) ابن بسام ـ علي بن بسام الشنتريني ـ الذخيرة في محاسن اهل الجزيرة مخطوط دار الكتب ـ ورقة ٢٧١ .

(١٢) حسين مؤنس ـ فجر الاندلس ـ ص ١٥٦

(١٣) ابن عذاري ـ البيان ٤٣/٢ ، مجهول ـ اخبار مجموعة ص ـ ٤٠

(١٤) ابن عذاري ـ السابق ـ ٢٥٨/٢

(١٥) ابن خلدون ـ تاريخ جـ ٤ /ص ـ ١٤٧

(١٦) ابن عذارى ـ البيان ـ ٢٦٥/٢ ، ٣٧٢ ، ٣٧٣ السيد عبدالعزيز سالم ـ تاريخ المسلمين ـ ص ـ ٣٢٣ / ٣٣١ .

(١٧) ابن خلدون ــ تاريخ ١٤٧/٤ .

(١٨) ابن عذاري ــ البيان ــ ٢٩٤/٢ ،

Dozy., Histoire des Musulmanes d, Espagne, P. 644.

(١٩) بالنثيا ــ انخل جنثالث ــ تاريخ الفكر الاندلسي ــ الترجمة العربية . ص ــ ١١ ــ

Pronencal., Histoire de 2, Espagne Musulmane,. T. 2. P. 261.

(٢٠) الامير عبدالله بن بلقين ــ التبيان ــ ص ــ ١٦ ، ١٧

(٢١) ابن خلدون ــ تاريخ ــ ١٧٩/٦

سعيد عاشور ــ اوربا في العصور الوسطى ــ ٤٩٨/٢ .

(٢٢) Provençal., op. cit., P. 275.

(٢٣) Ibid., P. 274.

(٢٤) عبد الواحد المراكشي ــ المعجب ــ ص ــ ٨٦

(٢٥) المقري ــ نفح الطيب ــ ١٣/٤ ــ ١٤

ابن خلدون ــ تاريخ ــ ١٤٩/٤ ــ ١٥٠

(٢٦) المراكشي ــ المعجب ــ ص / ٨٨ ــ ٨٩

المقري ــ نفح الطيب ١٧/٢ ــ ١٨

الضبي ــ احمد بن يحيى بن احمد

بغية الملتمس في رجال أهل الاندلس ــ ص ــ ٢١

ابن الاثير ــ الكامل ــ ٧ ص ٨٤

(٢٧) ابن الآبار ــ الحلة السيراء ــ ٦٧/٢

المراكشي ــ المعجب ــ ص/٨٩

ابن بسام ــ الذخيرة ــ ق١ م ١ ص ــ ٤٢

(٢٨) ابن خلدون ــ تاريخ ــ ١٥١/٤

الضبي ــ بغية الملتمس ــ ص ٢٤

(٢٩) المراكشي ــ المعجب ، ص ٩٠ Dozy., Histoire., P. 710.

(٣٠) محمد عبدالله عنان ــ عصر الطوائف ــ ص ــ ١٤

(٣١) ابن بسام ــ الذخيرة ــ ق ١ م ٢ ص ١٣ ــ ١٤
المراكشي ــ المعجب ــ ص ٩٩ ــ ١٠٠
الضبي ــ بغية الملتمس ــ ص ٢٨/٢٩

(٣٢) المراكشي ــ المعجب ــ ص ــ ٣٠

Dozy., op. cit., P. 718.

(٣٣) المقري ــ نفح جـ ٤ ص ٤٤/٤٨/٤٩

ابن خاقان ــ مطمح الانفس ص ١٦ / ١٧
شكيب ارسلان ، أخر بني مراج ص ــ ٨٣
ابن سعيد المغربي ــ المغرب في حلي المغرب ٢/٥٥

Dozy., Hist des Musulmanes., P. 720.

(٣٤) ابن عذارى ــ البيان ــ ٢/١٥٢
Dozy., op. cit., 247.

عبد العزيز سالم ــ تاريخ المسلمين ص ــ ٣٦٣

(٣٥) المراكشي ــ المعجب ــ ص ١٢٣

Dozy ., op . cit , P. 704

(٣٦) صلاح خالص ــ اشبيلية في القرن الخاص الهجري ص ــ٢/٢١

(٣٧) صلاح خالص ــ السابق ــ ص ــ ٢١

(٣٨) ابن حيان ــ المقتبس ــ ص ١٨٩

صلاح خالص ــ اشبيلية ــ ص ٢١

(٣٩) محمد عبدالله عنان ــ دول الطرائف ــ ص ١٣

المعز لدين الله وجيل جديد من كتامه

الدكتور لقبال موسى
أستاذ ورئيس قسم التاريخ الاسلامي .
بكلية الآداب . جامعة الجزائر

لقد عانت الخلافة الفاطمية في بداية عهدها في بلاد المغرب أزمة ثقة أعقبت حادث التصفية الذي راح ضحيته الداعي الشيعي واخوه وانصارهما من قادة كتامة التاريخيين : الأخوان عروبة وحباسة ، والقربيان : ابـو زاكي وماكثون .

وكذلك عانت أزمة أخرى كانت ذات طابـع قبلي ومذهبي أعقبت حركة النكارية بقيادة ابي يزيد شيخ المؤمنين .

وكانت الازمة الأخيرة أكبر حدث امتحنت أثناء الخلافة الفاطميـة بخطر الزوال وامتحن الأولياء وأنصار الدولة من كتامة وطبقة الفتيـان الصقالبة بخطر التلاشي كقوة عسكرية نشيطة ومترابطة .

وقد وضح للمهدي عقب الازمة الأولى ، أي خطأ جسيم ارتكب في حق بناة الدولة والرجال المؤسسين للنظام ، كما وضع لخلفائه اثنـاء وبعد المأزمة الثانية ما صار اليه وضع هؤلاء الرجال المؤسسين ، بسبب سياسة التصفية ، والتجاهل والاهمال ، واصطناع وجوه جديدة ممن مسهم الرق من غير أولى الطول والعصبية . واذا كان النكارية بقيادة ابي يزيد ، قد هددوا النظام القائم لفترة ، انتقاما لحادث سقوط الامامـة الرستمية وردا

على الحملات الانتقامية ضد مراكزهم السياسية والثقافية في افريقية وجبال نفوسة . وتسببوا بحركتهم التخريبية في احياء فصل محزن من الصراع القديم بين البتر والبرانس ، فان الحقيقة التي ظهرت جلية بعد انتهاء هذا الصراع أن هؤلاء النكارية لم يستطيعوا رغم بعض الانتصارات ان يصلوا الى هدم ما بنته عصبية الدولة التاريخية ـ وهم قبيلة كتامة التي هب رجالها جميعا على ما في نفوسهم يدافعون عن الشرعية ويبذلون جهدا لكي يبقى النظام مستمرا وسليما .

واذا كان الخليفة القائم قد غدا أسيرا لنبؤة حسب رواية النعمان بن محمد ، ومن ثم صمد فترة في المهدية حتى « مات محصوراً وفي نفسه مقهورا » (١) ، فان حجته ولي عهد المسلمين المنصور (٢) استطاع بمساعدة كتامة أن يصفي هذه الحركة التخريبية ويعيد للدولة هيبتها ، وللخلافة تكاملها السياسي ، بفضل جهوده المركزة ، واعتماده على عصبية الدولة من جند كتامة الذين بدأ يعيد اليهم اعتبارهم كحماة للنظام ، وكشركاء في المسؤولية وقد اتضح كل ذلك عندما خاطبهم اثناء نعي أبيه القائم،

---

(١) النعمان : المجالس والمسايرات ١ ، ورقة ١٣ ، وعندما استشير اثناء الفتنة في امر جرى ، ترك الحرية لشيوخ كتامة ، وقال للنعمان « مايمنعني من الراي أحملهم عليه وان كنت أرى وجه الصواب والا يكون عناء » . وعن هذا القول عقب النعمان بقوله « كان القائم قد علم أن امر تلك الفتنة لا ينقطع علي يديه » .

(٢) تنبأ المهدي قبل ميلاد المنصور بأنه الذي يقضي على ابي يزير بقوله « صاحب هذا الامر في هذا الوقت حمل في بطن امه وعن قريب بولد» : النعمان : المجالس والمسايرات ٢ ، ورقة ٦١٩ ..

وعندما سئل المنصور بعد انتهاء الفتنة عن سبب فتور القائم ونحاجه هو في تصفية الحركة أنكر السؤال ، وقال « ما كان للقائم ان يفعل الا ما قد فعله ، ولا كان لي أن أفعل الا ما فعلت » . وعن هذا القول عقب النعمان بن محمد بقوله « فقام المنصور بالامر في أوانه ، وتركه القائم لانصرام امره وانقطاع زمانه » . انظر : المجالس والمسايرات ١ ، ورقة ١١ ـ ١٢ .

وغداة انتهاء حركة النكارية بقوله « يا أهل دعوتنا يا أنصار دولتنا يا كتامة . أحمد والله واشكروه على ما خصكم به من نعمته » (٣) .

وكي يبعث عندهم مزيدا من الاعتزاز بأنفسهم ، ومن الارتباط بالدولة ، ويضمد جراحهم مما أصابهم أثناء الفتنة وقبلها ، ولكي ينسيهم ما حصل لقادتهم التاريخيين في عهود خلت أوضح أمام الملأ بقوله « اللهم اني أصبحت راضيا عن كتامة لاعتصامهم بحبلك وصبرهم على البأساء والضراء » (٤) .

والذي يبدو أن المنصور الفاطمي لم يكي مجاملا لكتامة ، ولا مبالغا في الثناء على جندها عندما نوه بأهميتهم أثناء حركة النكارية ، لان دورهم اثناء هذه المحنة كما يسميها المعز لدين الله كان رائعا (٥) . فلم يشأ رجالها رغم قوتهم ، أن يستغلوا الظروف الصعبة التي كانت تمر بها الخلافة عهدي القائم والمنصور لتحقيق أهداف خاصة ، أو لشفاء ما في نفوسهم من جراح بل وقفوا ضد بعض الانتفاضات المضادة للخلافة اثناء الفتنة ، هذا مع ان مبررات تحركهم ضد القائم خاصة كانت كثيرة لأنه المسؤول عن الكثير مما حل ببلادها ، وبرجالها التاريخيين من كوارث ومن نكبات . وعلى نهج المنصور الذي كان عهده ارهاصا ببداية حقبة ازدهار لكتامة مرة اخرى ، سار حجته ولي عهد المسلمين ، المعز لدين الله رابع خلفاء الدور المغربي ، وأول خلفاء الدور المصري للخلافة الفاطمية.

فقد اغتنم فرصة نعي ابيه المنصور وخص جند كتامة بقول معبر منه

---

(٣) العزيزي الجوذري : سيرة الاستاذ جوذر ٥٥ وما بعدها .

(٤) نفسه ، وعن خطبة المنصور ينعي أباه انظر : ابن حماد ، اخبار ملوك بني عبيد ٢٢ ـ ٢٣ .

(٥) المقريزي اتعاظ الحنفا ١ ، ٧٩ ، وفية اشارة الى هذه الحقيقة (ثم وصلت كتامة فنزلت بقسطنطينة فاخاف أبو يزيد) . النعمان : المصدر السابق ٢ ، ٦١٦ ـ ٦١٧ .

« أخص اولياء دولتنا وأنصار دعوتنا المجاهدين الصابرين بما استوجبوه بطاعتك وقضاء فروضك وموالاة اوليائك ومعاداة أعدائك » [٦] وقد اردف هذا القول بالعمل فاسبغ عليهم نعما ، ومنحهم امتيازات [٧] ، وأعاد الى قادتهم المسؤولية ، والى بلادهم اعتبارها في نظر الدولة ، بل أكثر من الاتصال بمختلف فئات كتامة ليسألهم عن احتياجاتهم ، وعن وجهية نظرهم فيما يجري ، وليشرح امامهم ما تطلبه الدولة منهم في هذا العهد بحيث دخلت كتامة بولايته بداية عصر جديد هو بحق عصرها الذهبي الثاني الذي لم تعرف نظير له الا في فترة قصيرة من حياتها السياسية بعد قيام الخلافة في بلاد المغرب ، ثم بعد انتقالها الى مصر .

ومن دراسة أهم وثيقة فاطمية معاصرة وهي كتاب « المجالس والمسايرات والمواقف والتوقيعات عن الامام المعز لدين الله وعن آبائه صلوات الله عليهم [٨] » التي سجلها عنه مجتهد الاسماعيلية ومؤرخ الدعوة معاصر المعز لدين الله وقاضيه على المنصورية والمهدية وسائر افريقية وهو النعمان بن محمد بن حيون التميمي نلاحظ : كيف أن المعز لدين الله لم يأل جهدا في خلق روح جديدة ، وفي التمهيد لجو جديد بين فروع كتامة ، بل سخر كل مواهبه الفذة وحيله وقد رأته الخاصة في الاقناع والتوجيه بل في التلبيس عليهم احيانا كي يشعرهم بأنهم في عهده كل شيء في نظام الخلافة كما كانوا ، وان العلاقة بينهم وبينها موغلة في القدم ، أو أبدية حسب تعبيره ، وقد وجدت لتبقى سليمة . « وهؤلاء

---

(٦) الجوذري العزيزي : المصدر السابق ٨٠ وما بعدها .

(٧) نفسه ١١٦ .

(٨) يوجد مخطوطات حتى الآن في عدة مكتبات عامة وخاصة وقد اعتمدت على مخطوط مكتبة جامعة فؤاد الاول المحفوظ تحت رقم ٢٦٠٦٠ وقد تضمنت هذه الوثيقة مجمل اراء واقوال وتقول ومواقف ، واجتهادات المعز لدين الله وقاضيه النعمان بن محمد .

كتامة أجدادهم مع أجدادنا وآباؤهم مع آبائنا ، وهم معنا ، وكذلك يكون اعقابهم مع أعقابنا الى يوم الدين » (٩) .

وبين المعز لدين الله في مناسبة اخرى كيف ان رجال الدعوة الاسماعيلية ، وقادة الخلافة الفاطمية يعترفون بجهود قادة كتامة ، وباخلاصهم ووفائهم ، وتعلقهم بالولاء ، وبصبرهم في عصر المحنة ، بقوله « والله ماوفت أمة من الامم لنبي عن الأنبياء ، ولا لأمام من الأئمة ولا لملك من ملوك الدنيا ولا وفي لها وفاءهم لنا ووفاءنا لهم الا وقد تداخل أولئك الفشل واعتراهم الخلل وحال عليهم ملوك الدنيا واستأثروا غيرهم دونهم واطرحوهم واوقعوا بهم » (١٠) .

ومن ذا الذي يجزؤ على ادعاء مالكتامة من منزلة في الدواة ، او يدرك مالفرسانها من حسن الهيئة وجمال المراكب (١١) ، وقدرة على تحمل المكروه ، أليسوا هم الذين اشتدوا على اعداء النظام ، وحاصروا ابا يزيد ورجاله في أعالي الجبال حتى « أذاقوهم طعم الموت وأحلوهم محل الذلة واخرجوهم قسر بظباء السيوف وحد الرماح حتى ألحقوهم بقنن الجبال من أطراف البلاد ثم استنزلوهم منها قسراً وأبادوهم قتلا بنصر الله لوليه

(٩) النعمان : المجالس والمسايرات ١ ورقة ٤ .

(١٠) نفسه .

(١١) نفسه : وبمناسبة الاحتفال بعيد الاضحى سأل المعز عن مجيء قادة كتامة من مختلف اي‌عمال لحضور المناسبة وعندما عرف أنهم جاءوا قال « بارك الله فيهم وكثر اعدادهم فما أسرني بهم وباحتفالهم وماحت الي اشخاصهم وازين في عيني مناظرهم » . ثم خاطب القاضي النعمان بقوله « أرأيت مثلهم في بهائهم وجمال مراكبهم وحسن مناظرهم ، ربما أغالي فيهم لبى لهم فرد النعمان » هم كما وصفت عند الولي والعدو . اما رجال أبي يزيد فكانوا يقولون « أما ركوب كتامة وجمالهم فيه فما ندعيه، ولا ننازعهم فيه » . انظر : المجالس والمسايرات ١ ، ورقتا ٢ ـ ٣ .

وبركة مقامه وسعادة جده وايامه » [١٢] .

ولقد كان المعز لدين الله يؤكد في كل مناسبة ، وحتى عن طريق القسم أيضا ما يكنه لرجالات كتامة من محبة وتقدير ويبالغ أحيانا فيصفهم بالأقربين وبالابناء ، والأخوة ، وبحزب الله وأنصاره وجنده وأحبائه. وهذه بادرة منه « أنتم البنون والاخوة والاقربون ما يعد لكم عندي أحد ولا يبلغ مبلغكم من قلبي بشر وما ذلك الا لمالي في قلوبكم » [١٣].

ويقرر المعز في مجلس آخر أن استمرار كتامة جيله على الانتصار للدولة وخدمة أهدافها ان هو الاصدى لموقف الآباء والأجداد ، وامتداد طبيعي له فيقول « مانصر الله وليا من أوليائه قبلنا بمثل نصركم لنا ، على ذلك مضى اولكم ، وعليه أنتم » [١٤] .

أما سلامة أخلاق رجال كتامة المقربين منه ، وبعدهم عن مظان الشبهة ، وتنزهم عن التعرض لسير الناس بالدس لهم وبالطعن فيهم عند الائمة الذين كانوا يقربونهم وينادمونهم فقد كانت من دواعي اعجابه بهؤلاء الرجال ، على أساس أن غيرهم من أولياء الدولة وانصارها انما كانوا يتقربون الى الخلفاء بالمخامرة على غيرهم وبالوشاية بهم والطعن فيهم[١٥].

ومع أن المعز لدين الله حرص على ايجاد توازن بين أنصار الدولة والمخلصين للنظام بارضائه لطبقة الفتيان أيضا ، فانه كان صريحا وواضحا

(١٢) نفسه ورقتا ٢ ـ ٣ .

(١٣) النعمان : المصدر السابق ١ ، ورقتا ٢٨ ـ ٢٩ .

(١٤) (نفسه : ١ ، ورقات ١٠ ، ٢٦ ، ٢٩) .

(١٥) النعمان : المصدر السابق ١ ، ورقة ٧ وما بعدها . وهنا يشير النعمان الى مجاراة المعز لدين الله لاحد جلسائه من شيوخ كتامة ليظفر منه بشيء عن حالة غيره فلا يجد عنده غير حديث البر والاصلاح .

معهم عندما عرف أنهم نفسوا على كتامة مكانتها في الدولة [١٦] ، وفضلها وانتعاش أمرها بسبب اكثاره من مدح رجالها وثنائه عليهم دون غيرهم في أكثر المناسبات ، ولكي يقنعهم ركز كلامه معهم على بعض ما يميز كتامة عنهم في نظره ومنها أن كتامة كانوا أحرارا وفي وضعية طبيعية ومع ذلك استجابوا للدعوة ونصروها مختارين وضحوا ببلدانهم واهليهم وهاجروا بدافع الاخلاص للمذهب الاسماعيلي والولاء للنظام ، ولثبوا على نهجهم رغم تغير الأحوال وتعاقب الخلفاء فهم « لا نظير لهم ولا سواء بهم [١٧] على حد تعبيره .

واذا فشتان في نظر رجال الدولة ، بين من يأتي للدولة طائعا مختارا وعن اقتناع ، وبين من تملكه عن طريق الشراء او الحروب في ظروف خاصة وتتعهده في كل وقت وحين [١٨] . ومع هذا الاعتراف بامتياز كتامة فان مكانة قيصر ومظفر من طبقة الفتيان الصقالبة وجوهر الكاتب الصقلي كانت لا تعد لها أية مكانة اخرى في واقع الامر خاصة في عهدي المنصور والمعز الذي تعلم في صغره الخط على يد مظفر الصقلبي [١٩].

ولقد أصبح وضع قيصر ومظفر في الدور المغربي للخلافة ، كما أضحى وضع جوهر في مصر فيما بعد محل غيرة من الأولياء بما فيهم

---

(١٦) وقد تجلى ذلك عندما خاطبوا المعز لدين الله بقولهم « فنحن يا امير المؤمنين فما ترى أنا قصرنا ، وقد كان لنا من العناد والجهاد كمثل ما كان لغيرنا ، فمن نازعنا ذلك فليعد مشاهدنا ووقائعنا ومقاماتنا ومن استشهد منا » انظر : المجالس والمسايرات ١ ، ورقات ٣ ، ٤ ، ٦ ، ٧ .

(١٧) نفسه ١ ، ورقتا ٣ ــ ٤ .

(١٨) نفسه ، العزيزي الجوذري : المصدر السابق ٤١ ــ ٤٢ وكان جوذر يشرف على بعضهم وقد بالغ مرة في عقوبة من انحرف منهم وسجنهم ولم يطلق سراحهم الا بعد تدخل ابي طاهر اسماعيل حجة القائم بأمر الله .

(١٩) (المقريزي : اتعاظ الحنفا ١ ، ١٠١ س ٨ ــ ٩) .

كتامة ، لأن قيصر ومظفر استبدا بشؤون الحكم [٢٠] • وتصرفا باستقلال في الرأي عن الخليفة المعز لدين الله ، وكانا طريقا اليه بالنسبة لكل من يريد أمرا حتى قادة كتامة وشيوخها كانوا يلتجئون اليهما ، ويوأسطونهما في المهمات الصغرى والكبرى • وعندما شعر المعز لدين الله بالآثار السيئة لاستبدادهما وسمع أنباء عن قلق أنصار الدولة ورجالها ، ومن قول قيصر لأحدهم « انما تقضي حوائج الرجال اذا احتيج اليهم ، اما اليوم فليس لمولانا عدو يحتاج معه الى الرجال » نكبهما [٢١] وشهر بهما في بعض مجالسه ووصفهما « باللعينين » ونفى أن يكون لأي منهما سلطان عليه او على كبار رجال الدولة وشيوخها ، بل اعتبر التجاء الانصار اليهما أو الى أية واسطة أخرى لقضاء شأن مادي او معنوي من الامام يحط من قدرهم ويسيء الى سمعتهم وقد وضح ذلك في قوله « وربما تعلقوا بمن دوننا ليجعلوا ذلك وسيلة الينا ، لا والله ما جعلنا لأحد عليهم من ذلك من سبيل [٢٢] وبعد أن نهى المعز لدين الله أنصار الدولة عن الالتجاء الى استخدام اسلوب الوساطة واتخاذ الولائج للوصول الى سدة الامامة وحثهم على الاتصال المباشر به في كل حين مثلما جرت عادته من قبل معهم ، تظاهر بأنه كان دائما مستعدا لاستقبال وفودهم وقضاء حاجاتهم، وانه لم يرفض لأي أحد منهم طلب رؤيته في أي شأن من الشؤون الخاصة

---

(٢٠) (ابن خلدون : العبر ٤ ، ٩٦ ــ ٩٧ ط بيروت . ابن ابي دينار : المؤنس ٦٣ ــ ٦٤) .

(٢١) ابن خلدون : المصدر السابق ٤ ، ٩٦ ــ ٩٧ ، وقد امر بقتلهما سنة ٣٤٩ هـ . قارن ذلك بما ورد سهوا في سيرة الاستاذ جودر . ص١٥٧ تعليق ٣٠ ، وهو من تحرير المحققين .

(٢٢) النعمان : المصدر السابق ورقة ١٥٦ ــ ١٥٧ وقارن ذلك بما ورد ايضا في القسم الثاني من كتاب المجالس والمسايرات ورقة ٦٦٦ وما بعدها .

أو العامـة (٢٣) .

ولادراك المعز لدين الله بأن كتامة امتحنت في عهد المهـدي وزالت عنها الرئاسة الفعليـة وتخطتها المسؤوليات المباشرة حتى حمل ذكرها ، وفني جيلها الاول في حروب الدعوة والتوسع ، وأثناء الفتن الداخليـة ، بينما نشأت نواة جيلها الموالي ، بعيدة عن السلطة وعن المراكز الرئيسية في الدولة ، فقد أراد أن يعدل الحال ويرجح كفة الميزان لفائدتها ويعيـد وضع كتامة سيرته الأولى ، حفظا لمبـدأ التوازن بين العناصر المستبدة بشؤون الدولة واظهرهم صنهاجة وكتامة ثم طبقة الفتيان الصقالبة.واستهل اعماله في هذا الاتجاه ، بالبدء بتعيين شباب كتامة في الوظائف ، وتكليفهم بالمهمات وتوليتهم على الاعمال التي كان يليها آباؤهم واقرباؤهم من قبل، هذا مع قيامه بتوجيههم توجيها خاصا لفـائدة الدولة . ولم يكن يشترط عليهم أثناء التكليف غير الطاعة والامتثال ، ورعاية حقوق الامام الفاطمي في ضرورة اطلاعه على كل ما يجري في ارجاء البلاد ويتضح ذلك من قوله لأحد ولاة كتامة « طالعنا بأمورك ما عسى أن تريد العمل به قبل أن تعمله فما اتاك منه فامض على ما نأمرك به تكن على سبيل نجاة وسلامة وراحة وتزول الحجة عندك » (٢٤) .

ولتخوف المعز لدين الله مما قد يظهر في عهده أيضا من حركـات انفصالية قد يقوم بها بعض قادة كتامة ثأرا لما حل من قبل بآبائهم وأقربائهم، كان يوضح امامهم بأن ما حصل لرجالهم وشيوخهم في عهـد المهدي انما كان يقصد به تطهيرهم من الذنوب وتربية غيرهم من العامة وبسطاء الناس حفظا للنظام ورعيا لمبدأ الانسجام بين اتباع الدولة وأوليائها .

« وان قتلنا منكم من نقتله ممن يجب القتل عليه ولا يسعنا ان نبقيه

---

(٢٣) نفسه : ٢ ، ورقتا ٥١٢ ، ٥٥٧ .

(٢٤) نفسه ٢ ، ورقات ٦٠٠ ـ ٦٠٣

فما ذلك منا فيه آلا تطهيرا له وتمحيصا لذنوبه ، وكل ما تجري به أمورنا فيكم فهو صلاح لعامتكم (٢٥) .

ومبدأ الانسجام بين رعايا الدولة حرص المعز لدين الله على تحقيقه حرصا كبيرا حتى في المناسبات الاجتماعية أيضا . ومن ذلك انه أمر في ١ ربيع الاول ٣٥١ هـ ــ ٩٦٢ م باعذار الأطفال في كامل ارجاء الدولة بمناسبة ختان ابنائه عبدالله ونزار وعقيل ، وبتوزيع الهدايا والارزاق على سائر السكان في المناطق القريبة والبعيدة ومنها صقالية التي نالت من ألطاف الخلافة خمسين حملا (٢٦) .

وقد قصد المعز لدين الله أن تكون ايام الختان ــ التي استمرت شهرا ــ مناسبة افراح وسرور ووحدة مشاعر بين سائر السكان .

وقد اغتنم هذه الفرصة كي يستخلص العبرة من مغزى هذا الحدث أمام وفد من شيوخ كتامة وكان من بين أوائل الوفود التي حظيت بلقائه بعد انتهاء ايام الختان ، ثم ليؤكد امامهم مرة أخرى بأنهم البطانة والخاصة واساس وجود النظام واستمراره منذ عهد الاسلاف ، وان عليهم أن يصدروا في اعمالهم وفي علاقاتهم الخاصة مع بعضهم على نهج سليم غير ضار بسمعتهم ، او بمصالح الدولة التي كانت وما زالت تعتمد عليهم كقوة موحدة الأهداف بعيدة عن ريح النفاق والشقاق ، لتحقق أهدافها العليا على حساب الأمويين في قرطبة والعباسيين في بغداد ..

وكل هذه المعاني ضمنها في قوله للكتاميين « أنتم خاصتنا وبطانتنا واحب الخلق الينا لو اعتنمونا بسمع وطاعة وامتثال أمر ، وان كنا لانشك في حسن اعتقادكم لولايتنا وصفو نياتكم لنا ، ولكي الدنيا بما استمالت

---

(٢٥) نفسه ٢ ، ورقات ٤٣٤ ــ ٤٣٥ ، ٥٨٤ وما بعدها .

(٢٦) المقريزي : اتعاظ الحنفا ١ ، ٩٤ ، النعمان : المجالس والمسايرات ٢ ، ورقة ٦٠٣ وما بعدها .

كثيرا منكم بحطامها والهوى والحمية ربما مال بكثير منكم عن امرنا لا سيما ما يعتري بعضكم لبعض من الحسد والمنافسة حتى تصيروا في مواضعكم الى الحروب والقتل وهتك الحريم ، وذلك وان يشفى به بعضكم من بعض فانه مما يغمنا وينكينا فيكم وكان الواجب أن تدعوا ما تحيونه من شفاء غيظكم وبلوغ شهواتكم لما نحبه من حقن دمائكم وصلاح أموركم وبقاء نعمة الله عليكم » (٢٧) .

ان الذي يلفت النظر في احاديث المعز لدين الله وفي مجالسه الخاصة عن كتامة استخدام القسم لحملهم على التصديق ، والتكرار للتأكيد ، اما المبالغة في تصوير فضائل كتامة وميزاتهم، ووصفهم بمعدن الولاية (٢٨)، واما الحرص على مجيء وفودهم الى المنصورية في المناسبات الهامة (٢٩) وتبسطه في الحديث معهم عن وضعهم في الدولة وعن نظرتها اليهم ، واستطلاعه لمعرفة رأيهم في عمالهم واستفساره المستمر عن شيوخهم وشبابهم ان كانوا يواظبون على ارتياد المجالس الحكمية التي كانت تعقد في المساجد او في القصر ، لسماع الذكر والحكمة وعلوم آل البيت (٣٠).

فيستنتج منها : أنه لم يكن مطمئنا اليهم ، وأن رجال كتامة كان يعتريهم شيء من الفتور والتهاون في نصرة الخلافة الفاطمية ، وكان احيانا

---

(٢٧) النعمان : المصدر السابق ٢ ، ٦٦٦ وما بعدها .

(٢٨) ومع ذلك فقد وصفهم مرة بالسفلة في قضية خاصة عرفها من جوذري ، الذي كان « مثقفا على كتامة رؤوفا بهم لمكانهم في هذه الدولة الطاهرة » انظر : العزيزي الجوذري : المصدر السابق ١٢١ — ١٢٢ .

(٢٩) النعمان : المصدر السابق ١ ورقة ٢ — ٣ .

(٣٠) نفسه ٢ ، ورقتا ٥١٢ ، ٥٥٧ وعندما عرف مواظبتهم قال « هذا الذي نريده منهم ومن غيرهم مما فيه حظهم وصلاح احوالهم » ، اما هدفه من ذلك فقد اوضحه في قوله « نحب أن نجعل جميعهم أعلاما يهتدى بهم وسرجا يستضاء بنورهم وعلماء تقتبس الخلائق منهم » .

يخامر بعضهم الشك في المذهب الاسماعيلي ثم في حقيقة وجهـة الخلفاء الفاطميين ، وتصرفاتهم تجاه القيادات المحلية ، ولذلك اجتهد المعز لدين الله بما أوتي من قدرة ولقانة كي يحاصرهم ويجعلهم في اطار المذهب وفي الخط السياسي الذي كان يريده كي يبقوا عدة لما يعتزم القيام بـه من مشروعات ضد العباسيين والروم البيزنطيين ، «لا ترتاب بوافينا ولا تشكوا فيما نأتيه ونذره من أموركم كيفما جرت الأحوال » (٣١) .

وزاد هذا المعنى توضيحا وتأكيـدا في مناسبة أخرى بقوله « أحب لكم ولغيركم خاصة ولجميع من تمسك بولايتنا عامة ، ان يكون ما تكنه صدوركم لنا موافقا لما تنطق به ألسنتكم عندنا » (٣٢) .

ولما كان المعز لدين الله يشتد أحيانا على كتامـة في بعض مجالسه ويعنف ويؤنب ويلمح بالتهديد والوعيد فقد كان جليسه ومدون أحاديثه، النعمان بن محمد ، يتدخل أحيانا ، لتهدئة الموقف وتلطيف الجو ، ومن ذلك ان المعز لدين الله شعر مرة بتأثر الكتاميين مما سمعوه منه ،فاستدرك أمامهم بما يبعث الاطمئنان في نفوسهم وقال للنعمان « لو لم يكونوا عندي بمحل من نحب صلاحه ونشتهي رشـده ، لم أقل لهم مثلما قلت ، ولولا ما أخشاه عليهم لعرفتهم مكانهم عندي ، وكيف محلهم من قلبي ، ولو أشاء لعاقبت المذنب عقوبة مثله ، ولقتلت من يجب في صلاح الدولة قتله وأبقيت من ينتفع فيها به ، ولكني حملت الامر على ما اوجب الزمان لي ، وجرت به عادة الله الجميلة عندي » (٣٣) . وامام جموع كتامة الذين أتوا بأعداد

---

(٣١) نفسه ٢ ، ورقة ٥٨٤ .

(٣٢) نفسه ٢ ورقة ٥١٢ .

(٣٣) نفسه ٢ ورقات ٦٧٠ ــ ٦٧٣ وكان تعقيب النعمان بن محمد علي احاديث المعز لدين الله مع شيوخ كتامة قوله « لقد وعظ المعز عبيده وأبلغ في الموعظة ، ونبههم ، وتفضل عليهم » .

كبيرة من بلادهم للاشتراك في تأديب ابن واسول وانهاء انفصال سجلماسه السياسي والمذهبي أشار ضمنا الى ظاهرة تثاقلهم من قبل وعدم استجابتهم لنداء اسلافه من قبل على هـذا النحو الهائل ، عندما استصرخوا ضد ثورات زناته ، وحركة الذكارية بقيادة أبي يزيد . بقوله « بارك الله فيكم وأحسن صحابتكم ، والخلافة عليكم فقد صدقتم ظني فيكم وأملي عندكم، وانتم من معدن البركة وعنصر الخير بكم بدأ الله اظهار امرنا وبكم يتمه ويصلحه بحوله وقوته وقد علمت مسارعتكم الى ما ندبتكم اليه واجابتكم لما اردتكم له ، وأرجو ان تبلغوا من ذلك بحسب الأمل فيكم ويرفع الله درجاتكم ويعلي ذكركم » (٣٤) .

وكي يعتذر اليهم عما دبره ، ويوصيهم بالفتيان خيرا ، ويبرر أمامهم تقديم جوهر الصقلي للقيادة على حملة سجلماسة دون أحد رؤسائهم البارزين ، قال « لولا السنة ما قدمت عليكم أحدا منكم ولا من غيركم، اذ كل واحد منكم يستحق عندي أن يكون المقدم ولكن لا يصلح الناس الا برئيس ، وقد وليت عليكم مني شخصا أقمته مقام نفسي وجعلته معكم كأذني وعيني ، احسنوا عشرة بعضكم وعشرة من تصحبون من غيركم واحسنوا معاملة عبيدي فهم أخوتكم وموالاتي تجمعكم » (٣٥) .

والذي يبدو أن ظاهرة التثاقل ، وعدم الاستجابة بالقدر الكافي قبل عصر المعز شيئان لا ينازع فيهما بعد كل التطورات التي مرت بالدولة وبعصبيتها التاريخية عهدي المهدي والقائم ، ومن المسلم به أن مستوى الحماسة للدعوة الاسماعيلية ولنظام الخلافة الفاطمية لا يمكن ان يظل على حاله نظرا لاختلاف وجهة نظر الخلفاء الفاطميين حول انصار الدولة ولتقلب أهواء القبائل المغربية .

---

(٣٤) نفسه ١ ، ورقة ٢٦ وما بعدها .

(٣٥) نفسه ١ ، ورقة ٣٠ ــ ٣١ .

وادراك المعز لدين الله لما حصل هو الذي حمله على تقصي أخبار كتامة في بلادهم وتتبع ما طرأ عليهم من تحول في نظرتهم نحو الدولة، ولقد كانت فرحته شديدة عندما علم عن طريق وفودهم الكثيرة .

ان الطاعة للامام المعصوم من عترة الرسول هي الظاهرة العامة التي يستوى فيها الكبير والصغير ، والسيد والمسود ، وان الكتاميين يقسمون باسمه ذكورا واناثا شبابا وشيبا ، وسادة وعبيدا . وما ذلك فينادون بنينا وخدمنا وعبيدنا ، والله ما تحلف أطفالها وعبيدنا وخدمنا الا بحق مولانا وفضله ولا على السنتهم ولا لهم غيره ولا يعرفون لهم مولى سواه » (٣٦).

ولأن هذا الاعتراف الصريح أعطاه اطمئنانا لما يجري في مجتمع كتامة الصغير وزوده بمادة طيبة يستغلها في الحديث مع وفود أخرى فقد أوضح في مناسبة أخرى مدى تعلق سكان منطقة كتامة بجميع فئاتهم بالولاء لنظام الخلافة العلوية الفاطمية بقوله « والله والله ما يتخالجني الشك في اعتقاد صغيركم وكبيركم وحرمكم وعبدكم وذكركم واناثكم » (٣٧) .

وان صرفنا النظر عن تفنن المعز لدين الله في اصطناع الأساليب ، والمواقف المختلفة للتأثير على كتامة واشعار رجالها بأنهم وحدهم المسؤولون عن مصير الدولة ، والقوامون على بقائها وسلامتها ، وعلى مد نفوذها في الآفاق المشرقية البعيدة ، فانه يلاحظ أيضا أن المعز لدين الله في اطار هذه السياسة ، جرى في معاملته لهم أحيانا على غير الرسوم المألوفة مع غيرهم بقصد التأنيس ، وتأكيد المواقف اذ تشير بعض النصوص (٣٨) الى

---

(٣٦) نفسه ١ ، ورقات ١٥٠ ــ ١٥٣ .

(٣٧) نفسه ١ ، ورقة ١٥٤ وما بعدها .

(٣٨) المقريزي : اتعاظ الحنفا ١ ، ٩٥ ، ماجد عبد المنعم : أصل حفلات الفاطميين بمصر ٢٥٣ ــ ٢٥٤ مقال صحيفة معهد الدراسات ــ مدريد ــ مجلد ٢ سنة ١٩٥٤ م .

أنه دعا بعضهم الى الاجتماع به في يوم شات وسمح بادخالهم عليه من غير الباب الذي جرى الرسم بدخول العامة ، ورجال الدولة منه على الخلفاء قبله ، وكان لحظة دخولهم ، على هيئة متواضعة ، منصرفا الى كتابة رسائل الى الدعاة في المشرق ، والى الولاة والعمال في المغرب ، يجيبهم فيها بنفسه على بعض مشاكل الدعوة الاسماعيلية [٣٩] ومصاعب الحكم الفاطمي في بلاد المغرب [٤٠] .

وكان هدفه من هذه الحركة التمثيلية أن يشعرهم بأنه عندما يحتجب عن رجاله لا ينصرف الا لتدبير شؤون المجتمع ، ولما يحفظ الدعوة ، ويضمن استمرار الدولة ، كل ذلك مع زهد كامل في شتى مباهج الدنيا وملذات الحياة الباذخة . وفي ذلك ايماء الى أن رجاله المقربين منه يجب عليهم بمقتضى مبادىء المذهب الاسماعيلي ــ اسوة بأمامهم ان يكرسوا جهودهم لخدمة المصلحة العامة ، ولتخفيف المشاكل عن الضعفاء ، ولاشاعة جو العطف والرحمة على البؤساء ، حتى يشعر الجميع بالاطمئنان وبالراحة في ظل الخلافة العلوية العادلة وإلا يتيحوا لانفسهم ولحياتهم الخاصة الا قدرا مما تستحقه في نطاق القصد والاعتدال خاصة في أمر النساء[٤١]

---

(٣٩) النعمان : المجالس والمسايرات ١ ، ورقات ، ٣٣١ ، ٣٣٦
G. Jarcain la Monde ohentoile de 395 - 81 P. 155.

(٤٠) نفسه ١ ، ورقات ١٧٩ ــ ١٨٣ ، ٢٠٣ ــ ٢٠٧ ، ٢٩٤ وما بعدها .

(٤١) المقريزي : المصدر السابق ١ ، ٩٥ ــ ٩٦ ومما قاله لهم « افعلوا يا شيوخ في خلواتكم مثل ما افعله ولا تظهروا التجبر والتكبر .... وتحننوا على من وراءكم ممن لا يصل الي كتحنني عليكم ليتصل في الناس الجميل ، ويكثر الخير ، وينشر العدل ، واقبلوا بعدها على نسائكم ، ولا تشر هوالي التكثير منهن ... فحسب الرجل الواحد الواحدة . ونحن محتاجون الى نصرتكم بأبدانكم وعقولكم . وأعلموا انكم اذا لزمتم ما آمركم به رجوت ان يقرب الله علينا امر المشرف كما قرب امر المغرب بكم » .

ان جهود المعز لدين الله في سبيل تقويم سلوك الكتاميين ،ومواعظه الكثيرة بهدف توجيههم ، وأحاديثه في مجالسه الخاصة عن كتامة ومبالغته في الثناء عليها وفي اطراء اخلاف رجالها ، ونشاطه من أجل بث روح جديدة في نفوسهم ، وخلق مناخ ملائم في ربوعهم ، قد أثمرت في نهاية الامر ، وآتت تمرها شهبا ، اذ هيأت لظهور نواة جيل جديدة من كتامة يمتاز بميزتين بارزتين هما :

١ ـ الاعتزاز بماضي الاسلاف في مجالي نشر الدعوة ، وتوجيه حركة التوسع في بلاد المغرب .

٢ ـ ثم الادراك الكامل لمدى أهمية استمرار الخلف على سيرة السلف ، وترسم طريقهم واحياء دورهم من جديد ، وذلك بالعمل على دعم مسيرة الدولة ، لتدرك في عصرهم أهدافها في عالم مصر ، وغيره من بلاد المشرق العربي الاسلامي ، بعد أن عمل اسلافهم من قبل ، على انجاح حركة الدعوة الاسماعيلية . ونشرها وتعميمها ، ثم تحويلها الى نظام دولة مستقرة ، وخلافة جامعة في بلاد المغرب وملحقاتها .

واذا كان الجيل الأول من كتامة ، قد زانه قادة رواد مثل عروبة بن يوسف والي تاهرت والجزء الغربي من الخلافة الفاطمية في عهد المهدي ، وأخيه حباسة قائد فتح طرابلس ومساعد القائم بأمر الله ، في قيادة الحملات التمهيدية التي وجهت لاستطلاع اوضاع مصرالاخشيدية. وابى مديني بن فروج اللهيص والي برقة ومنطقة الاطراف مما يلي مصر وأبي زاكي تمام بن معارك الأجاني أخص مساعدي أبي عبدالله الداعي الشيعي . ثم عمه ماقنون بن ضبارة والي طرابلس الغرب ، فان جيل كتامة في عهد المعز لدين الله برز منه قادة ساروا على نفس الخط واستعادوا سيرة اسلافهم في ميادين نشر الدعوة وتوجيه الحرب وتسيير الادارة ،ومن بين هؤلاء : ابن عطاء الله والي قابس ، وصولة متولي ديوان خراج افريقية ، وعبدالله بن يخلف عامل طرابلس المستقل بشؤونها عن نفوذ

الزيريين ، وعسلوج بن الحسن الدنهاجي أخص خواص المعز لدين الله ولذلك اطلعه على سر النص على حجته وولي عهده ابنه عبدالله (٤٢) ، وجبر بن القاسم الكتاني ، الذي بلغ منزلة كبرى في مصر لدرجة أنه ولي شؤون الدولة نيابة عن الخليفة العزيز بالله منصرفة لقتال القرامطة وافتكي الشرابي ، أبو علي جعفر بن فلاح أبي مرزوق ، مساعد جوهر الكاتب في قيادة أضخم حملة ناجحة وجهت ضد مصر الاخشيدية (٤٣) ، الذي أدرك هو الاخر مجدا كبيرا في بلاد المغرب ثم في مصر بعد الفتح ويبدو أن ما كان بينه وبين جوهر من منافسه في بلاد المغرب تجديد في مصر ، ولذلك أبعده جوهر بوصفه القائد الآمر الى بلاد الشام برسم الفتح وتتبع فلول الاخشيدية والكافورية ، وتركه هناك ـ في دمشق دون نجدة رغم علمه بتحرج الموقف بسبب قوة الاحلاف المغامرين (٤٤) .

ولشهرة جعفر بن فلاح كقائد محنك درب ، كان أحد الجعفريين اللذين ألبسهما ابو القاسم محمد بن هاني شاعر الدعوة الاسماعيلية برود مدحه حيث يقول فيه بعد أن رآه :

كانت مسألة الركبان تخبرني عن جعفر بن فلاح أطيب الخبر
حتى التقينا فلا والله ما سمعت أذني بأحسن مما قد رأى بصري (٤٥)

---

(٤٢) العزيزي الجوذري : المصدر السابق ١٣٩ س ١١ ، ابن ابي دينار : المصدر السابق ٦٣ .

(٤٣) ابن عذارى : البيان المغرب ١ ، ٣١٥ ـ ٣١٦ ط المناهل ـ ابن خلدون : المصدر السابق ٤ ـ ٦٧٣ ـ ٦٧٤ حسن ابراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ١٥٣ هامش ١ ، ابن خلكان : وفيات الاعيان ١ ، ١١٣ الجيلالي : تاريخ الجزائر العام ١ ، ٣١٧ ط ٢ ، ١٩٦٥ ، مفاخر البربر (المجهول) ٥٧ ، ابن تغري بردي النجوم الزاهرة ٤ ، ٢٨ ـ ٢٩ .

(٤٤) ابن القلانس : ذيل تاريخ دمشق ١ وما بعدها ، ابن تغري بردي: المصدر السابق ٤ ، ٣٢ وما بعدها جمال سرور النفوذ الفاطمي في الشام ١٧ وما بعدها .

وكان الشاعر الدمشقي ، أوضح بيانا واكثر تأثيرا عندما رثاه بعد موته بقوله :

يا منزلا عبث الزمان بأهله ... فأبادهم بتفرق لا يجمع
اين الذين عهدتهم بك مسرة ... كان الزمان بهم يضر وينفع (٤٦)

ومن بين أشهر قادة هذا العصر أيضا : أفلح بن ناشب عامل برقة منذ سنة ٣٤٢ هـ /٩٥٣م (٤٧) وقد ادرك هو الاخر في برقة مجدا كبيرا ، واشتهر بين قادة الخلافة حتى طمحت نفسه لمنافسه جوهر القائد الذي كان أول من مارس مهمات واختصاصات الوزير (٤٨) دون تلقيب ، فأبى أن يترجل له انفة واستعلاء بنفسه رغم أن جميع رجال الدولة وأنصارها بما فيهم رجال البيت الفاطمي ، كانوا كما رسم المعز لدين الله ، يترجلون لجوهر وحاول بتلطف مع الخليفة المعز ، أن يعفيه من هذا العمل الثقيل

---

(٤٥) ابن تغري بردي : المصدر السابق ٤ ، ٣١ هامش ٣ ، ابن خلكان: المصدر السابق ١ ، ١١٣ ، الجيلالي : المرجع السابق ١ ، ١١٨ .

(٤٦) ابن تغري بردي : المصدر السابق ٤ ، ٥٨ ــ ٥٩ .

(٤٧) ابن ابي دينار : المصدر السابق ٦٣ . القلقشندي : صبح الاعشى ٣ ، ٣٤٩ ، لمعة من اخبار المعز (المجهول) ورقة ٤ . وقد وصف أفلح بموله المعز وغلامه مما يشعر بأنه قد يكون من الفتيان الصقالية . ويبدو أنه من كتامة ، وهو احد اخوة ثلاثة واصغرهم ايضا : فأكبرهم فيما يبدو هو الذي ورد في بعض النصوص باسم الحكم بن ناشب (ناسب) الذي عينه الداعي الشيعي نائبا عنه في قلعة ايكجان غداة مغادرته اباها بعد حدوث قتته الى قلعة تازروث . وكانت مهمته رعاية انصار الدعوة الاسماعيلية في ايكجان . واوسطهم هو جبر بن ناسب الذي ازدهر في عهد المهدي ، وهو الذي تولي باذنه قتل ابي العباس المخطوم بتسع عشرة طعنة بالرمح انظرا : ابن عذاري : المصدر السابق ١ ، ٢٢٧ ــ ٢٢٨ ، النعمان ــ افتتاح الدعوة ورقة ٦٢ .

(٤٨) المقريزي : اتعاظ الحنفا ١ ، ٩٣ .

على نفسه لقاء تعويض مادي ضخم ، ولما أشعر بالرفض ، وبضرورةالالتزام بما رسم نحو جوهر امتثال للامر ، على مافي نفسه ــ طاعة للخليفة ،وترجل لجوهر وقبل يديه (٤٩) .

وبسبب نشاطه الجم استقر الامن والنظام في منطقة برقة التي كانت معبرا الى مصر كما أخلد عرب الاطراف من ناحية مصر ، الى الراحة .

واستقرار الامن النظام انعكست آثاره الايجابية في النشاط الثغري ضد موانيء البحر المتوسط التابعة للروم .

ومن ميناء طينة على ساحل برقة انطلقت النيجدات الفاطمية الى مسلمي جزيرة آقريطش الذين هددوا من طرف الامبراطورية البيزنطية .

ووجود أفلح كان بدون شك مفيدا للحملة التي مرت ببرقة وفتحت أثناءها مصر وضمت الى بلاد المغرب (٥٠) .

ولقد كانت صلات أفلح برجال الدولة وبالاستاذ جوذر ، ثم بالخليفة المعز لدين الله قوية ومتينة لدرجة أن الاستاذ جوذر على ما بلغه من قيمة وشأن ونفوذ في الدولة المعز لدين الله لما طلب من أفلح ارسال عشرة

---

(٤٩) لمعة من أخبار المعز لدين الله ورقة ٤ ، خ مكتبة جامعة فؤاد ١ رقم ٢٢ ، ٢٤٠ ، القلقشندي المصدر السابق ٣ ، ٣٤٩ ، ابن ابي الضياف: اتحاف أهل الزمان ١ ، ١٢٦ ــ ١٢٧ عبد المنعم ماجد : ظهور خلافة الفاطميين ٢٤٥ .

(٥٠) النعمان : المجالس والمسايرات ٢ ورقة ٤١٧ وما بعدها ، العزيزي الجوذري : المصدر السابق ٩٥ تعليق ١٠١ ، ابن الاثير : المصدر السابق ٨ ، ١٩٦ (أحداث ٣٥١ هـ) ، الدشراوي : قضية اقريطش في عهد المعز لدين الله ٢٧ وما بعدها ، انظر : عن هذه النصوص التي اقتبسها الدشراوي من نسخة خطية لكتاب المجالس والمسايرات كانت في حوزة المرحوم حح . عبد الوهاب : حوليات الجامعة التونسية عدد ٢ لسنة ١٩٦٥ .

جمال من برقة ، وأرسل اليه ضعفها اي عشرين ، تحرج من رد ما زاد على الطلب ، ومن مراجعته في هذا الشأن ، وتطلب الأمر عرض الوضع على الخليفة نفسه لأخذ رأيه ، فيما اذا كان يمكن للأستاذ جوذر أن يرد مثل هذه الهدية آلى أفلح فكان توقيع الخليفة ـ بالموافقة دون تردد أو ابطاء (٥١) .

ومثل ذلك لا يعني الا التقدير المتبادل ، والأهمية الكبرى التي كان يحظى بها أفلح بن ناشب في نظام الخلافة وبين ولاة الدولة في عصر المعز لدين الله ، وفي شطر من عصر ابنه العزيز بالله اذ كان أحد الثلاثة الذين طلبوا من المعز لدين الله في أخريات حياته ، أن يقضي اليهم بسر النص ، اي بقضية تعيين حجته من بعد وفاة ابنه الامير عبدالله في مصر (٥٢). وبلغ من قيمته وشهرته ، أن غدا ضمن ممدوحي ابن هانيء الافريقي ، شاعر القصر الفاطمي (٥٣) .

ان هؤلاء القادة وامثالهم ممن لم نتعرض لذكرهم ، وازد هربهم النصف الاول وشطر من النصف الثاني من القرن الرابع الهجري كانوا حقيقة ، نتاج عصر وثمرة جهد فكري بذله المعز لدين الله بسخاء ، وتفان في سبيل تحقيق الأهداف العليا للاستراتيجية الفاطمية ، وللاحساس المعز لدين الله بضخامة الجهد ، وأهمية الرجال خاطبهم بقوله :

---

(٥١) العزيزي الجوذري : المصدر السابق ٩٥ .

(٥٢) المقريزي : اتعاظ الحنفا ١ ، ٢٢٩ س ٩ط ١٩٦٧ وعندما كان يأتي افلح الى القاهرة ، كان يستقبل استقبالا فخما ولقد استمر واليا في برقة حتى بعد سنة ٣٧٩ هـ . انظر ص ٢١٦ ، ٢٤٩ من اتعاظ الحنفا .

(٥٣) الزاوي : تاريخ الفتح العربي في ليبيا ١٩٣ هامش ١ ، اليعلاوي: قصائد لابن هانيء لم تنشر حوليات الجامعة التونسية ، وقد وصف افلح هنا بقاضي برقة خطأ ، ومن شعر ابن هانيء نتبين انله ابنا يسمى محمدا .

فوالله ما هيأ الله لأمة من الأمم ماهيأه لكم ، ولا فتح على احد مثلما فتح فيه عليكم وأن أمركم معنا لما فيه برهان لمن تأمله ، ودليل على امامتنا ، وذلك لطول صحبتكم ، ايانا ، اجدادكم مع أجدادنا ، وآباؤكم مع آبائنا ، وانتم معنا وكذلك يكون أعقابكم مع أعقابنا ،لايموت أحد حتى يخلف من ولده الجماعة ممن يخلفونه وبدون مكانه ، ويفضلونه ويسعدون بولايتنا ، ويشرفون بطاعتنا ، ولأنت اليوم بما نلت من رضانا عنك أفضل من أبيك بالأمر مع آبائنا ، وان كانت السابقة له والفضل والجهاد ، فما امة من الأمم كانت هكذا مع أئمتها قبلكم مثلكم ، وما ذلك الا للحق الذي نحن عليه (٥٤) .

ان المعز لدين الله من خلال هذا القول ، يمن على كتامة بسبب ما أدركوه من مجد بسبب تعلقهم بالولاء . ويوضح أن أساس التفاضل بين الاجيال انما يكون بالجهاد الذي أراده مبدأ يتمسك به الكتاميون في عهده ، كما وضح ان خلاص كتامة جيله ، وفضلهم ، وتعلقهم بالولاء الذي ورثوه عن آبائهم . واولي السابقة منهم ، انما يقوم برهانا ساطعا على أحقية الفاطميين في الامامة ، وعلى شرعية حكمهم لسائر المسلمين .

وهكذا لم يبق أمام كتامة بسبب التعبئة المعنوية ، والتنظيم المادي، الا ان يتصرفوا وفقا لما وصل اليهم وضعهم في الدولة في عهده ، ويترجموا أقوال المعز ، حول أهميتهم وفضلهم واعتماد الدولة عليهم ، الى حقيقة واقعية ، والى تصرفات فعلية ، وفي هذا الصدد تشير بعض النصوص، الى أن المعز لدين الله نفسه واجه موقف الرفض والاعتراض من شيوخ كتامة

(٥٤) النعمان : المجالس والمسايرات ٢ ، ورقة ٣٢٩ ــ ٣٣٠ ،واكد هذا المعنى في مناسبة أخرى بقوله « ولقد سبق من آبائكم مع الآباء واجدادكم مع الاجداد ، من يقول الناس انهم سبقهم أفضل منكم ما أقول أنا الا أنكم أفضل ممن تقدمكم بما فضلكم الله به في أيامي ورحمتي وحياتي انظر : المجالس والمسايرات ٢ ، ورقة ٦٧٠ وما بعدها .

جيله ، عندما رغب منهم ، واقترح عليهم قبول تعيين عمال (٥٥) المصدقات يقيمون في بلادهم ليكونوا مندوبين عن الخليفة في جمع الاموال والزكوات والاشراف على ارسالها الى دار الخلافة في المنصورية للاستعانة بهـا في تحقيق مشروعات الدولة في المشرق . وكانت الاستعدادات جارية لتجهيز حملة جوهر الى مصر الاخشيدية (٥٦) ، والنيـة معقودة منذ فتـرة على اتخاذها مقرا دائما للدولة الفاطمية للاشراف من قرب على شؤون المشرق علي والنضال ضد العباسيين ، والروم البيزنطيين .

وعندما استفسر المعز لدين الله ، شيوخ كتامة الذين حضروا بناء على طلبة عن حقيقة قولهم وما نقل اليه عنهم (٥٧) وكان ممتطيا صهـوة جواده قالوا : « نعم هو جواب جماعتنا ، ماكنـا يامولانا بالذي يؤدي جزية تبقي علينا » .

وبهذا برروا موقفهم المعارض لاقتراح الخليفة علـى أساس تاريخي واضح طالما تغنى به هو في مجالسه الخاصة معهم .

ومعنى كل ذلك : أن الكتاميين فهموا اقتراح الخليفة على انه محاولة اذلال لهم ، وحط من قيمتهم ، وقضاء علـى بعض امتيازاتهم التاريخيـة

---

(٥٥) ونص كلامه كما نقله رسوله « يا اخواننا : قد راينا أن ننفـذ رجالا من قبلنا الى بلدان كتامة يقيمون بينهم ويأخذون صدقاتهم ومراعيهم ويتحفظونها علينا في بلادهم ، فاذا احتجنا اليها انفذنا خلفها فاستعنا بها على ما نحن بسبيله » انظر : المقريزي : اتعظ الحنفا ١ ، ٩٨ .

(٥٦) المقريزي : اتعاظ الحنفا ١ ، ٩٧ . وكـان خفيف الصقلبي صاحب الستر ، وهو رسول المعز لدين الله الى شيوخ كتامة .

(٥٧) ومما رووه علـى خفيف الصقلبي قولهم « قـل لمولانا : والله لافعلنا هذا أبدا . كيف تؤدي كتامة الجزية ، ويصير عليهـا في الديوان ضريبة ، وقد أعزها الله قديما بالاسلام ، وحديثا معكم بالايمان وسيوفنا بطاعتكم في المشرق والمغرب » . انظرا : المقريزي المصدر السابق ١ ، ٩٨ . أ س ٥ ــ ٧ .

في الدولة ، ولذلك رفضوه بقوة ، وبمنطق سليم ، بحيث بهت المعز لدين الله ، ولم يسعه ــ وهو المسؤول عما حصل الا ان يتظاهر بالسرور والرضا ويتصنع الاغتباط لوقفهم القوي ويقول في حكام مجلسه معهم « باركالله فيكم ، فهكذا اريد ان تكونوا ، وانما اردت أن أجربكم فانظروا كيف انتم بعدي اذا سرنا عنكم الى مصر ، هل تقبلون هذا او تفعلونه وتدخلون تحته ممن يرومه منكم ؟ والآن سررتموني بارك الله فيكم » (٥٨) .

ومبعث سروره فيما يبدو هو أن تمنع كتامة عن دفع الجباية ، وتمسكهم بهذا الامتياز الذي أقره المعز لدين الله حديثا ، نتيجة موقف الاعتراض ، سوف يؤدي الى حركة النضال المرير بينهم ، وبين الأمراء الزيريين ــ نواب الغيبة ــ اي الى حركة المواجهة بين حلفي كتامة وصنهاجة ، ذلك لأن عقد التقليد الذي ظفر به ابو الفتوح بلكين بن زيري ابن مناد الصنهاجي ، ثم الوصية الخاصة التي زود بها من طرف المعز لدين الله في سردينية ــ من ضواحي القيروان ، لم يتضمنا استثناء كتامة من الجباية ولا امتيازا لأحد .

ان غاية المعز لدين الله ، أن يبقي ظل الخلافة السياسي ، ووجودها المعنوي مستمرين في بلاد المغرب بعد رحيله ، الى مصر . وهذا يتأتى في ظل وضع مضطرب باتصال القبلى تبقي فيه الخلافة الفاطمية تمثل دور الحكم الفصل وصاحب السيادة الشرعية .

ومن اجل هذه الغاية ، اضطرب المعز لدين الله في قضية الاستخلاف في بلاد المغرب فكان يريد استخلاف ابي أحمد جعفر بن علي (الامير) الاندلسي (٥٩) رغم ضعف عصبيته ومخامرته عليه لفائدة أموي الاندلس، لأنه كان يعرف عداء صنهاجة لأسرته . وقد قيل أنه فكر ايضا في استخلاف

---

(٥٨) نفسه : ١ ، ٩٨ .

(٥٩) المقريزي : المصدر السابق ١ ، ٩٩ .

جوذر الصقلى (٦٠) ، رغم أنه كان طاعنا في السن ضعيف الحال فاقدا للعصبية ، لمجرد أنه من أخلص رجال الدولة وأخبرهم بشؤون الحكم وبسياسة القبائل المغربية .

وللحفاظ على مكاسب الدولة وحقوقها السياسية الثابتة ، لم يفكر المعز لدين الله في استخلاف أحد شيوخ كتامة ، كما لم يفكر في ترشيح رجل له مكانة قبلية ، قد تشجعه سريعا على فك الارتباط التاريخي بين المغرب ، وخلفائه الفاطميين (٦١) .

ولهذا السبب لم يدع احدا يظهر في ميدان القيادة باستقلال في بلاد المغرب ، من غير الصقالية وقد تمتع جوهر الصقلى بمكانة كبرى، واضفى عليه المعز لدين الله قيمة وبالغ في تكريمه واستمر على هذا النهج في مصر أيضا لفترة ، ولئن كان زيري بن مناد قد ولى بعض المهمات رفقة جوهر، فاكتفي ، ولئن كانت عصبية صنهاجة قد حصلت على ترضية كافية عندما استخلفت على شؤون المغرب ، فان جعفر بن فلاح وعصبيته الكتامية قد هضمت بعض امتيازاتها ، فاحسبت بالجرح لكبريائها ورافقها هذا الاحساس الى مصر ، فترجمته الى مكايدة جوهر (٦٢) ، ومساندة جعفر

---

(٦٠) العزيزي الجوذري : المصدر السابق ، ١٠٩

(٦١) ابن ابي الضاف : المصدر السابق ١ ، ١٩٨ ـ ١٣١ ، وقارن بما ورد في المقريزي : اتعاظ الحنفا ١ ، ٩٩ ، عن المحاورة التي جرت بين المعز لدين الله وبين أبي طالب أحمد بن المهدي عما بين قول جعفر بن حمدون ، ويوسف بن زيري من فروق وكيف أن المعز كان مقتنعا بأن مصر بلاد المغرب الافلات من قبضة الفاطميين ، خلفاء مصر .

(٦٢) المقريزي : المصدر السابق ١ ، ١٣٣ ، ١٣٨ ، ١٤٤ ، ٢١٦ على ابراهيم حسن : تاريخ جوهر الصقلي

encyclopédie de I'slam Art djawhart. 104 - 103 1 P. 508.

(٦٠) نفسه : ١ ، ٢٤٢ ، وقد تركته كتامة يلقي الهزيمة والذل في قتاله ضد أفتكين في بلاد الشام . وموقف كتامة منه كان تعله افادته في الاعتذار للعزيز بالله عن هزيمته .

ابن فلاح الذي نافس جوهر ، وكاتب المعـز لدين الله مباشرة من بـلاد الشام بعد فتحها ، دون وساطته أشعارا بأنه ليس أقل منه قيمة واخلاصا في واقع الامر .

ولئن كان المعز لدين الله قد استوحى في موقفه من جعفر بن فـلاح وامثاله مصلحة الدولة ومبـدأ الحفاظ على تكاملهـا وسلامتها . فهو معذور . وحسبه من العمل بعث جيل جديد من خيرة جند الدولة ودعاتها التاريخيين ، الذين نشروا ظل الخلافة السياسي والحضاري في مصر نافذة المشرق ، وعملوا على مده الى بـلاد الشام ، وهي بوابة العراق . امـا العراق العباسي ، في حـد ذاته ، فكان هـدفا رئيسيا للدعوة ولدعاة الاسماعيلية منذ عصر مبكر (٦٣) .

وبكتامة جيله ، ازهر الامل وتحققت أهم مشروعات الدولة ، وقطف ابو تميم المعز لدين الله ثمار دعاء جده المهدي ، وجهود القائم ، والمنصور ، وائتلفت بلاد المغرب وملحقاتها بعالم شبا مصر وملحقاته في مظهر وحـدة سياسية مذهبية رفعت شعاري الدفاع عن دار الاسلام والمسلمين ، والنضال ضد المغتصبين والمتكالبين .

---

(٦٣) نفسه ٢ ، ٥٣ س ٣ ط ١٩٧١ م . وانظر ج ١ منه ص٢٢٦، ابن الاثير : المصـدر السابق ٨ ، ٢٣٩ ـ ٢٤٠ ، ولتحقيق مبدأ وحـدة الخلافة وحصرها في العلويين ، ناضل الفاطميون من موقعهم في بلاد المغرب ضد العباسيين ، فجعلوا مصر هدفا رئيسيا أوليا فلما تحقق لهم فتحها وفتح بلاد الشام ، وتوا ببصرهم نحو العراق والمشرق الاسلامي انظر :
Huart (CL): Histoire des arabes T. 1 P. 340.

بواكير التنوير في الفكر الديني المصري

دكتور محمود اسماعيل
قسم التاريخ - جامعة عين شمس

من الشائع في حياتنا الثقافية ربط التطور الفكري المصري بعجلة الفكر الأوروبي ، فأية حركة تنويرية أو انعطافة ايجابية في مسار حياتنا الفكرية نبحث عن أصولها الأوروبية ونلتمس لها قرائن ونظائر من الغرب اكثر من التنقيب عن جذورها في التراث . ولعل تلك الظاهرة تبدو أكثر وضوحا فيما يتعلق ببواكير التنوير في الفكر المصري الحديث التي اعتبرت تقليدا واقتباسا عن الفكر الليبرالي الغربي .

وهذا الخطأ المنهجي يرجع اساسا لعدم الاحاطة والفهم للتراث من ناحية ، والانسياق وراء مفكري الغرب الذين أعمتهم دعاوى القومية فنسبوا كل ما هو خلاق في ثقافتنا الى الحضارة الاوروبية من ناحية أخرى . وان كان من الانصاف أن ننوه بفضل نفر من المستشرقين الذين تناولوا الفكر المصري الحديث والمعاصر دون أن يتأثروا بعقدة «الأوربة» والتزامهم موضوعية البحث لعل من أشهرهم شارلز آدمز Charles Adams في كتابه :

Islam and Modernism in Egypt. وسير هاملتون جب Gibb في كتابه : Modern Trends in Islam خالفت هذه الثلة من المستشرقين جمهرة الدارسين الأوروبيين المتعصبين الذين اعتبروا حضارة العالم

«أوروبية» خالصة على أساس أن أصول هذه الحضارة وضعها اليونان ، وأن ما بلغته من شأوفي العصر الحديث انما يعزى الى الغرب • ولسنا بصدد دحض هذا الزعم الذي فنده جورج يارتون في كتابه «تاريخ العلم» وأثبت فيه دورا لكافة شعوب العالم في بناء صرح الحضارة ومن ثم تنتفي دعاوى كثير من المستشرقين من أمثال جولد تسيهر وجريجوار وارنست رينان وغيرهم ممن غمطوا العرب فضلهم واعتبروهم مجرد نقلة ومقلدين بل ومشوهين للفكر الكلاسيكي •

ونحن لا نستطيع ان ننكر افادة العرب من التراث الهلليني الذي ترك بصماته على الفكر الاسلامي ان سلبا وان ايجابا ، لكن الثابت أن الفكر الاسلامي كان له أصوله العربية الاسلامية القحة التي تفاعلت مع منجزات العلم الانساني في الشرق والغرب على السواء ، وهذا التفاعل بين الأصول والمؤثرات أسفر عن اضافة جديدة اسهم بها العرب المسلمون في الحضارة العالميـــة •

ونفس الشيء يقال عن حركة الاستنارة الفكرية التي بدأت ارهاصاتها على يد الأفغاني ومحمد عبده، فقد أفادت الى حد كبير من الفكر الليبرالي، ولم يكن بوسع هؤلاء الرواد أن يصموا آذانهم عن ضجيج الفكر الليبرالي المتعاظم وتياراته الجارفة التي تسربت الى الشرق مع الموجه الاستعمارية، غير ان تأثير الفكر الليبرالي لم يتعد حد احداث صدمة خلخلت الفكـــر التقليدي وهزتـــه بعنف فأيقظت الاذهان لضرورة المراجعة والاصـــلاح بالتنقيب في التراث وتجديد الفكر القائم •

وعلى ذلـــك يمكن القول أن المؤثرات الغربية تباينت أصداؤهـــا واختلفت الاستجابة لها في حركة التنوير في القرن التاسع عشر عنهـــا في العصور الاسلامية الأولى ، فالفكر الاسلامي في العصر العباسي انفتـــح على الفكر الهلليني طواعية واختيارا بنقله وتمثله ومقارنة ما انطوى عليـــه من قيم بما في الاسلام من عقائد ومبادىء وانتقاء ما يتفق وترك مايتعارض،

ثم اقامة بناء نظري قوامه التوفيق بين النقل والعقل ، وكانت هذه العملية مناط الابتكار والابداع في الفكر الاسلامي فيما يرى ليولد جوتييه •

وفي المرة الثانية وفد الفكر الأوروبي في ركاب حملات عسكرية غازية ، أو فرض فرضا لخدمة اغراض عملية من قبل حكام طموحين ، في وقت كان الفكر السائد من القصور والتخلف بدرجة لم تمكن من احداث تفاعل حضاري طبيعي • والذي حدث أن اللقاء بين فكر متقدم وآخر متخلف أسفر ــ مع ذلك ــ عن عملية دينية قادها نفر من المستيرين من رجال الدين الذين راعهم ما آل اليه مصير العالم الاسلامي من ضعف وتخلف ، فانبروا لمواجهة التحدي بحركة احياء سلفي أشبه ــ في تصورنا ــ بالنهضة الأوروبية التي ارتكزت أساسا على احياء التراث الكلاسيكي • على أن السلفية في هذا المقام كانت تعني تبني التيار العقلاني في الفكر الاسلامي الذي يمثل جانبه المشرق لمواجهة الفكر الأوروبي الليبرالي • وكان مجرد التنقيب عن هذا التيار وسط ركام من الغيبيات والتقليد والطلسمات والدردشة ، ثم اظهاره على أنه الفكر الاسلامي الأصيل محاولة تنويرية فذة تمثل انعطافة كبرى في تطور الفكر الديني في مصر •

كانت المؤثرات الغربية ــ كما قلنا ــ حافزا على احداث تلك الانتفاضة الفكرية ، ومن ثم لامحل لتجاهلها كعامل فعال في تكوين الظروف الموضوعية التي أفرزت صحوة الاستنارة • فالغزو الفرنسي فضلا عما صاحبه من تسرب ثقافي ، أسهم الى حد كبير في تقليم اظافر الاقطاع الحكوكي وبالتالي في تغيير الكيان الاقتصادي المصري وخلخلة بنيته الاجتماعية التقليدية وبقيام الدولة الحديثة على يد محمد علي تم اعادة صياغة المجتمع المصري على أسس جديدة تماما فقد انهار النظام الاقطاعي كدعامة للحياة الاقتصادية ، وظهرت رأسمالية الدولة لتحل محله ، وما قام به محمد علي من حركة تصنيع واسعة وما حدث من نمو تجاري مضطرد ، وما ترتب على ذلك كله من انهيار النظام الاقتصادي القائم على

الاكتفاء الذاتي ليحل محله اقتصاد السوق وما واكب ذلك من تغيير في البناء الطبقي وصعود قوى اجتماعية جديدة وهبوط أخرى واختفاء ثالثة، هذا التغيير آسفر بالضرورة عن صياغة جديدة للبناء القومي وبصورة علاقات انتاجية جديدة عملت عملها في ضعضعة القوالب الفكرية التقليدية.

هذه المتغيرات أتاحت ظروفا مناسبة لتصحيح الفكر الديني على يد أئمة التنوير ، ومن الانصاف أن نشير الى أن محاولات في هذا الصدد كانت تطل برأسها بين الفينة والأخرى طوال عصور الظلام التي بدأت بضرب الفلسفة الرشدية وغلبة التصوف الذي تحول الى تاريخيات وطلسمات وما صحب ذلك من اضطهاد الفلاسفة وتكوين « كهنسوت » اقطاعي ديني فرض وصايته على الفكر ووجهه لتبرير سياسة الجائرين من الحكام . ويمكن تتبع محاولات التصحيح تلك في جهود ابن تيمية وابن القيم الجوزية في العصر المملوكي ، ثم الشيخ حسن الجبرتي والشيخ حسن العطار ابان الحملة الفرنسية ، ثم رفاعة الطهطاوي في عصر محمد علي . وبرغم التباين الواضح في فكر هؤلاء جميعا واختلافهم ما بين السلفية والتجديد الا أن اجماعهم على رفض الفكر التقليدي الديني السائد أمر لا شك فيه .

وبديهي أن تتيح المتغيرات التي ألمحنا اليها آنفا لهذا التيار أن ينمو ويزدهر في شكل حركة اصلاح ديني تصدى الأفغاني ومحمد عبده لقيادتها ترمي الى رفض التقليد والمحاكاة سواء عن الفكر القائم أو الفكر الوافد ، ثم بلورة فكر اسلامي عصري قادر على مجابهة تحديات العصر . وعلى ذلك لم تكن تلك الحركة ذات طابع لاهوتي بحت انما انسحبت الى كافة الجوانب السياسية والاقتصادية والاجتماعية وحق لشارلز آدمز القول بان جهود المصلحية الدينية كانت « تتضمن محاولة لتحرير الاسلام من قيود التقليد الممعن في الجمود ، والقيام باصلاحات تجعله منسجما مع مطالب الحياة المعقدة » .. وقد ربط الاستاذ جب بين ثورية الحركة وبين

ثورية بعض الفرق الاسلامية الأولى كالخوارج ، وانتهى الى أن الفكر الاسلامي منذ البداية انطوى على « تيارات خاصة دائمة ومتجددة » تمثل حركة التنوير في القرن التاسع عشر احدى حلقاتها دونما ضرورة لربطها بالفكر الغربي ، وهذا يبطل زعم بروكلماني بدمغها « بالاقتباس من ثقافة الغرب المادية ومناهجه التعليمية » .

فالثابت حقا أن حركة الاصلاح الديني في مصر الحديثة كانت ذات طابع اسلامي خالص قام بها نفر من رجال الدين أنفسهم لتجديد الاسلام بتحريره من الأوهام واعادة طرحه على أساس عقلاني ، وهي من هذه الزاوية شبيهة بحركة الاصلاح الديني في أوربا القرن الخامس عشر . واذا كان حظ الحركة المصرية من النجاح أكثر ضآلة من نظيرتها في أوربا ـ رغم ما حققته من تنوير ـ فذلك يعزي الى ضراوة التحديات التي اعتورت طريقها ، فالظروف التي ولدت فيها حركة الاصلاح الديني في أوربا كانت ممهدة تماما ، وذلك ان أوربا بأسرها كانت تعيش نهضة شاملة أدبية وفنية وقانونية ودينية ، كما وأن الصراع بين الكنيسة والسلطة الزمنية حمى المصلحين الدينيين من اضطهاد الكنيسة فوجدوا في السلطة السياسية سندا وحاميا ، ويبدو أن فصل العقيدة المسيحية بين الدين والدولة « اعط ما لقيصر لقيصر ، وما لله لله » سهل من مهمة دعاة الاصلاح الذين تحدوا الكهنوت وحسب وراموا تحرير العقيدة من اساره .

اما حركة الاصلاح الديني في مصر فقد اصطدمت بكافة القوى الدينية والسياسية والاجنبية والجماهيرية فالاسلام في نظر المصلحين « لم تكن أصوله قاصرة على دعوة الخلق الى الحق وملاحظة أحوال النفوس من جهة كونها روحانية ... بل هي كما كانت جاءت وافية بوضع حدود المعاملات بين العباد وبيان الحقوق كليها وجزئيها وتحديد السلطة الوازعة التي تقوم بتنفيذ المشروعات واقامة الحدود » كما ورد بالعروة الوثقى.

فقد اصطدم الأفغاني ومحمد عبده « بالكهنوت » المحتكر للعلم

« فلم تكن دراسة الدين الا منحصرة في دوائر مخصوصة وبين فئة ضعيفة .. كانت هي العلة في وقوفهم بل الموجب لتقهقرهم » وهذه الفئة « بعيدة عن مفاخر الابداع مبتلية بداء التقليد والتبعية في كل فكر وعمل وبداء الحرص على كل عتيق » على حد قول الكواكبي . وبديهي أن تقف موقف المعارضة لحركة قوامها التجديد فاعتبروا روادها زنادقة من « أهل البدع والضلالة » .

كما اصطدم المجددون بالسلطة السياسية ممثلة في الخديويةوسلطات الاحتلال ، فالاسلام الصحيح يحض على الشورى ويبغض الحكم الاستبدادي وقد دعا المصلحون الى الأخذ بتعاليم الاسلام في هذا الصدد فلاقوا عنتا واضطهادا ، فالأفغاني وصمته السلطة « بالأفاق » وذكرت في المنشور الذي أصدرته بأنها « أبعدت ذلك الشخص المفسد من الديار المصرية بأمر ديوان الداخلية لازالة هذا الفساد من هذه البلاد عبرة للمعتدين ولمن يتجاسر على مثل هذا من المفسدين » . وحين تجاسر تلميذه محمد عبده على المضي في الشوط قدما كان مصيره النفي الى خارج البلاد ردحا من الزمن . وبديهي ألا تلقى تعاليم المجددين حظا من الاقبال لدى شعب أمي ، وبديهي أيضا أن تقف الأقلية المثقفة ذات الموقف لتأثرها بالفكر الليبرالي ، أو للاختلاف في العقيدة ، ومناظرة الامام محمد عبده مع فرح أنطون خير شاهد في هذا الصدد .

هذا عن المشكلات العامة التي واجهت حركة التنوير في الفكر الديني ، لكن مشكلة أخرى كانت اكثر تعقيدا وهي كيف السبيل الى التوفيق بين الشرائع الالهية بما تتضمنه من نواميس ثابتة وبين مشكلات الواقع الاجتماعي المتغير ؟؟ لم يجد المصلحون الدينيون تعارضا البته بين الاسلام كعقيدة وشريعة وبين دعوتهم العقلانية الصادعة الى الأخذ باساليب المدنية الحديثة . وقديما وجدت القضية حلا على يد الفيلسوف ابن رشد حسين كتب « فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من اتصال » بنفق

المنهج اعلن داعيتا الاصلاح في العروة الوثقى ان الاسلام « دين قويم الاصول محكم القواعد ، شامل لأنواع الحكم ، باعث على الألفة ... منور للعقول باسراق الحق من مطالع قضاياه كافل لكل ما يحتاج اليه الانسان من مباني الاجتماعات البشرية ، وحفظ وجودها ، وينادي معتقديه الى جميع فروع المدنية » .

فالعلم الالهي اذن لا يتعارض مع العلم الوضعي ، والعقيدة الاسلامية تلزم معتنقيها « بالتبصر » في الفنون والعلوم كالطبيعة والكيمياء وجر الأثقال والهندسة وغيرها ... » .

وبهذا المنهج أسدى المصلحون ـ كما ذكر الشيخ مصطفى عبدالرزاق « خدمة للدين والعلم معا بما أبدوا من حرية العقل من وجه ديني ، وبما حسوا من أسباب عداوة بين الدين والعلم » .

وقوام هذا المنهج التوفيقي فتح باب الاجتهاد على مصراعيه وتأويل النصوص بما لا يمسى الأصول ، وجدير بالذكر أن الاجتهاد يمثل ركنا ركينا في الشريعة الاسلامية تتسع أفاقه في عصور التقدم وتضيق أو تغلق في عصور التخلف والتعصب ، فيتمسك اللاحقون باجتهادات السابقين ولا يأخذون بمنهجهم في الاجتهاد .

ولقد نمى الافغاني على رجال الدين في عصره اهدار قيمة العقل وتشويه الدين بالتقليد الأعمى للسلف دون مراعاة لطبيعة العصر وملابساته، كما هاله ما شاهد من ممارسات صوفية حادت بالفكر الاسلامية عن جادة الصواب . لذلك فقد دعى الى اتباع منهج المجتهدين بغض النظر عن نتائج اجتهاداتهم وذلك باطلاق العنان لحرية الفكر واعمال العقل في الفروع مع صدق الايمان بالاصول .

وبنفس الدرجة التي هاجم بها تقليد السلف هاجم تقليد الغرب والاقتباس الأعمى عنه دون تبصر وروية ، مع شدة ايمانه بضرورة الانفتاح

على العلوم العصرية . فالتقليد والاقتباس عن السلف أو من الغرب مضيعة للكيان الذاتي للمجتمع الاسلامي ومدعاة لاصابته بالجمود أو الخال وفي هذا الصدد يقول « ان الظهور في مظهر القوة لدفع الكوارث انما يلزم ببعض الاصول التي كان عليها اباء الشرقيين وأسلافهم ... ولا ضرورة في ايجاد المنفعة الى اجتماع الوسائط وسلوك المسالك التي جمعها وسلكها بعض الدول الغربية الاخرى ، ولا ملجيء المشرقي من بداية أن يقف موقف الأوروبي في نهايته بل ليس له أن يطلب ذلك » ، هذا على الرغم من احاطته بالثقافتين الاسلامية والاوروبية وتدريسه العلوم الاسلامية جنبا الى جنب مع علوم الغرب ، فقد أثر عنه حماسه لكتاب تاريخ الحضارة الفرنسية لجيزو ليقف تلامذته على أسباب يقظة الشعوب بتأكيد دور النظر العقلي في احداث هذه اليقظة . ولا غرو فقد أحدثت دعوته تأثيرا ايجابيا « فاستيقظت مشاعر ، وانتبهت عقول ، وخفى حجاب الغفلة » على حد تعبير تلميذه محمد عبده .

واذا كان الأفغاني يمثل مرحلة الثورية المثالية في حركة التنوير الديني، فان تلميذه محمد عبده يعد رائد ارساء دعائم تلك الحركة ومنظرها دون مدافع ، وان شئت تشبيها فالأفغاني هو سقراط ومحمد عبده أفلاطون . ومع أن محمد عبده لم ينجز نظرية متكاملة في الاصلاح الديني ، الا ان آراءه المسطورة في رسائله وشروحه وتفسيراته تمثل في مجموعها نظرة مستنيرة في تجديد الفكر الديني يمكن تحديد أبعادها فيما يلي :

أولا : تحرير الفكر من قيد التقليد وضرب احتكار « الكهانة » المرتبطة بالسلطة للقول الفصل في أمور الدين .

ثانيا : التوفيق بين الدين والعلم واتساقهما معاني اداء وظيفة روحية اجتماعية .

ثالثا : التمسك بالأصول وتأثير السلف باعتبارها الينبوع الأول للفكر الاسلامي .

وفيما يتعلق بالنقطة الاولى كانت تعاليمـه تستهدف عزل العقائـد الدينية عن الخلافات السياسية بطريقة تتيح تحرير الفكر من تأثير الحكام وتأثير الكهنوت ، ثم تعرية كل منهم على حدة بالدعوة الى العودة للشورى الاسلامية ورفض التقليد الأعمى « الذي ذمه الاسلام وحرم اعتباره مادة خالصة للايمان ، كما ذم القيام الآلي بالواجبات الدينية ، فالاسلام ينبع من العقل ويقع كله تحت الادراك » . وهذا الرأي لمحمد عبده يمثـل « حجر الزاوية في حركة التحرير العلمانية » كما ذهب الاستاذ جب . ومن هنا شجب محمد عبده الآراء المرتجلة وحمل علـى دعاة الجهل معلنا ان الانسان فطر على انصياعه للعلم والمعرفة وطبع على الاستطلاع ودراسة العلم الدنيوي ، فليس للعقل أن يتوقف الا أمام الله وحده وما عدا ذلك من حدود وقيود تعد حائلا بين العقل وانطلاق حيويته . فبالعقل يمكـن الوصول الى استدلال عن حقيقة المعارف الدينية والدنيوية سواء بسواء ذلك أنه يدرك الظواهر Thenomene وادراك مسبباتها يقود الى معرفة هويتهاNomena. فغاية كمال العقل الانساني ــ كما جاء برسالةالتوحيد ــ « الوصول الى معرفة عوارض بعض الكائنات التي تقـع تحت الادراك الانساني حسا كان أو جدانا أو تعقـلا ، ثم التوصل بذلك الى معرفـة مناشئها وتحصيل كليات لأنواعها والاحاطـة ببعض القواعـد لعروض ما يعرض لها » . والتشابه كبير بين هذه الرؤية وبيـن فلسفة كانت وان كان من المحقق أن تأثر في صياغتها بفكر المعتزلة بالدرجة الاولى .

وفيما يتعلق بالتوفيق بين الدين والعلم في فكر محمد عبده نجـد أنه رغم سلفيته وأعجابه الشديد بابن تيمية الا أنه خالفه في نظرته الى المعارف الدنيوية ، فابن تيمية يرى أن العلم الصحيح ما كان مأخوذا عن نبي ، وما عداه علم لا ينفع ، أما محمد عبده انطلاقا من حص الاســلام على اعمال العقل ، وما أثر عن الرسول (ص) من حض على طلب العلـم أنى وجد وأينما كان ، فقد دعى للانفتاح على كافة ــ ظروف المعارف وفي

هذا الصدد يقول « .. ليت شعري اذا كان هذا حالنا بالنسبة الى علوم قد أرضعت ثدى الاسلام وغذيت بلبانه وتربت في حجره وتقلدت في ايوائه منذ زمو يزيد على ألف سنة ، فما حالنا الى علوم جديدة مفيدة هي من لوازم حياتنا في هذه الأزمان لا بد لنا من اكتسابها وبذل الجهود في طلابها .. » . وهذا ينفي اعتقاد البعض بان هذه النظرية المستنيرة نتاج تأثيرات غربية ليبرالية .

حقيقة ان محمد عبده اطلع على الفلسفة الغربية واستوعب كثيرا من جوانبها في قراءاته لرينان وجبوب وجوستاف لوبون وماكس توردا وغيرهم ، لكن مصدر الهامه كان في الفكر الاسلامي اكثر من فكر الغرب. ومناظراته مع كبار المستشرقين من أمثال رينان وهافوتو تؤكد تلك الحقيقة بما لا يدع للشك سبيلا ، وحسبنا أنه نعى على الفلسفة الغربية اغرافها في الماديات وفي مناقشة له مع الفيلسوف الانجليزي هربرت سبنسر قال قالته المأثورة « هؤلاء الفلاسفة والعلماء الذين اكتشفوا كثيرا مما يفيد في راحة الانسان أعجزهم ان يكتشفوا طبيعة الانسان ... الدين هو الذي كشف الطبيعة الانسانية وعرفها الى أربابها في كل زمان لكنهم يعودون فيجهلونها » ..

وحتى تلك الحقيقة وقف عليها من استيعابه لمقدمة ابن خلدون الذي اعتبر الدين أمرا لاغنى عنه في تحقيق السعادة الفردية والاجتماعية ، كما أفاد من فلسفة الغزالى في اعتبار الدين مسألة مرتبطة بالقلب ، لكنه تجاوزه الى ضرورة كبح جماح العاطفة الدينية باصطناع العقل حتى لو ركب متن الشطط « فمن يسلك طريق الاجتهاد ولم يعول على التقليد في الاعتقاد ولم تجب عصمته فهو معرض المخطأ ، لكن خطأه عند الله واقع موقع القبول حيث كانت غايته من سيره ومقصده من تمحيص نظره أن يصل الى الحق ويدرك مستقر اليقين » ..

لذلك يمكن القول أن محمد عبده كان مفكرا بورجوازيا ناضل ضد

سيادة الاقطاعيين بقدر كونه مصلحا دينيا رام تخليص العقيدة الاسلامية من عقبات الجمود والخرافة في منهج يجمع بين المثالية والواقعية •

وبفضل جهوده خلف مدرسة ، أخلصت لفكره وطورته من بعده رغم اختلاف اتجاهاتها وتعدد تياراتها ، فالكواكبي ورشيد رضا واصلا لجهوده التنويرية في تجديد الفكر الديني رغم انماء فكرهما للافغاني اكثر من ارتباطه بفكر محمد عبده • والشيخ محمد شاكر والشيخ مصطفى عبد الرزاق والشيخ ابراهيم حمروش والشيخ محمود شلتوت وغيرهم كثيرون من مشايخ الازهر الذين ناضلوا لارساء دعائم التنوير ناهجين نهج الامام سالكين على منواله •

الا أن الفكر التقليدي قدر له أن يكبح جماح تيار الاستنارة بتعضيد من السلطة ، ولاقى المجددون أهوالا في النصف الاول من هذا القرن لا تقل بحال عما لاقاه رواد التنوير من عنت واضطهاد وحسبنا في هذا الصدد الاشارة الى المحن التي تعرض لها علي عبد الرزاق ومحمد زيد وطه حسين وخالد محمد خالد وغيرهم على يد عتاة التقليد وأرباب الاقطاع الكهنوتي •

المراجع :

(١) احمد امين : زعماء الاصلاح في العصر الحديث ـ القاهرة ١٩٤٨

(٢) احمد عبد الرحيم مصطفى (دكتور) : افكار جمال الدين الافغاني السياسية المجلة التاريخية المصرية مجلد ٩ ، ١٠

(٣) احمد عبد الرحيم مصطفى : حركة التجديد الاسلامي في العالم العربي الحديث . القاهرة ١٩٧١ .

(٤) امين الخولي : المجددون في الاسلام ج ١ القاهرة ١٩٦٥ .

(٥)
Adams, C: Islam and Modernism in Egypt. London, 1933.

Amin, Osman: Muhammad Abduh, Le Caive, 1944. (٦)

Gibb, H: Modern trends in Islam, Chicago, 1945. (٧)

Gibb and Bcwen: Islamic Society and the West (٨)
Oxford, 1953.

Hourani, A: Arabic thought in the Jiberal Age (٩)
London, 1962.

Lewis, B: The Middle East and the West, London, 1963. (١٠)

الحقيقة التاريخية عند البيروني

(٩٧٣ - ١٠٤٨)

بين المفهوم وتطبيقه

«فقولوا الحق ولو على أنفسكم»

البيروني

الدكتور محمود زايد
أستاذ التاريخ العربي والاسلامي
الجامعة الأمريكية - بيروت

١ ــ البيروني (١) والاصالة والتجديد :

اذا كانت الاصالة هي الاسهام الذي يتسم بالابداع في ميدان من ميادين الثقافة بمعناها الواسع ، أو الاسهام الذي يجمع بين الابداع والمعاصرة فان البيروني صاحب ، اصالة بالمعنى الثاني •

---

(١) ولد ابو الريحان البيروني عام ٩٧٣ م في قرية من قرى خوارزم وذلك في ايام السامانيين . وقد قربه الامير نوح بن منصور الساماني . وعندما ذهب ملك السامانيين وفد البيروني مع ابن سينا على بلاط أمير جرجان قابوس بن وشمكير الملقب بشمس المعالي . وهناك التقى هذان العملاقان بعدد من أعلام الفكر والادب . وفي جرجان الف البيروني كتابه « **الآثار الباقية من القرون الخالية** » واهداه الى شمس المعالي . وعندما سقط هذا الامير عاد البيروني الى مدينة جرجانية عاصمة الدولة الخوارزمية (حوالي ٤٠٠ هـ /١٠١٠م) واشتغل هناك مع ابن سينا وابن مسكويه في مجمع العلوم الذي كان قد اسسه أمير خوارزم مأمون ابن مأمون . وفي عام ٤٠٧ هـ انتقل البيروني الى غزنه ، ورافق السلطان محمود الغزنوي في حملاته على الهند . وقد تمكن من تعلم السنسكريتية ودرس عقائد الهنود واحوالهم . وكانت درة ابحاثه الهندية كتابه المشهور **في تحقيق ما للهند** . وقد قضى بقية حياته على ما يبدو في غزنة .

ولا تكمن الصعوبة في تقرير ما اذا كان فكره أصيلا او غير أصيل ، فقد سلم باصالته وعبقريته عدد من أعلام زمانه وزماننا ، وانما تكمن في تقدير مدى عبقريته واصالته . وليس من سبيل في الوقت الحاضر الى تقديرهما تقديرا كاملا أولا لانه بحث في اكثر من ميدان من ميادين المعرفة شملت التاريخ والاجتماع وعلم الديانات المقارن والرياضيات والفلك والصيدلة .

وثانيا : لان بعض جوانب فكره لا تزال في حاجة الى بحث أو مزيد منه ! وحتى لو انصب رهط من العلماء على دراسته لامتنع ايضا تقدير اصالته تقديرا كاملا وذلك لانه لم يصلنا بعد من تآليفه وترجماته ومصنفاته الا القليل . ويعلق أحد الكتاب المحدثين على فكره الرياضي بقوله :

« ما أشد الدهشة التي يثيرها لدى الرياضيين المحدثين رجل عاش قبل ألف سنة وانتج هذا العمل الأصيل العظيم بالرغم من قلة ما كان في متناوله من مصادر ، وفي الوقت ذاته أسهم اسهاما كبيرا في ميادين مختلفة بدقة وعقلية رياضية تدعوان الى العجب .

لا يزال ما يعرفه العالم قليلا جدا عن البيروني العالم الرياضي العظيم ، وكثير من اسهاماته الاصيلة في الرياضيات لا يزال تحت الغطاء في مؤلفه الفريد القانون المسعودي وفي كتب أخرى كثيرة قد لا ترى النور ! » (٢)

٢ ــ موضوع هذا البحث والغرض منه :

الغرض الرئيسي من كتابة هذا البحث هو القاء ضوء على جانب من

2) M. Kazim: «Al-Biruni and Trigonometry» quoted by Sayed Hasan Barani in his «Al-Biruni and his Magnum Opus-al Qanun al-Mas'udi» with which he intreduces the same work (Hyderabad, 1954) P. XXVI.

فكر البيروني لم يلق بعد ـ على ما أعلم ـ ما يستحقه من اهتمام الباحثين والمفكرين وهو آراؤه في فلسفة التاريخ • ولعل السبب الرئيسي في ذلك ان انجازات هـذا العام الفلكية والرياضيـة طغت على شهرته كمؤرخ، وصرفت النظر بالكلية تقريبا عن تلك الآراء • وقد يكون مما ساعـد على ذلك ان اكثر ماكتبه البيروني في التاريخ ليس في متناولنا • فالبيهقي يشير الى كتاب له بعنوان المسامرة في أخبار خوارزم ، [٣] ، والبيروني ذاتـه يشير الى كتاب له بعنوان في أخبار المبيضة والقرامطة [٤] ، كما يشير في قائمة كتبه التي ذكرها الى عدة كتب ورسائل توحي عناوينها بوفرة مادتها التاريخية مثل في تكميل حكايات عبد الملك الطبيب البستي في مبـدأ العالم وانتهائه في قريب من مئة ورقـة ،ورسالة بعنوان كلام في المستقر والمستودع في ١٠ اوراق ، وترجمة كتاب شامل في الموجودات المحسوسة المعقولة ، وكتاب تنقيح التواريخ ، ورسالة في دلالة اللفظ على المعنى [٥]•

لكن بالرغم من قلة عدد ما وصلنا من كتبه فان آراءه المبثوثة فيهـا عن فلسفة التاريخ كفيلة بان تجعله أول رائد من رواد هذا الميدان !

ولم يخصص البيروني في ابحاثه التي وصلتنا كتابا ولا رسالة في هذا الموضوع كما فعل ابن خلدون في مقدمته ، وانما عرض آراءه في مقدمات كتبه وخاصة في كتابية في تحقيق ما للهند والآثار الباقية وفي ثنايا ابحاثه الاخرى • لكن عادته في التقديم لكتبه تجعلنا نطمع فيالوقوف على مزيد

(٣) البيهقي ، ابو الفضل ، **تاريخ البيهقي** ترجمـة يحي الخشاب وصادق نشأت (مكتبة الانجلو ، القاهرة ، ١٩٥٦) ص ٧٣٤ •

(٤) البيروني ، ابو الريحان : **الآثار الباقية عن القرون الخالية** تشر ادوارد سخاد (ليبزج ، ١٨٧٨) ص ٢١١ .

(٥) رسالة للبيروني في ملحق **المصدر ذاتـه** .

من آرائه فيما يكتشف في المستقبل من ابحاثه المفقودة .

٣ ـ الحقيقة نسبية :

لم يبحث البيروني الحقيقة التاريخية بحثا مفصلا ، وانما تعرض لها باشارات مقتضبة ، غير ان هذه الاشارات تدل على انه أدرك بوضوح أن الحقيقة نسبية ، وان ما يفهم في حين على أنه هو الحقيقة قد يتغير مفهومه فيما بعد . فهو يعلق على سؤال أحد الادباء له عن التواريخ التي تستعملها الأمم بقوله :

« فعلمت ان ذلك صعب المتناول بعيد المأخذ غير منقاد لمن رام اجراءه مجرى الضروريات التي لا تخالج قلب الواقف عليها شبهة فيها » .[٦]

واقبل بتأييد من علو « دولة مولانا الامير السيد الاجل المنصور ولي النعم شمس المعالي أدامه الله » باستفراغ الوسع واستنفاد الجهد ، أو بعبارة أخرى ، بالاجتهاد ، على الابانة عن حقيقة التواريخ ولكن « على حسب ما بلغه علمي ان بسماع وان بعيان أو قياس » . وعبارة « على حسب ما بلغه علمي » لا تدع مجالا للشك بانه أدرك ان معلوماته قد تقصر عن توفير المعطيات (الوقائع) التي تفي بكشف الحقيقة[٧] .

ويقول بعد ذلك بان اسلوبه في كشف الحقيقة « ليس بقريب المأخذ، بل كأنه من بعده وصعوبته يشبه أن يكون غير موصول اليه » [٨].

ولهذا رأى بعد ذلك أن يصلح ما يمكنه اصلاحه وأن يترك سائر ما لا يمكن اصلاحه للمستقبل[٩] .

---

(٦) البيروني : الآثار الباقية : ص ٤
(٧) **المصدر ذاته** : ص ٤
(٨) **المصدر ذاته** : ص ٤ ـ ٥
(٩) **المصدر ذاته**

ويكرر هذه الآراء مرة أخرى في مقدمه القانون المسعودي حتى بالنسبة الى الحقيقة العلمية فيصف من تقدمه بالمجتهدين ثم يقول :

وانما فعلت ما هو واجب على كل انسان ، ان يعلمه في صناعته من تقبل اجتهاد من تقدمه بالمنة ، وتصحيح خلل ان عثر عليه بلا حشمة ، وخاصة فيما يمتنع ادراك صميم الحقيقة فيه من مقادير الحركات ، وتخليد ما يلوح له فيها تذكرة لمن تأخر عنه بالزمان وأتى بعده •

وقرنت بكل عمل في كل باب من علله ، وذكر ما توليت من عمله ما يبعد به التأمل عن تقليدي فيه ويفتح له باب الاستصواب لما أصبت فيه ، أو الاصلاح لما زللت عنه ، أو سهوت في حسابه ، لان البرهان من القضية قائم مقام الروح من الجسد ، وبجملة النوعين يحصل العلم بالاستيقان لاقتران الحجة والتبيان ، كما يقدم بمجموع النفس والبدن شخص الانسان كاملا للعيان [١٠] •

لم ينف البيروني هنا الحقائق المسلم بها التي يثبتها البرهان القاطع كما هو واضح من النص ، ولكنه يعتبر كل حقيقة أخرى لم يقم البرهان عليها بعد بشكل قاطع خاضعة للاجتهاد •

٤ ـ التزام الحقيقة :

اتخذ البيروني من توخي الحقيقة شعارا له التزم به التزاما صارما الى حد يثير الاعجاب • وقد استهل دراسته للهند بطرح هذا الشعار [١١] • فقال « قولوا الحق ولو على انفسكم » وقد التزمه ما وسعه ذلك في اطار

---

(١٠) البيروني : **القانون المسعودي** ج ١ (حيدر اباد ، ١٩٥٤) ص ٤ ـ ٥ .

(١١) البيروني : **في تحقيق ما للهند من مقالة مقبولة في العقل أو مرذولة** (حيدر اباد ، ١٩٥٨) ص ٢

العصر الذي عاش فيه .(١٢)

ويذهب الاستاذ سارطون الى انه كان تقريبا نسيج وحده في العصور الوسيطة في حبه للحق وفي جرأته الفكرية (١٣) .

ويرى البيروني ان المرء ينشد الحقيقة لذاتها لا لغرض آخر يقول :

« وكما ان العدل في الطباع مرضي محبوب لذاته مرغوب في حسنه، كذلك الصدق الا عند من لم يذق حلاوته أو عرفه وتحاماه كالمسؤول من المعروفين بالكذب : هل صدقت قط ؟ وجوابه : لولا اني أخاف أن أصدق لقلت : لا ، فانه العادل عن العدل ، والمؤثر للجور وشهادة الزور ، وخيانة الامانة ، واغتصاب بالاملاك بالاحتيال والسرقة ، وسائر ما به فساد العالم والخليقـة » (١٤) .

ويرى البيروني أن على المرء أن يقول الحقيقة مهما اعترضت طريقه من صعاب ، حتى وان عرضه قولها للموت . واستشهد بالمسيح الذي قال ما معناه : « لا تبالوا بصولـة الملوك في الافصاح بالحق بيـن أيديهم ، فليسوا يملكون منكم غير البدن ، واما النفس ليس لهم عليها يد » (١٥) ،

---

(١٢) قارن بما ورد عند الشحات ، على احمد : **أبو الريحان البيروني ـ حياته ـ مؤلفاته ابحاثه العلمية** (دار المعارف بمصر ، ١٩٦٨) ص ٧٠ حيث يقول : « هذا مما دعا البيروني الى البحث عن وسيلة ينفذ بهـا الى قلب السلطان » . واذا قارنا بين ما جاء في كتاب البيروني **الآثار الباقيـة** الذي الفه بجرجان وبين ما في كتابه في **تحقيق ما للهند** الذي الفه فيمـا بعد في غزنة ، وجدنا انه في اكثر تحفظا في الكتاب الثاني منه في الاول.

(١٣) Sarton, George: **Introduction to the History of** vol. I (Baltimore, 1927) P. 707.

(١٤) البيروني في **تحقيق ما للهند** ، ص ٣

(١٥) البيروني : في **تحقيق ما للهند** ، ص ٣

ويضيف الى هذا بان ما أورده عن المسيح هو « أمر بالتشجع الحقيقي » ويقضي بالاستهانة بالموت • (١٦)

٥ ـ الاخبار وتمحيصها :

يستخدم البيروني اصطلاح الخبر للدلالة لا على الوقائع المروية أو المشاهدة فحسب ، بل وأحيانا على التعميمات والمفهومات التي تبني او تستنتج من الوقائع • يقول في تمييز الخبر عن العيان :

« وليس الخبر كالعيان لان العيان هو ادراك عين الناظر عين المنظور اليه في زمان وجوده وفي مكان حصوله • ولولا لواحق آفات بالخبر لكانت فضيلته تبين على العيان والنظر لقصورهما على الوجود الذي لا يتعدى آنات الزمان ، وتناول الخبر اياها وما قبلها من الازمنة وبعدها من مقتبلها ، حتى يعم الخبر لذلك الموجود والمعلوم معا » (١٧) •

وواضح من النص ان الخبر هنا تنتظم فيه الوقائع الجزئية •

ويجد البيروني صعوبات جمة تعترض طريق تمحيص الاخبار عن تواريخ الامم ، وذلك لانه لا يمكن الاستدلال عليها بالمعقولات والمحسوسات ، وانما بأخبار أصحاب الكتب والمقالات عن الأمم الماضية ، وما تبقى من أحوال هذه الأمم ورسومها • يقول :

وابتدىء فأقول : ان أقرب الاسباب الى ما سئلت عنه (وهو التواريخ التي تستعملها الامم) هو معرفة اخبار الامم السالفة وأنباء القرون الماضية لان اكثرها أحوال عنهم ورسوم باقية من رسومهم ونواميسهم • ولا سبيل الى ذلك من جهة الاستدلال بالمعقولات والقياس بما يشاهد من المحسوسات سوى التقليد لاهل الكتب والملل وأصحاب الآراء والنحل

---

(١٦) **المصدر ذاتـه** .

(١٧) البيروني : في **تحقيق ما للهند** ، ص ١

المستعملين لذلك . وتعيير ما هم فيه أسا يبني عليه ما بعده ، ثم قياس أقاويلهم وآرائهم في اثبات ذلك بعضها ببعض (١٨) .

ومما يزيد في صعوبة تمحيص تلك الاخبار كثرة ما فيها من أباطيل خاصة وان بعض هذه الاباطيل ممكنة الوقوع ولهذا تؤخذ مأخذ الخبر الحق . هذا في حين اننا نشاهد وقائع لو قيل قبل وقوعها انها حدثت في زمن مضى لحكم الناس بامتناع وقوعها .

ومن الصعب كذلك الاحاطة بجميع الاخبار ! فعمر الانسان لا يفي بأخبار أمة واحدة فكيف يكون الحال اذا أريد الوقوف على أخبار جميع الأمم ؟ (١٩) ولهذا يقترح البيروني :

« ان نأخذ الأقرب فالأقرب، والأشهر فالاشهر ، ونحصلها من أربابها ونصلح منها ما يمكننا اصلاحه ، ونترك سائرها على وجهها ليكون ما نعمله من ذلك معينا لطالب الحق ومحب الحكمة على التصرف في غيرها ،ومرشدا الى نيل ما لم يتهيأ لنا » (٢٠) .

لكن بالرغم من هذا كله فالبيروني يقرر أن الوصول الى الحقائق أمر يكاد يكون مستحيلا :

« على أن الأصل الذي أصلته ، والطريق الذي مهدته ، ليس بقريب المأخذ ، بل كأنه من بعده وصعوبته يشبه آن يكون غير موصول اليه» (٢١)

وازاء جسامة مهمة المؤرخ يفترض البيروني فيه صفات أجملها في :

« تنزيه النفس عن العوارض المردئة لاكثر الخلق والأسباب المعمية

---

(١٨) البيروني : **الآثار الباقية** ، ص ٤

(١٩) **المصدر ذاته** : ص ٥

(٢٠) **المصدر ذاته**

(٢١) **المصدر ذاته** ، ص ٤ ــ ٥

لصاحبها عن الحق ، وهي كالعادة المألوفة ، والتعصب ، والتظافر ، واتباع الهوى ، والتغالب بالرئاسة ، واشباه ذلك » (٢٢)

ومهما يكن من أمر فان البيروني يؤكد ضرورة ورود الاخبار في مظانها لتبين وجه الحق فيها . ولهذا دفعته دراسته للهنود واحوالهم الى تعلم اللغة السنسكريتيةللوقوف على ما في كتبهم ذاتها من معلومات. ويبدو أنه كان أول عالم مسلم تعلم تلك اللغة في سبيل البحث العلمي. وأقام لذلك في الهند والتقى بعلمائهم وناقشهم في شتى جوانب حضارتهم . يقول في هذا :

« اني كنت اقف من منجميهم مقام التلميذ من الاستاذ لعجمتي فيها بينهم وقصوري مما هم فيه من مواصفاتهم ، فلما اهتديت قليلا لها أخذت أوقفهم على العلل وأشير الى شيء من البراهين وألوح لهم الطرق الحقيقية فيالحسابات ، فانثالوا علي متعجبين ، وعلى الاستفادة متهافتين يسألون عمن شاهدته من الهند حتى أخذت عنه ، وانا أريهم مقدارهم وأترفع عن جنبتهم مستنكفا ، فكادوا ينسبونني الى السحر . وقد أعيتني المداخل فيه مع حرصي الذي تفردت به في ايامي وبذلي الممكن غير شحيح عليه في جمع كتبهم من المظان واستحضار من يهتدي لها من المكامن ... » (٢٣)

ولم يدخر البيروني جهدا في الحصول على المراجع مهما طال زمن بحثه عنها . ومن ذلك انه قضى اكثر من أربعين سنة وهو يفتش عن نسخة من كتاب سفر الاسرار الباني : يقول البيروني :

« وبقيت في تاريخ الشوق نيفا واربعين سنة الى ان قصدني بخوارزم بجند من همذان متوسل بكتب وجدها من جهة فضل بن سهلان

---

(٢٢) **المصدر ذاته** ص ٤

(٢٣) البيروني : في **تحقيق ما للهند** ، ص ١٧ ــ ١٨ .

وعرفني بحبها •••• وفي جملتها طلبتي سفر الاسرار فغشيني له من الفرح ما يغشى الظمآن من رؤية الشراب • » (٢٤)

٦ ـ آفات الخبر :

يبين البيروني ان الأخبار يلحقها الصدق كما يلحقها الكذب بسبب المخبرين • ويذكر خمسة انواع من المخبرين كذبا :

١ ـ من يخبر عن أمر كذب يقصد فيه مصلحته ، فيعظم جنسه لانتمائه اليه أو يزري بغير جنسه فيحصل على النتيجة ذاتها » ومعلوم ان كلا هذين من دواعي الشهوة والغضب المذمومين •

٢ ـ هناك من يخبر كذبا عن أناس يحبهم لأمر يشكرهم عليه ، او يبغضهم لأمر ينكره منهم •

ويرى البيروني ان المخبر الثاني من نوع الاول « لان الباعث على فعله من دواعي المحبة والغلبة » •

٣ ـ مخبر يريد بدناءة طبعه التقرب الى خير أو يريد اتقاء شر •

٤ ـ مخبر لا يستطيع الا ان يجانب الحقيقة كأنه مضطر الى ذلك، ومرد هذا الى « دواعي الشرارة وخبث مخابيء الطبيعة » •

٥ ـ مخبر يجانب الحقيقة بسبب الجهل « وهو المقلد للمخبرين وان كثروا جملة او تواتروا فرقة بعد فرقة » • وفي هذه الحالة يكون هو وهم (المقلد والمخبرون) وسائط بين أول من تعمد تحريف الخبر وبين سامعه (٢٥) •

ولعل اسوأ هؤلاء في نظر البيروني هم الذين يتعصبون لذاتهم ويتحاملون على غيرهم ، يقول :

---

(٢٤) البيروني الآثار الباقية ، ص ٣٩ من المقدمة

(٢٥) البيروني : **في تحقيق ما للهند** ، ص ٢ •

« فان الاعادي أبدا مولعون بالطعن في الانساب والثلب في الأعراض والوقعة في الأفاعيل والآثار • كما أن الاولياء والمتشيعين مولعون بتحسين القبيح وسد الخلل واظهار الجميل والنسبة الى المحاسن كما وصفهم من قال :

وعين الرضا عن كل عين كليلة ولكن عين السخط تبدي المساويا » (٢٦)

ويقول في موضع آخر :

« وانما ذكرت هذا لما عليه الناس من التعصب لمن أحبوه والطعن على من أبغضوه حتى ربما يكون افراطهم في كلا المعتقدين سببا لافتضاح دعاويهم » (٢٧) ويأخذ البيروني على البراهمة تعصبهم لأنفسهم الأمر الذي تسبب في جهلهم وحمقهم •

« وذلك انهم يعتقدون في الارض أنها أرضهم وفي الناس أنهم جنسهم ، وفي الملوك أنهم رؤساؤهم ، وفي الدين أنه نحلتهم ، وفي العلم أنه ما معهم ، فيترفعون ويتبظرمون ويعجبون بأنفسهم فيجهلون ، وفي طباعهم الضن بما يعرفونه ، والافراط في الصيانة • له عن غير أهله منهم، فكيف عن غيرهم • على أنهم لا يظنون أن في الارض غير بلدانهم ، وفي الناس غير سكانها وأن للخلق غيرهم علما ، حتى انهم ان حدثوا بعلم أو عالم في خراسان وفارس استجهلوا المخبر ، ولم يصدقوه للآفة المذكورة ، ولو أنهم سافروا وخالطوا غيرهم لرجعوا عن رأيهم » (٢٨)•

وفي موضع آخر يدين البيروني صاحب كتاب « مأخذ اليواقيت » لتعصبه للهند على الروم • فقد زعم ان الروم لجأوا الى سني الهند

---

(٢٦) البيروني : **الآثار الباقية** ، ص ٣٧

(٢٧) **المصدر ذاته** ، ص ٤ .

(٢٨) البيروني : في **تحقيق ما للهند** ، ص ١٧ ــ ١٨

« فكبسوا في سنتهم الزيادة بين السنتين ، فعاد دخول الشمس الى برج الحمل أول نيسان » (٢٩) . ويستبعد البيروني أن يفعل الروم ذلك لانهم «من بعد الغورو التمهر بالهندسيات وعلم الهيئـة والتمسك بالبراهين » بحيث لا يلجأون الى غيرهم (٣٠) .

ويشير البيروني الى التحامل على ماني ويذكر انه لم يجد في كتبـه ما يثبت اتهامه بأنه حلل « قضاء الشهوة في الغلمان » ويضيف الى ذلـك أن ما وجده في سيرته يدل على خلاف ذلك . (٣١)

وبالرغم من ان البيروني كان من اشد انصار العربية (٣٢) والعروبة ، فانه حذر من الغلو في التعصب لهم الى حد ينسب معه اليهم ما ليس لهم. ويأخذ على ابن قتيبة أنه يهول ويطول في كتبه وخاصة في كتابه (تفضيل العرب على العجم) وينتقده لاعتباره العرب أعلم الأمم بالكواكب ومطالعها ومساقطها ، ويقول :

« ولا أدري أجهل ام تجاهل ما عليه الزارعون والأكرة في كل موضع وبقعة من علم ابتداء الاعمال وغيرها ومعرفة الأوقات على مثل ذلك. فان من كان من السماء سقفه ، ولم يكنه غيرها ودام عليـه طلوع الكواكب وغروبها على نظام واحد علق مبادىء اسبابه ومعرفة الاوقات بها » (٣٣). ويأخذ على ابن قتيبة تحامله في كتابه المذكور على الفرس فيقول :

---

(٢٩) البيروني : **الآثار الباقية** ، ص ٥١

(٣٠) **المصدر ذاته**

(٣١) **المصدر ذاته**

(٣٢) راجع مثلا ما جاء في البيروني : **كتاب الصيدنة** (كراتشي، ١٩٧٣) ص ١٤ حيث يقول : « ديننا والدولة عربيان توأمان ... والهجو بالعربية احب الى من المدح بالفارسية » .

(٣٣) البيروني : **الآثار الباقية** ، ص ٢٣٨ ــ ٢٣٩ .

« وكلامه في هذا الكتاب المذكور يدل على احن وتراث بينه وبين الفرس اذ لم يرض بتفضيل العرب عليهم حتى جعلهم أرذل الأمم وأخسها وأذلها ، ووصفهم بالكفر ومعاداة الاسلام بأكثر مما وصف الله به الأعراب في سورة التوبة . او نسب اليهم من القبائح ما لو تفكر قليلا وتذكر اوائل من فضل عليهم لكذب نفسه في أكثر ما قاله في الفريقين تفرطا وتعديا » (٣٤) . ويصف البيروني الخوارزميين بأنهم أعرف من العرب بالبروج (٣٥) ولكنه مع هذا ينسب الى العرب فضل تخليد ما عرفوه حقا كان أو باطلا ، حمدا كان أو ذما بالأشعار والأرجوززة والأسجاع ، وأنهم كانوا يتوارثونها فتبقى عندهم أو بعدهم . (٣٦)

٧ ـ التعصب والتحامل في معالجة العقائد الدينية :

يفترض البيروني فيمن يعرض للعقائد الدينية ألا يقصد الى الحجاج ومنابذة أصحاب العقائد ، بل الى اظهارها . ويقدم لدراسته للهند في كتابه في تحقيق ما للهند بقوله :

« وليس الكتاب كتاب حجاج وجدل حتى استعمل فيه بايراد الخصوم ومناقضة الزائغ منهم عن الحق ، وانما هو كتاب حكاية فأورد كلام الهند على وجهه وأضيف اليه ما لليونانيين من مثله لتعريف المقاربة بينهم ... ولا أذكر مع كلامهم كلام غيرهم الا ان يكون للصوفية او لأحد أصناف النصارى لتقارب الامر بين جميعهم في الحلول والاتحاد » (٣٧) .

ويرى البيروني انه قل أن تخلو نظرة أحد في الامور الدينية الى مخالفيه وخصومه من الزراية بهم .وهذا ، كما يقول ، هو أوضح ما يكون

---

(٣٤) **المصدر ذاته**

(٣٥) **المصدر ذاته**

(٣٦) **المصدر ذاته**

(٣٧) البيروني : **في تحقيق ما للهند** ، ص ٥

في المذاهب التي يجمعها دين واحد ونحلة واحـدة ، وانه اكثر اختفاء في الملل المتفرقة ، وخاصة مالا يتشارك منها في أصل وفرع » وذلك لبعدهـا وخفاء السبيل الى تعرفها » .

ويلاحظ البيروني ان الهوى يغلب على معظم ما كان معروفا من كتب في المقالات وأبحاث في الآراء والديانات . ويدين اولئك الذين يغترفون من هذه الكتب دون ان يعرفوا حقيقة الحال فيها . وكل من هؤلاء يغترف « ما لا يفيده من أهلها والعالم بأحوالها غير الخجل » (٣٨) بل يجد البيروني انه حتى اولئك الذين عرفوا حقيقة الحال توخوا ان يجعلوها من الاسماء والأساطير ليس القصد من الاستماع اليها تصديقها ، وانما الالتذاذ بها .

ويضرب البيروني مثلا على زيف الأخبار عن العقائد فيذكر ان أكثـر ما هو مسطور في الكتب عن أديان الهند منحول وبعضها « منقول وملقوط مخلوط غير مهذب» ويضيف الى هذا انه ما وجد من أصحاب كتب المقالات أحدا قصـد الخبر المجـرد من غير ميل ولا مداهنـة غير أبي العباس الايرانشهري الذي أحسن في الأخبار عن اليهود والنصارى وما في التوراة والانجيل . ولكنه بالغ في ذكر المانوية ، وضل سهمه عن الهدف عنـدما بلغ أديان الهند (٣٩) .

وانتقد البيروني ابن سنكلا النصراني الذي الف كتابا قصد به نقض نحلة الصائبة الحرانية « فحشاه بالكذب والأباطيل » ومنها انهم يقولون لا بان ابراهيم عليه السلام انما خرج عليهم لانه ظهر في قلفته برص فاصبح لذلك بخسا تجوز مخالطته ، فلما اختتن اعتبـروا ان عيبـه صار عيبين . ويقول البيروني عنهم :

« ونحن لا نعلم منهم الا انهم يوحدون الله وينزعونه عن القبـائح

---

(٣٨) **المصدر ذاته** : ص ٤
(٣٩) **المصدر ذاته** : ص ٤ ـ ٥

ويصفونه بالسلب لا الايجاب كقولهم : لا يحد ، ولا يرى ، ولا يظلم ، ولا يجور • ويسمونه بالاسماء الحسنى هجازا • اذ ليس عندهم صفة بالحقيقة • وينسبون التدبير الى الفلك واجرامه ••• ويصلون على طهر ووضوء ، ويغتسلون من الجنابة ••• واكثر أحكامهم في المناكح والحدود مثل أحكام المسلمين (٤٠) •

٨ ـ **الاصول الاجتماعية للنظم والعادات والمعتقدات :**

وكان من ثمرات التزام البيروني بالموضوعية واقباله على البحث للوقوف ما أمكن على الحقيقة ، أن كشف الأصول الاجتماعية لعدد من النظم والمعتقدات والعادات والمواقف من معتقدات الآخرين •

لاحظ أن المرء في العادة يستغرب ما ليس متعوداً عليه ، وما هو خارج عن العادات الطبيعية ، يقول :

« •••• فمعلوم أن غرابة الشيء تكون لعزة وجوده وقلة الاعتياد في مشاهدته ، وأن ذلك اذا افرط صار نادرة وآبدة ثم تشتهر الأعجوبة مما هو خارج عن العادات الطبيعية فيكون مستحيل الكون قبل المشاهدة » (٤١) • ثم يبين أن في عادات أهل الهند ما كان يبدو أعجوبة لدى المسلمين ، لانها قلب لما هو مألوف لديهم • ولكنه يضيف بأن أهل الهند من غير المسلمين والمسلمين متساوون في نظر كل منهما الى ما عند الآخر بأنه أعجوبة •

وقد وجد فرقا بين ما يعتقده الخاصة وما يعتقده العامة فقال :

« انما اختلف اعتقاد الخاص والعام في كل أمة بسبب أن طباع الخاصة ينازع المعقول ويقصد التحقيق في الأصول • وطباع العامة يقف

---

(٤٠) البيروني : **الآثار الباقية** ، ص ٢٠٥ ــ ٢٠٦

(٤١) البيروني : **في تحقيق ما للهند** ، ص ١٤٤

عند المحسوس ، ويقتنع بالفروع ، ولا يروم التدقيق وخاصة فيما افتنت فيه الآراء ولم تتفق عليه الاهواء » (٤٢)

ويشير البيروني في مكان آخر الى ان العامة يعزفون عن المعقول (المجرد) لأنه يتخذ شكل المثال • ويرى في نزعتهم هذه السبب الذي دفع كثيرا من أهل الملل الى استخدام الصور في الكتب والى اتخاذ الأصنام•

« السبب الباعث على ايجاد الأصنام بأسامي الاشخاص المعظمة من الأنبياء والعلماء والملائكة مذكرة أمرهم عند الغيبة والموت ، مبقية آثار تعظيمهم في القلوب لدى الفوت ، الى أن طال العهد بعامليها ودارت القرون والأحقاب عليها ، ونسيت اسبابها ودواعيها وصارت رسما وسنة مستعملة• ثم داخلهم أصحاب النواميس من بابها • اذ كان ذلك أشد انطباعا فيهم ، فأوجبوه عليهم » • (٤٣)

ويرى ان الحائل الأعظم بين الهندوكيين والاسلام هو انقسامهم الى الطبقات الاجتماعية الأربع وهي البراهمة وكشترو بيش وشودر ، ومنافاة المساواة الاجتماعية في الاسلام لهذا التمييز الطبقي (٤٤) •

ويدحض البيروني الرأي القائل بأن تحريم قتل البقر في الهند كان سببه الرغبة في التسهيل على الناس لضعف الناس عن القيام بالواجبات بتقديم القرابين ومنها البقر • ويرى ان تحريمه لم يكن بتخفيف ولا رخصة للتسهيل على الناس ، وانما كان تشديدا وتضييقا عليهم • ويضيف بأنه قد يكون ناشئا من أن البقرة تخدم في الأسفار بنقل الأعمال والأثقال في الفلاحة وتؤخذ منها الألبان ، ولهذا حرم قتلها • ويشبه هذا بما فعله

---

(٤٢) **المصدر ذاته** : ص ٢٠ . راجع ايضا ص ٢٧٤ حيث يعرض ما يعتقده العامة والخاصة في النوم واليقظة.

(٤٣) **المصدر ذاته** : ص ٨٤ ـ ٨٥

(٤٤) **المصدر ذاته** : ص ٤٦٨

الحجاج بن يوسف الثقفي عندما شكا الناس اليه خراب السواد • (٤٥)

وأورد البيروني تفسير الهنود لاحراق الميت فذكر أنهم يعتقدون بأن في الانسان نقطة (روحا) يكون بها الانسان انسانا • وانها لدى حرق الجسم وتبدد أمشاجه تصعد اما بشعاع الشمس أو بلهيب النار • وهي تصعد بالنار في خط مستقيم لانها ترتفع الى أعلى • كما يذكر أن الهنود يستنظفون قاتل طالبة الموت لقاء أجرة بتغريقها أو بحرقها • (٤٦)

وفسر البيروني طائفة من عادات الهند « المستبدعة» : فهم لا يحلقون شيئا من الشعر لشدة الحر ، ويطولون الأظافر « فخرا بالتعطل فان المهن لا تتأتى معها ، واستراوحا اليها في حك الرأس وفكي الشعر » •

ويفضلون أصغر الابنين وخاصة في مشارق أرضهم (الهند) لزعمهم ان أكبرهما جاء بسبب شهوة غالبة ، وأن الاصغر جاء بسبب قصد وفكرة وتؤدة • (٤٧)

٦ ـ **البيروني والتزام الموضوعية :**

ان الموضوعية التامة في كتابة التاريخ أمر عسير التحقيق • ويكاد يكون من المسلم به الآن انه مهما تجرد المؤرخ من عواطفه وميوله الشخصية ومهما كان مدركا لحقيقة هذه الميول والعواطف فانه لا بد متأثر بها • وقد يقف هذا التأثر الى حد لا تختل معه أصول صناعته ، وقد يتجاوز به الى الحد الذي يخرجه عن الاتزان • يقول الاستاذ قسطنطين زريق :

« ونحن نخطىء اذا اعتقدنا ان الماضي شيء مجرد وخارج عن الانسان مستقل عن نزعاته وميوله وآماله

---

(٤٥) **المصدر ذاته :** ص ٧٦ ـ ٧٧

(٤٦) **المصدر ذاته :** ص ٤٧٧

(٤٧) **المصدر ذاته :** ص ١٤٤ ـ ١٤٧

الحاضرة . وهذا هو الخطأ الذي ينطوي عليه موقف المدرسة الموضوعية التي ركزت ايمانها بـ « الصناعة التاريخية » وذهبت بها الى أبعد حدودها . فليس من الممكن ـ مهما حاول رانكه وسواه ـ أن ينعزل الانسان عن حاضره انعزالا تاما » (٤٨) .

فالى اي حد من التجرد بلغ البيروني في سعيه وراء الحقائق التاريخية؟ ان الاجابة اجابة كاملة على هذا السؤال أمر غير ممكن بالنظر الى أن الكتاب الذي يبحث البيروني فيه تواريخ الأمم وصلنا ناقصا . ومن سوء الحظ ان الساقط منه يبحث في موضوعات ليس من السهل على مفكر مسلم أن يمر بها دون تعليق مثل شطر من أخبار مسيلمة الكذاب . فهو يبدأ مباشرة بكتابه الى رسول الله صلى الله عليه وسلم (٤٩) . وقد أشرنا من قبل الى أن كتابه عن المبيضة والقرامطة وغيره من الأبحاث التاريخية لا يزال مفقودا .

لكن لا يسع من يتأمل في أدبه التاريخي وغير التاريخي المنشور الا وان يحكم بأنه من ناحية عامة بلغ غاية من يمكن لمؤرخ ان يبلغه من التجرد، وأنه في اطار عصره كان غاية في التجرد . وفي اجزاء كثيرة من ابحاثه يصعب على القارىء ان يكتشف أنه مسلم .

واذا كان هناك هوى واضح في تعليقاته فهو ميله الى الشيعة . فعندما يذكر يوم عاشوراء يقول :

---

(٤٨) قسطنطين زريق : **نحن والتاريخ**
(دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٥٩) .

(٤٩) البيروني : **الآثار الباقية** ، ص ٢٠٩
وقد وجد ادوارد سخا وفضلا ناقصا منه وهو عن اوروواستر.
C. E. Sachb (tr.) The chronologv of Nations (London 1979) P. XIII .

« وهو يوم مشهور الفضل ... وكانوا (أي الشيعة) يعظمون هذا اليوم الى ان اتفق فيه قتل الحسين بن علي بن ابي طالب رضي الله عنهم ، وفعل به وبهم ما لم يفعل في جميع الأمم بأشرار الخلق من القتل وبالعطش والسيف والاحراق وصلب الرؤوس ، واجراء الخيول على الاجساد، فتشاءموا به . فأما بنو أمية ، فقد لبسوا فيه ما تجدد وتزينوا واكتحلوا وعيدوا وأقاموا الولائم والضيافات وطعموا الحلاوات والطيبات وجرى الرسم في العافة على ذلك أيام ملكهم وبقي فيهم بعد زواله عنهم . » (٥٠).

ويقول بانه عندما أدخل رأس الحسين « عليه السلام » مدينه دمشق وضعه يزيد بن معاويه بين يديه ونقر ثناياه بقضيب كان في يده وهو يقول:

« لست من خندق ان لم آتتقم من بني أحمد ما كان فعل
ليت أشياخي ببدر شهدوا جزع الخزرج من وقع الأسل
فأهلوا واستهلوا فرحا ثم قالوا يا يزيد لا تسل
قد قتلنا القرن من أشياخهم وعدلناه ببدر فاعتدل » (٥١)

على انه يبدو أكثر اعتدالا عندما يذكر مقتل الامام زيد بن علي فيقول :

« وقد قتل الامام زيد بن علي وصلب على شاطىء الفرات ، ثم أحرق وذر رماده في الماء » (٥٢) .

ويستنزل البيروني اللعنة على « الملعون » عبد الرحمن بن ملجم

---

(٥٠) المصدر ذاته : في **الآثار الباقية** ، ص ٣٢٩

(٥١) **المصدر ذاته** : ص ٣٣١

(٥٢) **المصدر ذاته**

المرادي قاتل علي بن ابي طالب . (٥٣)

ويبدو تحامله علــى الامويين من بعض ما ذكرو من تعليقه علــى موقعة الحرة . يقول :

«... وقعة الحرة ، وهي التي قتل فيها بنو أمية أهل المدينة وانتهبت اموالهم وهنكت ستور المهاجرين والأنصار، وفضحت نساؤهم ، فلعن الله من لعنه رسول الله صلى الله عليه وآله من المحدثين في المدينة وجعلنا غير راضين بالفساد في ارض الله ....» (٥٤)

وكذلك فان البيروني يستنزل اللعنة على المتنبئين (٥٥) ويصب جام غضبه على أصحاب ما في كابــن المقفع وعبد الكريم ابن ابي العوجـاء « وامثالهم » يقول عنهم :

« فشككوا ضعاف الغرائز في الواحد الأزل من جهة التعديل والتجوير وأمالوهم الى التثنية ، وزينوا عنــدهم سيرة ماني حتى اعتصموا بحبله ، وهو رجل غير مقتصــر بجهالاته في مذهبه دون الكلام في هيئة العالم بما يبين من تمويهاته » (٥٦) .

هذا مع انه دافع عن ماني في اكثر من موضع كما سبق وذكرنا .

على اننا لا يمكن ان نوافق الدكتور سخاو فيما ذهب اليه من ان كتاب الآثار الباقية الذي ترجمه الى الانكليزية ينم عن كراهية للعرب ، ويأخذ جانب الفرس يقول :

---

(٥٣) **المصدر ذاته :** ص ٣٣٢

(٥٤) **المصدر ذاته :** ص ٣٣٥

(٥٥)

(٥٦) البيروني : في **تحقيق ما للهند ،** ص ٢٢٠

« انه ينم عن نفور شديد من العرب الذين حطموا مجد الساسانيين ، وميل واضح لكل ما هو فارس أو ايراني الجنسية . لم يكن السنة قد صاروا بعد من القوة بحيث يهددون بالخطر حياة رجل مسلم أو غير مسلم يدرس الديانات الاخرى ويصرح علنا بانه يميل اليها » (٥٧) .

وليس لما ذهب اليه سخاو في الشطر الاول من هذا الاقتباس وفي الشطر الثاني منه سند قوي من التاريخ . ومن يتأمل تعليقه على اللغة العربية والعروبة يستبعد مثل تلك التهمة . يقول عن العربية :

« ديننا والدولة عربيان وتوأمان ، ترفرف على احدهما القوة الالهية ، وعلى الآخر اليد السماوية . وكم احتشد طوائف من التوابع وخاصة منهم الجيل والديلم في لباس الدولة جلابيب العجمة ، فلم ينفق لهم في المراد سوق ...

والى لسان العرب فقلت العلوم من اقطار العالم فازدانت وحلت في الأفئدة وسرت محاسن اللغة منها في الشرايين والأوردة ، وان كانت كل أمة تستحلي لغتها التي ألفتها واعتادتها ، واستعملتها في مآربها مع ألافها وأشكالها . وأقيس هذا بنفسي وهي مطبوعة على لغة لو خلد بها علم لاستغرب استغراب البعير على الميزاب والزرافة في العراب ...

« والهجو بالعربية أحب الي من المدح بالفارسية . وسيعرف مصداق قولي من تأمل في كتاب علم قد نقل الى الفارسي كيف ذهب رونقه ، وكسف باله ، واسود وجهه ، وزل الانتفاع به . اذ لا تصلح هذه اللغة للاخبار الكسروية والأسمار الليلية » . (٥٨)

---

(٥٧) C.E. Saehab : Op. cit ., P. XIII .

(٥٨) البيروني : **كتاب الصيدنة** ، ص ١٢ .

وتكشف ابحاث البيروني عن ثقافة عربية رفيعة ، وكثيرا ما يستشهد بالاشعار والامثال العربية القديمة وأقوال العرب المأثورة ، وألف كتابا في أشعار أبي تمام ذكره في قائمة كتبه التي أشرنا اليها في بداية هذا المقال وعنوانه :

قافية الألف من الاتمام في شعر أبي تمام ، (٥٩) ويقول ياقوت :

« وانما ذكرته ههنا لان الرجل كان اديبا أريبا لغويا ، له تصانيف في ذلك رأيت انا منها : كتاب شرح شعر ابي تمام رأيته بخطه لم يتمه » (٦٠)

ويضيف ياقوت بانه كان يقول شعرا « ان لم يكن في الطبقة العليا فانه من مثله حسن » وأورد له قصيدة يمدح فيها أبا الفتح البستي في كتاب سر السرور جاء فيها :

مضى اكثر الأيام في ظل نعمة … على رتب فيها علوت كراسيا
فآل عراق قد غدوني بدرهم … ومنصور منهم قد تولى غراسيا

* * *

ولما مضوا واعتصنت منهم عصابة … دعوا بالتناسي فاغتنمت التناسيا
وخلفت في غرنين لحما كمضغة … على وضم للطير للعلم ناسيا
فأبدلت أقواما وليسوا كمثلهم … معاذ الهي أن يكونوا سواسيا(٦١)

---

(٥٩) صلاح الدين المنجد : « البيروني واللغة العربية » بحث قدمه للمؤتمر العالمي المنعقد في كراتشي ٢٦ نوفمبر ــ ١٢ ديسمبر ١٩٧٣ للاحتفال بالعيد الالفي للبيروني ، ص ٨ .

(٦٠) ياقوت الحموي : **معجم الادباء** ، ج ١٧ (القاهرة ، ١٩٣٦) ص ١٨٥ .

(٦١) **المصدر ذاته** ص ١٨٧ .

ولـــه ايضـــا :

ومن حام حول المجد غير مجاهد ثوى طاعما للمكرمات وكاسيــا
وبات قرير العيــن في ظل راحة ولكنه عن حلة المجد عاريا (٦٢)

لكن كيف توصل سخاو الى ذلك الرأي ؟ قــد يكون استنتجه من مما أوردناه فيما سبق من مناقشته لمعرفة العرب بالبروج وما ذهب اليه من ان الخوارزميين أعلم من العرب بهذا الشأن • ومن هذا القبيل ايضا ما ذكره البيروني عن عرب الجاهلية من أنهم :

« أميون لا يكتبون ولا يحسبون ، وانما يعولون على العدد والعيان اذ لا يعرفون غير الرؤية ، ولا يجدون المنازل بغير الكواكب التي فيها من الثوابت » • (٦٣)

وفي مكان آخر يقول البيروني معلقا على عادات الهند :

« ولست أفرد الهند بالتوبيخ على الجاهلية فقد كان العرب في مثلها يرتكبون العظائم والفضائح من نكاح الحيض والحبالى ، واجتماع النفر على اتيان امرأة واحدة في الطهر الواحد ، وادعاء الادعياء ، واولاد الضياف ، ووأد الابنة، دع ما في عباداتهم من المكاء والتصدية ، وفي طعامهم مـــن القذر والميتة ، وقد فسخها الاسلام كما فسخ اكثر ما في أرض الهند التي أسلم أهلها والحمد لله •» (٦٤)

ولكن ما ذهب اليه البيروني في وصفه لعرب الجاهلية لا يقيم الدليل على كرهه للعرب • فلم يعد البيروني هذه الاشارات فيما عثرنا عليــه •

---

(٦٢) المصدر ذاته ص ١٨٩ .
(٦٣) البيروني : **في تحقيق ما للهند** ، ص ٤١٢
(٦٤) **المصدر ذاته** ، ص ١٤٨ .

وهي لا تزن شيئا مقابل امتداحه للعرب والعروبة في الاشارات السابقة وتحمسه اللغة العربية وتفضيلها على الفارسية بالرغم من أنه فارسي•

١٠ ــ بين البيروني وابن خلدون :

هناك اكثر من وجه شبه بين مؤهلات العملاقين التي مكنتهما من التأمل في التاريخ واختلاف عوائد الأمم وأحوالها • فكلاهما كان مؤرخا وفيلسوفا في التاريخ ، وبحاثة في علم الاجتماع والاقتصاد والجغرافيا• ويتميز البيروني بكونه اكثر توسعا في الديانات وعالما بالفلك والرياضيات والطبيعيات • ويفوق ابن خلدون البيروني بمعارفه التاريخية الواسعة التي مكنته من تأليف موسوعته الضخمة العبر • وبينما خصص ابن خلدون المقدمة لعرض منهجه التاريخي وفلسفته التاريخية ، فان البيروني على ما يظهر مما وصلنا من تآليفه ، اكتفى بعرض آرائه الموجزة في مقدمات كتبه وفي ثنايا ابحاثه •

ومن أوجه الشبه بين آراء هذين العملاقين المصطلحات المشتركة التي يستخدمانها في عرض آرائهما ومنها : الأحوال ، والسنن ، والنظر ، والتحقيق ، والقياس ، والتعليل ، والتقليد ، والأسس (الأساس أو القاعدة) والخبر ، والأصول ، والمبتدع ، والممكن ، والممتنع ، والمستحيل والتشيع ، والهوى ، والانتقاد ، والوهم (والتوهم) •

على ان ابن خلدون أغنى في المصطلح وأوسع أفقا في تصوره التاريخ وأكثر تحديدا من البيروني • فمصطلحه يشمل فيما يشمله التمحيص ، والمفهوم ، والمطابقة (بين الأخبار والأحوال والوقائع من جهة ، وبين الحقيقة من جهة أخرى) والتوافق (بين الحقيقة من جهة وبين المفهوم أو الاستنتاج) ، والذهول عن المقاصد ، والعمران ، والقواعد (الأصول عند البيروني) والاصطلاح ، والغلط الخفي •

ويتفق كلا المؤرخين أن التواريخ تشتمل على كثير من الأباطيل وأنه

لتنقيتها من الشوائب لا بد من تمييز ما يصيب الأخبار من تحريف وتشويه. فخصص كلاهما مكانا لمناقشة الموضوع نجدها في « اوهام المؤرخين » عند ابن خلدون وفي « آفات الأخبار » عند البيروني . كلاهما يبحث في كذب الخبر ومجانبته للصدق ، ويدين التشيع للآراء والمذاهب ، والتقليد والمحاكاة ، وتوهم الصدق ، وحب الثناء والطمع في الدنيا . على أن ابن خلدون يضيف الى ذلك الجهل بطبائع العمران والتبدل في أحوال الأمم عندما تنتقل من طور الى طور ، وهي النقطة التي انطلق منها ابن خلدون الى نشأة الدول والعصبية وانتقال الدولة من حال الى حال . كما يضيف ابن خلدون (الذهول عن المقاصد وهو الجهل بما يقصده المؤرخون أو المخبرون بأخبارهم ، كما يتوسع في التقليد فيشير الى الثقة بالناقلين .

وكان ابن خلدون اكثر توسعا وأعمق نظرة في بحثه عن طبيعة الحقيقة . وأتى في هذا الميدان بما لم يأت من قبله ولا من بعده الا بعد قرون من الزمن . لكنه بيمما يوحي في مقدمته بان الحقيقة تخضع لما يجد من الاخبار والظروف ، وخاصة في ابحاثه الأصيلة عن تأثير البيئة في أحوال الناس وطباعهم ، فانه في أكثر من موضع يميل الى الجزم وذلك لأنه يرفض كل ما لا يوافق « القواعد والأصول » التي يستخلصها من دراسته لنشوء الأمم وأطوارها وتغير عوائدها ورسومها في كل طور . يقول :

« حينئذ يعرض خبر المنقول على ما عنده من القواعد والأصول ، فان وافقها وجرى على مقتضاها كان صحيحا ، والأزيفة واستغنى عنه » .

لكن البيروني الذي يقول بصراحة ، كما مر معنا ، بنسبية الحقيقة التاريخية ، فانه يميل الى ابقاء الباب مفتوحا لظهور أخبار أخرى ، لأن هناك أخبارا لا يمكن التسليم بصحتها قبل وقوعها ، ولأن هناك اخبارا

باطلة تصدق لامكان وقوعها ما لم يقم شاهد على بطلانها !

اما بالنسبة الى النظرة الشمولية للتاريخ فان البيروني لا يحاول فيما وصلنا من ابحاثه كابن خلدون دراسة نشوء الدول وأطوارها والوقوف على المتغير والثابت في أحوال الأمم والتأمل في معنى التاريخ. وعليه فان فلسفة التاريخ عند ابن خلدون أكثر اكتمالا وأقرب الى المفهوم الحديث لهذا الموضوع .

١١ ـ الخلاصة :

اصالة البيروني أمر مسلم به . فقد أسهم في عدة ميادين أدبية وفكرية وعلمية اسهاما يتصف بالابداع ولا تبلى جدته . ومن الصعب الآن تقدير اصالته حق قدرها وذلك لأن أكثر ما كتبه لا يزال مفقودا .

والغرض من هذا البحث هو القاء ضوء على جانب من فكر البيروني لم يلق بعد ـ على ما أعلم ـ ما يستحقه من اهتمام الباحثين ، وهو آراؤه في فلسفة التاريخ التي تجعله أول رائد من رواد هذا الميدان .

والحقيقة التاريخية عند البيروني نسبية ، وعليه فانها تظل محل أجتهاد . وعلى المؤرخ ان يصلح منه اما يمكن اصلاحه ، وان يترك الباقي للمستقبل .

وكان شعار البيروني هو « قولوا الحق ولو على أنفسكم » . وقد التزم بهذا الشعار التزاما يدعو الى الاعجاب ، وأكد ان الحقيقة تطلب لذاتها .

وللوصول الى الحقيقة التاريخية بحث البيروني في الأخبار وطبيعتها وسبل تمحيصها . فأكثرها فاسدة بسبب كثرة ما فيها من الأباطيل ، وبسبب تشيع المخبرين ، وخاصة فيما يخص العقائد الدينية .

واشترط البيروني في تمحيص الأخبار ورودها في مظانها . على ان

البيروني لم يستطع أن يخفي ميوله وأهواءه الشخصية اخفاء تاما • فقد ظهر ميله للعلويين في اكثر من موضع • لكن اتهام الدكتور ادوارد سخاو له بانه كان يكره العرب ليس له ما يبرره •

ولدى مقارنة آراء البيروني في فلسفة التاريخ بآراء ابن خلدون فيهما يتضح انهما استخداما اصطلاحات بعينها وانهما طرقا موضوعات متشابهة لكن ابن خلدون أوسع أفقا واكثر تجربة في السياسة والادارة وأغنى معرفة بتاريخ العرب والبربر وأغنى مصطلحا ، وأكثر شمولا •

١٢ ـ في مصطلح البيروني :

١ ـ معطيات المؤرخ

		المرجع والصفحة
١ ـ الاحوال	وخاصة العادات	الآثار ٤
٢ ـ الرسوم	النظم والمؤسسات	الآثار ٤
٣ ـ النواميس	القوانين والشرائع سماوية وغير سماوية	الآثار ٤
٤ ـ السنن	القوانين سماوية وغير سماوية مدونة وغيرمدونة	في تحقيق ٨٠
٤ ـ الآثار	وهو اصطلاح شامل	الآثار عنوان
٥ ـ المظان	المراجع	في تحقيق ١٧ ـ ١٨
٦ الكتب		الآثار ٤
٧ ـ المقالات	المذاهب والدعاوى	الآثار ٤
٨ ـ الأس	الاساس أو القاعدة	الآثار ٤
٩ ـ الاصول	القواعد	في تحقيق ٢٠
١٠ ـ الفروع	ما تفرع من الاصل بمعنى الواقعة (الجزئية	في تحقيق ٢٠
١١ ـ الخبر	واحيانا بمعنى المفهوم او الاستنتاج	في تحقيق ١
١٢ ـ الاقاويل	ما قيل : بمعنى الخبر	الآثار ٤
١٣ ـ الانباء	بمعنى الاقاويل والاخبار	في تحقيق ١
١٤ ـ الاسماء	بمعنى قصص التسلية	في تحقيق ٤
١٥ ـ الاساطير		في تحقيق ٤
١٦ ـ الاعجوبة		في تحقيق ١٤٤

٢ ــ في الصناعة التاريخية

		المرجع والصفحة
١٧ ــ المشاهدة		في تحقيق ٥
١٨ ــ العيان		في تحقيق ١
١٩ ــ النظر		في تحقيق ١
٢٠ ــ السماع		الآثار ٤
٢١ ــ التقليد		الآثار ٤
٢٢ ــ القياس		الآثار ٤
٢٣ ــ الاستدلال		الآثار ٤
٢٤ ــ الاستقراء		في تحقيق ٣٥٢
٢٥ ــ الاستصواب		القانون ج ١ ص ٤ ــ ٥
٢٦ ــ الاستيقان	الوصول الى اليقين	القانون ج ١ ص ٤ ــ ٥
٢٧ ــ الاستشفاف	التبين والوقوف على (البرهنة)	في تحقيق ١٣
٢٨ ــ التبيان		القانون ج ١ ص ٤ ــ ٥
٢٩ ــ التحقيق		في تحقيق ــ العنوان
٣٠ ــ الاجتهاد	استفراغ الوسع واستنفاد الجهد	الآثار ٤ والقانون ج ١ ص.
٣١ ــ الاقتباس		في تحقيق ٨٠
٣٢ ــ التعديل		في تحقيق ٢٢٠
٣٣ ــ تحريف الخبر		في تحقيق ٢
٣٤ ــ التجوير		في تحقيق ٢٢٠
٣٥ ــ المبالغة		في تحقيق ٤ ــ ٥
٣٦ ــ الاصلاح		الآثار ٥
٣٧ ــ التصديق		في تحقيق ٢٢٠
٣٨ ــ التدقيق		في تحقيق ٢٠
٣٩ ــ المطابقة		في تحقيق ٢٢٠
٤٠ ــ التنقيح	عنوان رسالة	مقدمة كتاب الآثار
٤١ ــ التنزيه		في تحقيق ٨٥
٤٢ ــ التشكيك		في تحقيق ٢٢٠
٤٣ ــ النزوع		في تحقيق ٨٤
٤٤ ــ الحجاج		في تحقيق ٥
٤٥ ــ الجدل		في تحقيق ٥
٤٦ ــ التمهر	اكتساب المهارة	الآثار ٥١
٤٧ ــ التجاهل		الآثار ٢٣٨ ــ ٢٣٩
٤٨ ــ الحجة		القانون ج ١ ص ٤ ــ ٥
٤٩ ــ البرهان		القانون ج ١ ص ٤ ــ ٥
٥٠ ــ المثال		في تحقيق ٨٤

		المرجع والصفحة
٥١ ـ الزلل		القانون ج ١ ص ٤ ـ ٥
٥٢ ـ السهـو		القانون ج ١ ص ٤ ـ ٥
٥٣ ـ الخلـل		القانون ج ١ ص ٤ ـ ٥
٥٤ ـ الخـاص	الصفوة	في تحقيق ٢٢٠، ٨٤ ، ٢٧٤
٥٥ ـ العام والعامة	عامة الناس	في تحقيق ٢٢٠، ٨٤ ، ٢٧٤

٣ ـ الخبـر

٥٦ ـ المحسوس		في تحقيق ٢٠ ، ٨٤ ، ٢٧٤
٥٧ ـ المعقـول	بمعنى المجرد احيانا	في تحقيق ٨٤ ، ٢٧٤
٥٨ ـ الخبر الحق		الآثـار ٥
٥٩ ـ الموجود		في تحقيق ص ١
٦٠ ـ المعلوم		في تحقيق ١
٦١ ـ ممتنع الكون		الآثـار ٥
٦٢ ـ غير الموصول اليه		الآثار ٥
٦٣ ـ صعب المتناول		الآثـار ٦
٦٤ ـ بعيد المأخذ	(والمتنـاول)	الآثـار ٦
٦٥ ـ غير منقـاد		الآثـار ٦
٦٦ ـ منحول		في تحقيق ٤
٦٧ ـ منقول		في تحقيق ٤
٦٨ ـ ملقـوط		في تحقيق ٤
٦٩ ـ مخلوط		في تحقيق ٤
٧٠ ـ غير مهذب		في تحقيق ٤
٧١ ـ غير مشذب		في تحقيق ٤
الزعـم		
٧٢ ـ المجرد		في تحقيق ٢٧٥
٧٣ ـ الرأي العلمي		في تحقيق ٤
٧٤ ـ الضروري	لا شبهـة فيـه	في تحقيق ٢٧٤
		الآثـار ٦
٧٥ ـ الرأي الملي		في تحقيق ٣٩٣
٧٦ ـ الاقرب		الآثـار ٥
٨٨ ـ الاشهر		الآثار ٥
٧٨ ـ المألوف		الآثـار ٤
الرأي العامي		
٧٩ ـ الشبهة		في تحقيق ٢٢٠
		الآثـار ٦
٨٠ ـ النادرة		في تحقيق ٥
٨١ ـ الآبـدة	(الامر العجيب الذي يستغرب له)	في تحقيق ٥

٤ ـ آفات الاخبـار

		المرجع والصفحة
٨٢ ـ العوارض	(العوارض المردئة للنفس)	الآثـار ٤
٨٣ ـ التمويـه		في تحقيق ٢٢٠
٨٤ ـ الـزور		في تحقيق ٣
٨٥ ـ الاحتيال		في تحقيق ٣
٨٦ ـ التشيع		الآثـار ٣٧
٨٧ ـ الجـور		في تحقيق ٣
٨٨ ـ الكـذب		في تحقيق ١ ـ ٢
٨٩ ـ الازراء		في تحقيق ١٧ ـ ١٨
٩٠ ـ اتباع الهوى		الآثـار ٤
٩١ ـ الادعـاء		في تحقيق ١٤٨
٩٢ ـ التظـافر		الآثـار ٤
٩٣ ـ التعصب		الآثـار ٤
٩٤ ـ التغالب بالرئاسة		الآثـار ٤
٩٥ ـ الزائغ	(عن الحق)	في تحقيق ٥
٩٦ ـ الاسباب المعمية	(عن الحق)	الآثـار ٤
٩٧ ـ دواعي المحبـة		في تحقيق ٢
٩٨ ـ دواعي الفلبة		في تحقيق ٢
٩٩ ـ دواعي الشرارة	(الشد)	في تحقيق ٢
١٠٠ ـ الطعن	(بالانساب)	الآثـار ٣٧
١٠١ ـ الثلب	(في الاعراض)	الآثـار ٣٧
١٠٢ ـ دناءة الطبع		في تحقيق ٢
١٠٣ ـ الاحن		الآثار ٢٣٨ ـ ٢٣٩
١٠٤ ـ التراث		الآثار ٢٣٨ ـ ٢٣٩
١٠٥ ـ الوقعة	(في الافاعيل ـ مهاجمتها)	الآثـار ٣٧
١٠٦ ـ العجمـة	(عدم المعرفـة)	في تحقيق ١٧ ـ ١٨
١٠٧ ـ الباهت	(على الخصم ، قاذفةبالباطل)	في تحقيق ٥

١٣ ـ مراجع البحث :

أ ـ مؤلفـات البيروني

١ ـ كتاب القانون المسعودي — ٣ مجلدات (حيدر اباد ، ١٩٥٤)

٢ ـ في تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة — (حيدر اباد ، ١٩٥٨)

٣ ـ ابو ريحان بيروني ـ الاسئلة والاجوبـة — تحقيق سيد حسين نصر ومهدي محقق (ايران ، ١٩٧٢)

٤ ـ الآثار الباقية من القرون الخالية وترجمته الانجليزيـة — نشرة الدكتور ادوارد سخاو (ليبزج ، ١٨٧٨) ترجمة ادوارد سخاو (لندن ١٨٧٩)

٥ ـ رسائل البيروني — وهي اربع رسائل : استخراج الاوتار ، وافراد المقال وتمهيد المستقر ، وراشيكات الهند (حيدر اباد ، ١٩٤٨)

٦ ـ الجماهر في معرفة الجواهر — (حيدر اباد ، ١٣٥٥ هـ)

٧ ـ كتاب بتنجلي الهندي في الخلاص من الامثـال — نقله البيروني الى العربية (لا تاريخ)

٨ ـ كتاب الصيدنة — تحقيق حكيم محمد سعيد ورانا : حسان الهي (كراتشي ، ١٩٧٣)

٩ ـ تحديد نهايات الاماكن — حققه ب . بولجاكوف ، مجلة معهد المخطوطات العربية عدد مايو ـ نوفمبر ـ القاهرة ١٩٦٢

ب ـ المراجع الاولية والثانوية العربية المختارة

١ ـ البيهقي ، ابو الفضل — تاريخ البيهقي . ترجمة يحيى الخشاب وصادق نشأت (القاهرة ، ١٩٥٦)

٢ ـ زايد ، محمود — بعض جوانب من ثقافة البيروني بحث قدم الى المؤتمر العالمي المنعقد في كراتشي١٩٧٣

٣ ـ زريق ، قسطنطين — نحن والتاريخ (دار العلم للملايين بيروت ١٩٥٩)

٤ ـ الشحات ، علي احمد — البيروني ـ حياته ـ مؤلفاته ـ آراؤه العلمية (دار المعارف بمصر ، ١٩٦٨)

٥ ـ شهاب الدين ، ياقوت الحموي — معجم الادباء ، ج ١٧ (القاهرة ، ١٩٣٦)

٦ ـ المنجـد ، صلاح « البيروني واللغة العربية » بحث قدم الى المؤتمر العالمي المنعقد في كراتشي (١٩٧٣).

ج ـ بالانجليزيـة

1 - Sarton, George: «Introduction to the History of Sciences». vol. I (Baltimore, 1927).

2 - Papers presented on the occasion of al-Biruni International Congress, Nov. 26-Dec. 12, 1973-Pakistan.

a) Brohi, A. K.: «Abu Raihan al-Biruni International Congress - Philosophy Session - Presidential Remarks».

b) Heinen, Anton: «Al-Biruni and Ibn al-Haytham: A Comparative Study of Scientific Method».

c) Nasr, Hossein: «Abu Rayhan Biruni - Scientist and Scholar Extraordinary».
«Al-Biruni as Philosopher».

d) Qudsi, Obaidallah: «Al-Biruni's Methodology and its Sources».

نُبذة عن تاريخ مدينة لبدة

الأستاذ محمود الصديق أبو حامد
مراقب آثار لبدة . ليبيا

لقد أجريت في ليبيا عدة حفريات في المدن الأثرية القديمة حيث تم الكشف على معالم تاريخية مهمة وما زال العلماء والمتخصصون في علم الآثار يركزون جل اهتمامهم الى الآثار التي لم تكتشف بعد ، وقد حددت أعمال الحفريات هذه والدراسات الأثرية المختلفة التي بدأت منذ سنة ١٩٢٠ م تقريبا على بعض معالم المدن القديمة بطرابلس ، وقد أخذت لبدة النصيب الأكبر من اهتمام العلماء والدارسين • فظهر الى العيان منشآت عمرانية مهمة تدل على مكانة هذه المدينة وأهميتها التاريخية •

ومدينة لبدة هذه تبعد عن مدينة طرابلس من الناحية الشرقية بنحو ١٢٣ كم وقد ورد اسمها في المصادر التاريخية القديمة بهيئة لبتس مقنا (Leptis Mangna) وبصيغة لبسيس مقنا (Leptis Magna) ويعتقد أن الأخير اشتق من اسم المدينة الفنيقي ليبقى ، وأقدم ذكر لهذا الاسم الفنيقي ورد في النقود الفنيقية من القرن الأول قبل الميلاد وبعضها من أوائل القرن الأول الميلادي ، وسماها اليونان بجانب لبتس (نيابوليس) أي المدينة الجديدة •

ومدينة لبدة هذه كانت أول الأمر عبارة عن مركز تجاري يلتجأ اليه الفنيقيون عند ابحارهم من سواحل سوريا الى شواطىء البحر الأبيض

المتوسط للتجارة مع اسبانيا وذلك حوالي القرن الثاني عشر ق٠م ومن المرجح انها لم تكن مدينة كبيرة ثابتة وانما استخدمها الفنيقيون كمحطة تجارية أو ميناء مؤقت لارساء السفن وتبادل البضائع المختلفة مع أهالي البلاد الذين كانوا يجلبون معهم البضائع الثمينة من أواسط افريقيا عن طريق القوافل عبر ممرات كان التجار الليبيون يسلكونها في تنقلاتهم ٠

وقد استطاع الفنيقيون أن يؤسسوا لهم مراكز تجارية على طول الساحل الافريقي الشمالي ويرجح بعض علماء الآثار أن مدينة لبدة هذه قد أسست بعد تأسيس عاصمة القرطاجنيين وهي قرطاجنة القريبة من مدينة تونس الحالية سنة ٨١٤ ق٠م ، ومن المحتمل في القرن السادس ق٠م حيث عثر على قطع من الفخار تعود الى هذه الفترة بالحفريات التي أقامتها جامعة بنسلفانيا سنة ١٩٦١ م قرب الميدان القديم بلبدة ٠وقد استطاع القرطاجنيون خلفاء الفنيقيين بشمال افريقيا من تأسيس عدة مدن على الساحل من بينها لبدة ، وأويا ، وطرابلس الحالية ، وصبراتة ٠

هذا ولم يعثر الى حد الآن على مباني مدينة لبدة في عهدها الفنيقي ، الا أن كل ما أكتشف من آثار لهذه المدينة في عهدها الفنيقي هو عبارة عن عدد من المقابر البونيقية تحت منصة مسرح لبدة الروماني ، تحتوي على أواني فخارية مختلفة ترجع الى القرن الرابع والخامس قبل الميلاد ، وقد عرض بعض منها بمتحف لبدة وهي من حفريات البروفسور كابوتو سنة ١٩١٢ م ، ويعتقد أن مقبرة المدينة الفنيقية تقع خارج المدينة القديمة ويحتمل انها قائمة على احدى المرتفعات ما بين الميدان القديم ومصب وادي لبدة وهي منطقة لم يتم الكشف عنها بعد ، وكانت لبدة في العهد القرطاجني تعتبر المركز الاداري لمدن طرابلس ، وكانت تتمتع بقسط وافر من الاستقلال الذاتي في شئونها الداخلية ولها قوانينها الخاصة ٠ وقد شارك سكان البلاد الأصليين القرطاجنيين في الحياة اليومية وتعلموا لغتهم كما تعلموا في مدارسهم حتى أن الأستاذ الكعاك في كتابه (البربر) يشير الى أن الرومان

عندما انتصروا على البونيقيين واستولوا على مدينة قرطاجنة ، انتزعوا ما يوجد في المكتبات من كتب مكتوبة بلغة القرطاجنيين ووزعوها على أهالي البلاد الأصليين من البربر وهذا يدل دلالة واضحة على مشاركة أهالي بلاد شمال افريقيا الحضارة (البونيقية) ، ولهذا حافظت مدينة لبدة على التقاليد والعادات القرطاجنية ،كما ظل الأهالي يستعملون اللغة البونيقية في معاملاتهم اليومية .وقد نشاهد حتى اليوم ببقايا حفريات لبدة بعض الكتابات البونيقية بجانب الكتابات اللاتينية ، مثل اللوحة التذكارية الموجودة بأعلى مدخل المسرح الرئيسي ، وفي الميدان القديم فقد بقي الأهالي يستعملون اللغة البونيقية حتى دخول الرومان واستقرارهم في مدن طرابلس في القرن الأول الميلادي كما تبين لنا ذلك .

وقد أشار البروفسور (ريناتو برتوتشيني) في كتابة الميناء الروماني بلبدة سبب انشاء مدينة لبدة وازدهارها وهو يرجح سبب انشائها الى شيئين رئيسيين :ـ أولا طبيعة المكان وثانيا غزارة مياه العيون المتدفقة في وادي لبدة والذي كان في حيازته (أربعمائة) متر من الأرض . وقد كون الوادي مصبا واسعا يقع على الساحل متقوسا على شكل خليج ومتدفقا الى البحر برأس صخري يسمى رأس لبدة وكانت تتبعه سلسلة من الجزر الصخرية ، كأنها رصيف طبيعي لحماية المصب من هيجان البحر وكانت تلك البقعة صالحة لانشاء مرفأ ، ولهذا السبب قام الفنيقيون والليبيون فاختاروها مركزا للتجارة ، ويذكر المؤلف المذكور كذلك أن وسط الهضبة هو الموقع الذي شيدت عليه مباني لبدة الأولى ؛ وفيما بعد تحولت هذه المباني الى المدينة الرومانية التي من بقاياها الميدان القديم وما يجاوره من منشآت عمرانية أخرى .

ومن المرجح أن النفوذ الروماني بلبدة بدأ بعد أن قضت روما على قرطاجنة في نهاية الحرب البونيقية الثالثة سنة ١٤٦ ق.م. وفي أثناء الحروب البونيقية استطاع (ماسينسا) الملك النوميدي التي هي الجزائر

الحالية من أن يضم اليه مدينة لبدة وبقية المدن الطرابلسية وذلك بمساعدة حلفائه الرومان ، كما احتل سهل الجفارة عـام ١٩٣ ق٠م الا أن الرومان تضايقوا من تغلغل النفوذ النوميدي بشمال افريقيا ٠ لهذا رأوا أن يقوموا بالتدخل في شئون مدن طرابلس وأثناء النزاع بـين الرومان والنوميديين طلبت مدينة لبدة ابرام معاهدة صداقة مع الرومان حيث نالت قسطا مـن الاستقلال الذاتي تحت حماية روما ، وظلت الى منتصف القرن الأول ق٠م حينما التحقت هي وبقية بلدا ن الشمال الافريقي عن طريق الحكم المباشـر الى أملاك الامبراطورية الرومانية ، وفي أثناء النزاع والحرب بين (بومبي ويوليس قيصر) استطاع هذا الأخير بعد انتصاره على خصمه بومبي سنة ٤٧ ق٠م أن يضم اليه بلدان الشمال الافريقي وأزال المملكة النوميديـة من الوجود ، وجعل الجزء الأكبـر من أقاليمها ولايـة رومانية باسـم (Africa Nova) افريقيا الجديدة ٠ وقد فرض قيصر على مدينة لبدة التي ساندت خصمه وآوت القائد الروماني كاتو غرامة باهضة وذلك بأن تؤدي سنويا ثلاثة ملايين رطل انجليزي من زيت الزيتون ، وبعد اغتيال قيصر عام ٤٤ ق٠م نشب نزاع بين (انطونيوس) ضـد قتلة قيصر وبعد أن انتصـر (اكتافيوس قيصر) سنة ٣١ ق٠م وافق مجلس الشيوخ على الحاق حكـم بعض الولايات الرومانية لمجلس الشيوخ ومن بينها ولايـة افريقيا ، وأعاد أغسطس وهو لقب اكتافيوس الجديد بتكوين المملكة النوميدية ووضع على عرشها يوبا الثـاني ووضع في عام ٢٥ ق٠م الفيلق الثالث لحمايـة ولاية افريقيا بعد أن أضاف اليها المملكة النوميدية ٠

وعقب اغتيال الامبراطور (نيرون) ٥٤ ـ ١٦٨ استقل بعض القواد الرومانيين ونشب نزاع بين بعض المدن حيث حدث نزاع بين لبـدة وأويا طرابلس واستنجدت أويا بالجرامنتيين في فزان واستطاع الجرامنتيون حصار مدينة لبدة ونهب مزارعها وحقولها ، فاضطر قائد الفيلق الاغسطسي المسمى فلاريوس فاستوس الى التدخل العسكري وأرسل نجدة عسكرية الى لبدة

استطاعت طرد الجرامنتيين ، وقد حازت لبدة أهمية كبرى في أوائل القرن الأول الميلادي وخاصة في عهد الامبراطور أغسطس وتيبريوس ثم في القرن الثاني الميلادي في عهد الامبراطور سبتيميوس سويروس ١٩٣ — ٢١١ م الذي يرجح أنه من أصل ليبي ونالت لبدة مسقط رأسه أحسن ازدهـار في تاريخها حيث شيدت في عهده كثير من المنشآت الضخمة ومنحت لبـدة في عهده حقوقا دستورية اضافية في ملكية الأراضي التابعة لها ، مثل الحقوق الايطالية في الأراضي مما يعرف باللاتينية بمصطلح (Ius Italicus) واستمر هذا التقدم والازدهار في عهد الأباطرة من الأسرة السويرية حتـى نهاية عهد الاسكندر سويروس ٢٢٢ — ٢٣٥ م آخر أباطرة تلك الأسرة وفي سنة ٣٦٣ م ٣٦٧م أصاب مدينة لبدة الدمار اثر غزوات قبائل الاستوريين الليبية وأتلفت مزارعها وأهملت سدود الري في وادي لبدة .

وبعد ان احتل الوندال قرطاجنة سنة ٤٣٩ أصبحت مدينة لبدة تابعة لهم حيث لم يهتموا بمدن طرابلس ولم يعثر على آثار من العهـد الوندالي الا مجموعة من النقود ترجع الى تلك الفتـرة وجدت في سوق مدينـة لبدة ، وقد هدم الوندال أسوار المدينة الا أنهم طردوا من البلاد من طرف البيزنطيين في عهد الامبراطور (جوستيان) ٥٢٧ — ٥٦٥ م وجعلت لبـدة في هذا العهد عاصمة الاقليم الاداري وحولت كثيرا من الباسلكيات الشهيرة الى كنائس وأعيد بناء الأسوار في لبدة وصبراتة وقـد نلاحظ حتى الآن أثر التغييرات التي طرأت على بعض المنشآت في لبدة كبسيلقة (سبتيميوس سويروس) وبقايا آثار الأسوار البيزنطية التي أقاموها لحماية المدينـة من الغارات المفاجئة ، وأنتهى الحكم البيزنطي بمجيء العرب المسلمون سنـة ٦٤٣ — ٦٤٤ م حيث احتل المسلمون بلدان الشمال الافريقي بعد أن احتل مصر وبرقة ، ويستدل من المصادر التاريخية أن لبدة في هذه الفترة لم يكن لها شأن يذكر وقد أشار بعض المؤرخين في بعض الحملات العسكرية التي اجروها المسلمون ضد ثورات القبائل البربرية ولا سيما قبيلة (هوارة)

ما بين القرنين السابع والحادي عشر الميلاديين .

واتخذت حصنا أو قلعة لصد هجمات بعض القبائل البربرية التي ظلت تقاوم الفتح العربي الى أن تم اخضاعها في أواخر القرن السابع الميلادي وانتقل مركز الحماية من لبدة الى القرية القريبة منها وهي الخمس الآن فازداد خرابها ويقال أنه حل بها خراب كبير أثر هجرة قبيلتي بني هلال وبني سليم كما تظافرت عوامل الطبيعة للقضاء عليها نهائيا وغطتها الرمال وقد بدأ السياح يتعرفون عليها من القرن السابع عشر عندما كانت بقاياها مطمورة واستخدمت بعض احجارها وأعمدتها في بناء بعض المساجد كما حدث بالنسبة المجامع الذي شيده الوالي التركي مراد آغا في القرن السادس عشر الميلادي ، وقد أشار اليها الرحالة المغربي العياشي الذي زارها في ٢١ مارس ١٦٦٢ م وروى بعض الأساطير عنها ووصفها أيضا الفرنسي (جيرارد) الذي كان يقيم في طرابلس ما بين عام ١٦٦٨ ـ ١٦٧٦ م وقد أخذ بعد ذلك قناصل الدول الأجنبية ينهبون ما يحصلون عليه من آثارها القيمة حيث استطاع القنصل الفرنسي ليمير ١٦٨٦ م الى نقل عدد من الأعمدة لبناء قصر لويس الرابع عشر في عام ١٦٨٧ م وقد استمر بعض ممثلوا الدول الأجنبية في نهب ما يحصلون عليه من أحجار وأعمدة منحوتة وخاصة في القرن الثامن عشر وقد تتابع الرحالة الأجانب في وصف خرائب مدينة لبدة كالرحالة (دوران) والرحالة الايطالي (ديلاشيلار) ١٨١٧ م ورحلة الأخوين بيشي ١٨٢١ م ، ورحلة الألماني بارت ١٨٤٨ ـ ١٨٥٥ م . هذا وقد بدأت الحفائر المنظمة بلبدة منذ سنة ١٩٢٠ م وقد توقف النشاط الأثري في أثناء سنى الحرب الثانية وانتهت الحفائر سنة ١٩٥٤ م وأعمال الصيانة والترميم في بعض المعالم الأثرية المهمة كقوس سبتيميوس سويروس والملعب المدرج الذي يعتبر من أهم المعالم الباقية بمدينة لبدة .

وعند القيام بجولة بين أطلال مدينة لبدة يمكننا الآن مشاهدة مظاهر الحضارات القديمة كالحضارة الرومانية . ويحتمل أن تظهر الى الوجود

فيما بعد بقايا الحضارة الفنيقية ، وعند التأمل فيما خلفه الرومان في هذه المدينة يتبين لنا أن مدينة لبدة كان لها شأن كبير حيث لعبت دورا كبيرا في تقدم البلاد ونهضتها ولا نستبعد أن سكان البلاد الأصليين شاركوا الرومان في بناء هذه المنشآت الضخمة التي تمتاز بها مدينة لبدة ، ويتضح لنا من الخريطة العامة للمدينة أن لبدة تشبه في تخطيطها المدن الرومانية من ناحية تقسيمها الى أرباع أو حارات مما يسمى بالـلاتينية (Regiones) و (Insulae) وتمتاز مدينة لبدة بضخامة مبانيها المشيدة من احجار قوية • ويمكننا مشاهدة الشوارع الرئيسية العرضي منها (Decamonus) والشارع الطولي (Cordo) ثم الشوارع الأخرى المتفرعة عنها ، كما أقيمت أقواس النصر والمعابد والميادين الواسعة والملاعب المختلفة والحمامات التي بنيت على الطراز الروماني ، فنلاحظ عند جولتنا بين اطلال المدينة الميدان القديم الذي كان يعتبر مركز المدينة الأصلية قبل اتساعها في القرن الثاني والثالث الميلاديين ، ثم السوق الذي شيد ٩ ــ ٨ ق•م والكلكيدكوم ١١ ــ ١٢ م الذي من المحتمل أنه كان سوقا لبعض أنواع البضائع ثم المسرح الذي بنى سنة ١ ــ ٢ م هذا وقد توسعت المدينة في القرن الثاني الميلادي حيث بنيت حمامات هادريان التي أنشأت سنة ١٢٢ م وميدان الالعاب الذي كانت تقام فيه الالعاب الخفيفة ، أما في بداية القرن الثالث حيث زادت المدينة توسعا فأنشأت في لبدة مباني أخرى كالشارع المعمد الذي يمتد حتى ميناء لبدة ومعبد حوريات الماء (Nymphaeam) ثم الميدان الجديد والبازيليكا التي كانت محكمة عدل وقاعة اجتماعات ثم حولت في العهد البيزنطي في القرن السادس الميلادي الى كنيسة حيث يمكننا ملاحظة الحجرة الغربية وقد حولت الى معمدنية (Baptistery) على هيئة صليب •

متحف لبدة : نعود الآن بعد هذه المقدمة السريعة عن تأسيس لبدة ووصف مختصر عن أهم معالمها الباقية نبدأ معا في القيام بجولة بمتحف لبدة

حيث نستعرض معا ببعض محتوياته التي عثر عليها أثناء اجراء الحفريات في المنطقة الأثرية والتي بدأت سنة ١٩٢٠ م حيث تم العثور على بعض التماثيل الرخامية التي ترمز الى بعض المواهات الرومانية التي انتقلت عبادتها الى الرومان عن طريق اليونانيين الذين كانوا يعتقدون بتعدد الآلهة ، وتماثيل لبعض الأباطرة الرومانيين وكذلك بعض الأواني الفخارية والزجاجية وقطع الفسيفساء الملونة ، وعرضت بالمتحف كذلك محتويات بعض المقابر التي عثر عليها خارج مدينة لبدة ، كمحتويات المقابر الرومانية التي عثر عليها سنة ١٩٦٠ م غربي وادي الزناد وشرقي وادي الرصف ، ومحتويات مقبرة بدر الرومانية التي عثر عليها بمصراتة سنة ١٩٦٠ م وعرضت بداخل المتحف كذلك بعض النقوش الكتابية منها اللاتينية ومنها الكتابات البونيقية التي ظل استعمالها كما أشرت اليه من قبل ، حتى دخول الرومان منذ القرن الأول ق٠م هذا وقد أسس المتحف منذ سنة ١٩٢٧ م وأقيمت للمتحف فيما بعد تعديلات كثيرة خلال فترات متوالية وتم نقل بعض التماثيل الرخامية وبعض قطع الفسيفساء حيث عرضت بمتحف طرابلس ووضعت بالمتحف بعض اللقيات الموجودة بالمخزن وبعض التماثيل الموجودة من قبل •

أما في سنة ١٩٧٢ م أضيفت للمتحف حجرات الاستراحة القديمة المجاورة له حيث تم اضافة خمسة قاعات احداها كبيرة الحجره الذي سوف يعرض بداخلها بعض التماثيل المكتشفة في الحفائر والموجودة الآن بمخزن الآثار ولبدة والمنحوتات الرخامية التي تم كشفها في السنوات الأخيرة بالملعب المدرج • وقد تم أخيرا تجهيز خزانات عرض وضعت في بقية الحجرات الأخرى حيث عرض بداخلها ما تم العثور عليه بمقبرة (بدر) الرومانية بمصراتة والمقابر البونيقية المكتشفة تحت مسرح لبدة ، وبعض ما اكتشف بفيلا النيل ، وما أكتشف بالمقابر الرومانية غربي وادي الزناد هذا وقد استعنت في وضع هذا الدليل على بعض الشروح القديمة الموجودة على بعض اللقيات الأثرية الموجودة بالمتحف ، كما اعتمدت أيضا على بعض

الكتب والمراجع المولفة عن تاريخ الحفائر بمدينة لبدة ، وكذلك على بعض الكتب المتعلقة بالأساطير القديمة الى تخيلها الانسان في العصور القديمة حيث كثرت المعابد وتماثيل الآلهة • فقد كان الاغريق ثم من بعدهم الرومان وغيرهم من الشعوب الأخرى يعتقدون بوجود كثرة من الآلهة لكل منهم اهتمامه الخاص فكان هناك آلهة الغابات والصيد والهة المعرفة والبحر والخمر وكان لكل أسرةالهها الخاص بها ، وكانلكل اقليم من بلاد الاغريق الهه الخاص الذي يحميه ، ونحن الآن نطاق على الذين يعبدون آلهة متعددة اسم المشركين أو المؤمنين بتعدد الآلهة (Pyios and Theos) وهو مشتق من كلمتين اغريقيتين معناهما تعدد الآلهة (Polytheists) وكانت جميع الشعوب القديمة تعتنق تعدد الآلهة بوجه عام •

هذا ونلاحظ داخل المتحف تأثير هذه الخرافات والأساطير القديمة على حياة سكان مدينة لبدة حيث عبدوا بعض الآلهة التي انتقلت عبادتها على طريق الرومان عند احتلالهم لمدن طرابلس واستقرارهم بها • هذا وقد تأثر الأهالي من قبل بعبادة بعض الآلهة الفنيقية التي يمكننا أن نرى ذلك في احدى اللوحات المصنوعة بالفسيفساء بمتحف صبراتة وهي تمثل الالهة الفنيقية (تانيت) وقد اله الرومان كذلك حكامهم فأنزلوهم بمنزلة الآلهة ، لهذا صنعوا تماثيل من الرخام لأباطرتهم وقد عثر على كثير من تماثيل الأباطرة داخل معالم المدينة كالامبراطور أغسطس وتيبريوس وكلاوديوس وسبتيميوس سويروس وغيرهم من الأباطرة الآخرين ونجد تماثيل لبعض أفراد الأسرة الحاكمة ولزوجات الأباطرة وأبنائهم هذا وقلت عبادة الآلهة المتعددة بلبدة وبقية المدن الطرابلسية عند دخول البيزنطيين في القرن السادس الميلادي حيث تغيرت بعض المعالم الى كنائس كما أشرتالى ذلك من قبل ، وقل بالتالي تفكير الناس بالأساطير القديمة التي شغلتبالهم لفترة طويلة •

يوحنا بن هيلان معلم الفارابي في المنطق

الأب الدكتور يوسف حبي
عضو مجمع اللغة السريانية

الفارابي من اعاظم الفلاسفة المسلمين . ولد في وسيج بالقرب من فاراب في تركستان . نشأ في بغداد واقام في الشام وزار مصر . توفي بدمشق بعمر يربو على الثمانين سنة ٣٣٩هـ ــ ٩٥٠م (١) .

يؤكد المؤرخون ان ابا نصر محمد بن محمد بن طرخان بن اوزلغ الفارابي درس على يوحنا بن حيلان . ويقدم لنا بعضهم اشارات خفيفة لا تكشف لنا سوى جوانب طفيفة من شخصية معلم الفارابي هذا ، وتلمح الى التعليم الذي اعطاه يوحنا لتلميذه ابي نصر . ونظل حيال غموض عميق يكتنف حياة معلم الفارابي ، وشخصيته ، وعلمه ، واسلوبه في التعليم ، وقيمة العلم الذي نفحه لتلميذه . ولم يعرض احد الباحثين الذين درسوا الفارابي وحققوا كتبه ما فيه الكفاية لنستشف ما نرمي اليه في بحثنا هذا ، لا بل نراهم يتحاشون التركيز على يوحنا بن حيلان ، بينما يسقط غيرهم في أخطاء شتى في هذا المجال (٢) .

لذا فان غايتنا من هذا البحث : أولا ، التأكد من أن يوحنا بن حيلان هو معلم الفارابي حقا . ثانيا ، التعرف على مكان الدراسة وزمنها . ثالثا ، التوصل الى المادة العلمية او الكتب التي درسه اياها . رابعا ، محاولة الاطلاع على الطريقة التي كان يتبعها في تدريسه . واخيرا ، تقييم العلم الذي أخذه الفارابي عن يوحنا معلمه . ولا يخفى ما في ذلك من أهمية بالغة

في التعرف علـى جانب من جوانب حيـاة الفارابي وشخصيته ومنزلته العلميـة .

يوحنا بن حيلان معلم الفارابي

يقول المسعودي ، معاصر الفارابي ، ان ابا نصـر محمد بن محمـد الفارابي هو « تلميذ يوحنا بن حيلان » (٣) ومما لا شك فيه ان شهـادة المسعودي هذه هي في غاية الاهمية .

ويفيد صاعد الاندلسي ان الفارابي « فيلسوف المسلمين » قد «اخذ صناعة المنطق عن يوحنا بن جيلاني (حيلان) » (٤) .

ويؤكد ابن الاثير ايضا ان الفارابي « الحكيم الفيلسوف ... كان تلميذ يوحنا بن حيلان » (٥) .

ويضيف القفطي الى ذلك بقوله ان الفارابي « قرأ بها (بغـداد) العلم الحكمي على يوحنا بن جيلاد (حيلان) » (٦) .

وينقل لنا ابن ابي اصيبعة قول الفارابي عن نفسه في كتاب لـه في الفلسفة وسبب ظهورها (٧) « انه تعلم من يوحنا بن حيلان » (٨) . كما انه يعيد شهادة القاضي صاعد المذكورة اعلاه .

اما ابن خلكان فيقول ان الفارابي « اخذ طرفا من المنطق على يوحنا ابن حيلان » (٩) .

ويعيد ابن العبري ما جاء لدى القفطي (١٠) .

فثابت هو اذا ان الفارابي درس على يوحنا بن حيلان . ولكن ، من هو يوحنا هذا ؟ وأين درس الفارابي عليـه ؟ لنحاول ان نستجلي الامور بقدر ما يتيسر لنا الامر .

يوحنا بن حيلان حكيم نصراني في بغداد

يذكر المسعودي ان وفاة يوحنا بن حيلان كانت « بمدينة السلام في ايام المقتدر » (١١) • ويعيد ذلك القاضي صاعد (١٢) ، ويكرر القفطي (١٣) وابن العبري (١٤) الامر عينه • اما ابن الاثير فلا يذكر محل الوفاة وانما زمنها فقط اذ يقول « وكانت وفاة يوحنا في ايام المقتدر بالله » (١٥) •

الا ان وفاة يوحنا في بغداد لا تعني ضرورة انه مولود فيها ومن اهاليها • بل اننا نستشف غير ذلك مما يذكره المؤرخون •

فالمسعودي في كتابه « التنبيه والاشراف » يلخص ما كان قد ذكره باسهاب في كتابه المفقود والموسوم بـ « فنون المعارف وما جرى في الدهور السوالف » ، حول قصة ظهور الفلسفة وانتقالها من اليونان الى العرب « ولاية علة ابتدىء بالفلسفة المدنية من سقراط ثم افلاطون ثم ارسطاليس ثم ابن خالته ثاوفرسطس ثم أوذيمس ، ومن تلاه منهم واحدا بعد آخر ، وكيف انتقل مجلس التعليم من اثينة الى الاسكندرية من بلاد مصر ، وجعل اوغسطس الملك لما قتل قلوبطرة الملكة التعليم بمكانين الاسكندرية ورومية ، ونقل تيدوسيوس الملك الذي ظهر في ايامه اصحاب الكهف التعليم من روميه ، ورده اياه الى الاسكندرية ؟ ولأي سبب نقل التعليم في ايام عمر بن عبد العزيز من الاسكندرية الى انطاكية ، ثم انتقاله الى حران في ايام المتوكل ؟ وانتهى ذلك في ايام المعتضد الى قويري ويوحنا بن حيلان، وكانت وفاته بمدينة السلام في ايام المقتدر ، وابراهيم المروزي ، ثم الى ابن محمد بن كرنيب وابى بشر متى بن يونس تلميذي ابراهيم المروزي، وعلى شرح متى لكتب ارسطو طاليس المنطقية يعول الناس في وقتنا هذا ، وكانت وفاته ببغداد في خلافة الراضي ، ثم الى ابي نصر محمد بن محمد الفارابي تلميذ يوحنا بن حيلان ، وكانت وفاته بدمشق في رجب سنة ٣٣٩ • ولا اعلم في هذا الوقت احدا يرجع اليه في ذلك الا رجلا واحدا

من النصارى بمدينة السلام يعرف بابن زكريا بن عدي » (١٦) •

لقد تعمدنا ان نستشهد بهـذا النص الطويل للمسعودي كمحاولـة لتبديد شيء من الغموض الذي يكتنف شخصية معلم الفارابي • وليس لنا سوى أن نربط ما بين رواية المسعودي هذه وبين ما جاء لدى ابن ابي اصيبعة نقلا عن لسان الفارابي عينه • وهو ما فعله قبلنا البروفسور مايكس ماير هوف (١٧) ، مستنتجا بان الروايتين ــ روايـة الفـارابي ورواية المسعودي ــ كغيرها من روايات عربيـة مماثلة ، تعود برمتها الى تقليـد ومصدر واحد يقول بانتقال مدرسة الاسكندريـة الى انطاكية ، فحـران ومرو ، فبغداد • غير انها روايات فيها الكثير من الاختلافات المصطنعة ،فلا الانتقال واقعي ، ولا طرقه هي الوحيدة ، وليس ثمة من تبرير للفتـرات الزمنية المفتعلة •

فبعد ان يورد الفـارابي ــ حسبما ينقل ابن ابي اصيبعة كلامه ــ اخبارا خيالية عن مدرسة الاسكندرية القديمة ومكتبتها ، محاولا تضييق دراسة كتب ارسطو المنطقية فيها بسبب انتشار النصرانية ، يأتي الى القول: « الى ان كان الاسلام بعده بمدة طويلة ، فانتقل التعليم من الاسكندريـة الى انطاكية وبقي بها زمنا طويلا ، الى ان بقي معلم واحد فتعلم منه رجلان وخرجا ومعهما الكتب • فكان احـدهما من اهل حران والاخر من اهـل مرو • فاما الذي من اهل مرو فتعلم منه رجلان ، احدهما ابراهيم المروزي، والاخر يوحنا بن حيلان • وتعلم من الحراني اسرائيـل الاسقف وقويري وسار الى بغداد ، فتشاغل ابراهيم بالدين ، واخذ قويري في التعليم •واما يوحنا بن حيلان فانه تشاغل ايضا بدينه • وانحـدر ابراهيم المروزي الى بغداد فاقام بها • وتعلم من المروزي متى بن يونان ، وكان الذي يتعلم في ذلك الوقت الى آخر الاشكال الوجودية • (وقال) ابو نصر الفارابي عن نفسه آنه تعلم من يوحنا بن حيلان الى آخر كتاب البرهان ••• (وحدثني) عمي رشيد الدين ابو الحسن على بن خليفة رحمـه الله ان الفارابي توفي

عند سيف الدولة بن حمدان في رجب سنة تسع وثلاثين وثلثمائة ، وكان اخذ الصناعة عن يوحنا بن حيلان ببغداد في ايام المقتدر ، وكان في زمانه ابو بشر متى بن يونان ، وكان أسن من ابي نصر وابو نصر احد ذهنا واعذب كلاما . وتعلم ابو البشر متى من ابراهيم المروزي وتوفي ابو البشر في خلافة الراضي فيما بين سنة ثلاث وعشرين الى سنة تسع وعشرين وثلثمائة . وكان يوحنا بن حيلان وابراهيم المروزي قد تعلما جميعا من رجل من اهل مرو » (١٨) .

نفهم من المسعودي ان يوحنا تعلم في حران ، وفيها تعلم ايضا قويري وابراهيم المروزي . وبينما علي ابراهيم المروزي درس كل من ابي بشر متى بن يونس وابي محمد بن كرنيب ، درس الفارابي على يوحنا بن حيلان.

اما رواية ابن ابي اصيبعة فتقربنا الى واقع اكثر معقولية من رواية المسعودي . اذ انه بعد انتشار الفكر اليوناني من الاسكندرية الى انطاكية، دون ان يعني ذلك انتقالا لمدرسة الاسكندرية او ركودا للفلسفة والعلوم في الاسكندرية (١٩) ، تلاه انتشار آخر في حران ومرو وغيرهما من المناطق. وفي حران يتعلم الاسقف اسرائيل وقويري ، ثم يقصدان بغداد . بينما يأخذ الحكمة من مرو كل من ابراهيم المروزي ويوحنا بن حيلان ، ويقصدان بغداد كذلك . وفي بغداد ، على الارجح ، يدرس الفارابي على يوحنا بن حيلان ، بينما يدرس ابو بشر متى بن يونس على كل من ابراهيم المروزي ويحيى المروزي وروبيل . فاقرب الى الصحة اجتماع هؤلاء الحكماء جميعا في بغداد ، عاصمة الحضارة ومحط رجال الفكر والعلم . كما ان وفاة يوحنا بن حيلان في بغداد تدعم ذلك ، بينما يظل الغموض يغشى منشأ يوحنا ، فهل هو مروزي ام حراني ؟ وهل درس في مرو ام حران ؟

هنا تطالعنا شهادة ابن خلكان التي تضاعف الاشكال والالتباس ، اذ يقول بان ابا نصر الفارابي «ارتحل الى مدينة حران، وفيها يوحنا بن حيلان الحكيم النصراني ، فاخذ عنه طرفا من المنطق ايضا ، ثم قفل راجعا الى

بغداد ، وقرأ بها علوم الفلسفة » (٣٠) .

أمر واحد ثابت الآن هو ان يوحنا بن حيلان فيلسوف او حكيم ، وهو نصراني او مسيحي ، فاسمه يدل على ذلك ، وشهادات المؤرخين ، لا سيما ابن خلكان وعبارة ابن ابي اصيبعة « تشاغل بدينه » . لكننا نجهل مذهبه المسيحي ، فهل هو نسطوري ، كما يرجح الباحثون عادة ، ام هو مونوفيزيتي ؟ وهل هو رجل دين ، كما كان معظم المعلمين المسيحيين يومذاك ، ام انه شخص عادي ؟ كلها أمور تبقى غامضة ، ولا يسعفنا المؤرخون المسيحيون البتة في الكشف عنها . من المؤكد ان يوحنا من عداد الناطقين بالسريانية ، لان مسيحيي حران ومرو والمناطق المجاورة هم من الناطقين بالسريانية ، فهو يدخل ضمن صفوف من خدموا الفلسفة والعلوم والآداب في ميدان السريانية والعربية الشقيقتين ، على غرار الكثيرين ممن عملوا على تكوين الحضارة العربية الزاهرة بفضل نقولهم من اليونانية الى السريانية فالعربية ، كما بفضل انفتاحهم على العالم العربي الاسلامي واندماجهم فيه .

ليس لنا في هذه العجالة استعراض المسيرة برمتها التي قادها الناطقون بالسريانية في أشهر عواصم الشرق الاوسط ومدنه ومدارسه ، قبل الاسلام ثم خاصة منذ ان شجعهم المسلمون على العمل الفلسفي والعلمي ، وافرد الخلفاء والاعيان مبالغ طائلة لنقل كتب اليونان الى اللغة العربية عن طريق اللغة السريانية ، فقامت دوحة الحضارة العربية نضرة زاهرة .

لقد كانت ثمة مدارس سريانية متقدمة في العلوم والحكمة منذ القرن الثالث الميلادي فما بعده ، لا بل منذ فجر المسيحية شرع الناطقون بالسريانية يولون اهتماما بالغا بالحكمة وعلومها وكتبها ، نظرا لمحاولتهم التعمق في الكتاب المقدس واسرار الديانة ، فنشط علم اللاهوت لديهم ، واخذوا يستعينون بالعلوم الانسانية ، وفي مقدمتها النحو والبيان والمنطق والفلسفة ، للاستزادة في التبحر والاستنارة ، فلم يترددوا في دراسة فروع المعرفة

هذه ، بينما مال بعضهم الى العلوم الاخرى ايضا ، كالطب والرياضيات والموسيقى والفلك ، دون ان يروا في ذلك أي ضير • ولتحقيق مأربهم الحميد هذا لجأوا الى التراث اليوناني الزاخر ، فدرسوا هذه العلوم اولا في نصوصها اليونانية الاصلية ، ثم لغرض تعميمها اكثر ، شرعوا يترجمون مصنفات اليونان الى لغتهم السريانية • وحين انتشرت اللغة العربية في البلاد ، أخذوا ينقلونها الى العربية ، فنشطت حركة الترجمة ، واحتل العلم مكانة مرموقة منذ العهد الاموي ، حتى لقي ازدهارا كبيرا في العصر العباسي الذهبي •

واشهر مدارس الناطقين بالسريانية ، منذ القرن الرابع الميلادي وحتى القرن العاشر ، مدارس الرها ونصيبين والمدائن وجنديسابور ، نسبة الى اتباع كنيسة المشرق اي النساطرة ، ومدارس الرها وانطاكية وآمد ، نسبة الى اتباع كنيسة انطاكية أي المونوفيزيتيين • كما قامت مدارس عديدة بجوار الكنائس والاديرة الشهيرة، يتعذر علينا تعدادها نظرا لكثرتها (٢١)• وقد كانت هذه المدارس عادة دينية لاهوتية ، الا انه كان يسمح فيها تعليم العلوم الانسانية والدنيوية الاخرى • وكان جل معلميها من رجال الدين، اساقفة كانوا ام كهنة ام رهبانا ، كما برز فيها احيانا اشخاص عاديون •

منذ القرن الثاني الميلادي اشتهر برد يصان وتلاميذه ، ثم نبغ مار افرام وربولا وهيبا وبروبوس ويوحنا برافتونيا واحودمه ونرساي ومار آبا ويعقوب السروجي في القرنين الرابع والخامس خاصة ، ومنذ اواسط القرن الخامس كانت الفلسفة المشائية مزدهرة في مدرستي نصيبين والرها ، ثم كان سركيس الراسعيني في القرن السادس وهو صاحب كتاب في المنطق اهداه الى تيوذوروس أسقف مرو ، كما ألف كتبا فلسفية اخرى ونقلا لارسطو وفرفوريوس • ثم لمع نجم ساويرا سابوخت وحنا نيشوع الجاثليق وايوس الرهاوي ويعقوب الرهاوي ويوحنا الافامي وجرجس اسقف العرب ويوسف حزايا ومار طيمثاوس والشيخ ابو نوح الانباري

وغيرهم كثيرون . حتى اشتهرت مدرسة جنديسا بور في خوزستان واختصت بالطب ، فكان آل بختيشوع ويوحنا بن ماسويه وغيرهم من الاطباء ، ولقرب جنديسا بور من بغداد انتقلت حركة الطب اليها . وشهيرة هي قصة استدعاء الخليفة المنصور للطبيب جيورجيس بن بختيشوع من جنديسا بور الى بغداد ، وتسلم آل بختيشوع رئاسةالطب في العاصمة العباسية ، ثم قيام بيت الحكمة البغدادي ، وازدهار حركة ترجمة الكتب الطبية والفلسفية والعلمية الاخرى من اليونانية الى السريانية فالعربية ، ونبوغ حنين بن اسحق ومدرسته وعلى رأس تلاميذها ابنه اسحق وابن اخته حبيش بن الحسن الاعسم ، فكانت مدرسة كاملة المترجمة ذات نهج علمي وانتاج زاخر ، وعرف العالم العربي أقوى حركة للترجمة بفضل بيت الحكمة على عهد المأمون والمتوكل ، وتكاثر بيوت ودور الحكمة والعلم في سائر انحاء العالم الاسلامي .

وعلاوة على بغداد ، فان لمدينة حران القريبة من الرها ، دورا في التعريف بالفكر اليوناني وتطويره . وقد عنى الحرانيون خاصة بالمذهبين الفيتاغوري الجديد والافلاطوني المستحدث ، وامتاز اهاليها بالرياضيات والفلك . وكان جل مشاهير حران من الصابئة الناطقين بالآرامية ، ومنهم سلم الحراني الملقب بصاحب بيت الحكمة ، وهو معاصر للمأمون . وقد لمع خاصة ثابت بن قرة الذي انتقل من حران الى بغداد فاتخذه المعتضد صديقا له حتى ترقى في اسمى المراتب في عهد خلافته ، وبرز بعده ابنه سنان الطبيب الشهير .

وقامت في مرو في خراسان مدرسة لاهوتية وفلسفية مهمة ، برز فيها تيودوروس المروزي في القرن السادس ، وقد كان على صلة بسركيس الراسعيني ، وانكب على الفلسفة الرواقية ، ثم ايليا مطران مرو في القرن السابع ، وايشو عداد المروزي في القرن التاسع ، ثم ابراهيم المروزي وغيرهم (٢٢) .

فهل يوحنا بن حيلان حراني ام مروزي ؟ اننا نرجع اصله المروزي ، كزميله ابراهيم المروزي • وانـه هو وزميله ابراهيم تعلما على حكيـم مجهول من مرو ، على حد شهادة المؤرخين • على كل حال ، فان يوحنـا استوطن في بغداد ، وفيها درس الفارابي عليه •

وزيادة في التعرف على المعلم والتلميذ معا ، ولغرض تقديم ايضـاح اكبر عن معالم شخصيتيهما ، نضيف فذلكة وجيزة تخص حكماء آخـرين كان لهم أوثق الصلة بالفارابي ومعلمه يوحنا • وقد افرد ابن النديم فذلكة لمعظمهم وكذلك ابن ابي اصيبعة دون ان يتطرقا الى يوحنـا نفسه [٢٣] ، لمعظمهم وكذلك ابن ابي اصيبعة دون ان يتطرقا الى يوحنا نفسه[٢٣] ، واورد بسيط لكل منهم [٢٥] •

ابراهيم المروزي ـ لا يخصص له المؤرخون القدامى ولا مايرهوف نبذة عن حياته ، وليس من مبرر لاعتباره هو عينه ابو يحيى المروزي ، الذي سيأتي ذكره • تعلم هو وزميله يوحنا بن حيلان من حكيم من اهل مـرو ، حسب روايتي المسعودي وابن ابي اصيبعة • ثم انحدر الى بغداد فاقـام بها ، وصار له تلاميذ ، منهم ابو بشر متى بـن يونس وابو محمد بـن كرنيب [٢٦] •

اسرائيل الاسقف ـ يأتي علـى لسان الفارابي في روايـة ابن ابي اصيبعة [٢٧] على انه الذي تعلم الحكمة من الحراني بمعية زميله قويري • وهو فيلسوف استوطن بغداد وانصرف الى العلوم الدينية واللاهوت ، ولم يترك آثارا مكتوبة •

قويري ـ يأتي في روايتي المسعودي وابن ابي اصيبعة على انه تعلم وزميله اسرائيل من الحكيم الحراني في ايام المعتضـد • وهو نصراني ، قصد بغداد واخذ في التعليم • ويفرد له ابن النديم فذلكة ناعتا اياه ابا

اسحاق ابراهيم ، ويقول انه اختص بعلم المنطق ، وكان مفسرا • عليه قرأ ابو بشر متى بن يونس • ولقويري عدة تآليف مذكورة في الفهرست هي : كتاب تفسير قاطيغورياس مشجر ، كتاب باريرمينياس مشجر ،كتاب انا لوطيقا الاولى مشجر ، كتاب انا لوطيقا الثاني مشجر • وكتبه «مطرحة مجفوة ، لان عبارته كانت عفطية غلقة » • وينسب اليه تفسير كتاب سوفسطيقا لارسطو [٢٨] •

ابو يحيى المروزي — يقول ابن النديم أن ابا بشر متى بن يونس قرأ عليه • ويحدد ابن ابي اصيبعة بان ابا بشر قرأ كتاب القياس عليه • اما القفطي فيذكر عالمين بهذا الاسم ، احدهما منطقي وطبيب وهو صاحبنا ، والآخر طبيب وعالم بالهندسة ، وكلاهما ببغداد • ويؤكد القفطي بان ابا بشر متى قرأ على ابي يحيى ، ويتشكى ابن النديم والقفطي من ان ابا يحيى « كان سريانيا ، وجميع ماله في المنطق وغيره بالسريانية » • ويذكران ان له كلاما في انا لوطيقا الثاني او ابود تيطيقا [٢٩] • نرى من المستبعد ان يكون هو عينه ابراهيم المروزي الذي درس عليه ابن كرنيب •

ابن كرنيب — يسميه ابن النديم ابا احمد الحسين بن ابي الحسين ابن اسحق بن ابراهيم بن مزيد الكاتب ويعرف بابن كرنيب الكاتب اما القفطي فيسميه ابن اسحق بن ابراهيم بن يزيد الكاتب ، وهو ابو الحسن ابن ابي الحسين ، وقيل ابو احمد ، ويكتفي المسعودي بتسميته ابن كرنيب • فهو مسلم وابن واخ لرياضيين مشهورين هما اسحق وابو العلاء • كما انه وتلميذا الكندي احمد بن الطيب الرضي وابو زيد احمد البلخي من الفلاسفة المسلمين من الدرجة الثانية • يذكره المسعودي كرئيس مدرسة في بغداد، ويقول ابن النديم انه « من جملة المتكلمين ويذهب مذهب الفلاسفة الطبيعيين » ، ويعيد القفطي ذلك ، ويؤكد المؤرخون انه معلم ابي بشر متى بن يونس• ألف كتابين فلسفيين صغيرين ،احدهما رد على

ابن الحسن ثابت بن قرة في الاجناس والانواع ، كما له كتب اخرى في الهندسة (٣٠) •

ابو بشر متى بن يونس ـ يقول ابن النـديم انه من اهل ديرقني ، الواقعة على دجلة في الجنوب الغربي من بغداد • تلقى تربيته الاولى في اسكول مار ماري الذي بناه مار عبدا حوالي سنة ٤٠٠ • فهو نصراني، كما يصرح القفطي ، ونسطوري النحلة ، كما يؤكد ابن العبري • سكـن بغداد ، وقرأ على قويري وروفيل وبنيامين وابراهيم المروزي وابن كرنيب وابي يحيى المروزي • وقد جاء ذكر ابراهيم المروزي وقويري وابي يحيى وابن كرنيب • اما روفيل ، او روبيل ، وبنيامين فراهبان مونوفيزيتيان، على حد قول ابن العبري • ويذكر ابن ابي اصيبعة ان متى قرأ ايساغوجي فرفوريوس على « انسان نصراني » ، نرجح انه بنيامين المذكور ، وقـرأ قاطيغورياس وباريرمينياس ارسطو علـى روبيل (روفيل) ، والقيـاس لارسطو على ابي يحيى المروزي • ويسمي المؤرخون ابا بشر متى بالمنطقي، لا بل « اليه انتهت رياسة المنطقيين في عصره » ، اذ انه على « شرح متى لكتب ارسطوطاليس المنطقية » ، وعلى كتبه الشخصية ، يعول الناس في زمانه في الدراسة ، سواء في بغداد ام في سائر امصار المسلمين بالمشرق• توفي ابو بشر متى بن يونس ، او يونان ،في خلافة الراضي في ١١ رمضان ٢٣/٣٢٨ حزيران ٩٤٠ ، فهو معـاصر للفارابي ، وهـذا دونه في السن وفوقه في العلم ، لا بل ان ابا نصر « أحد ذهنا واعذب كلاما » من ابي البشر ، كما يقول ابن ابي اصيبعة • « ولما دخل (الفارابي) بغداد كـان بها ابو بشر متى يونس الحكيم المشهور ، وهو شيخ كبير ، وكان يقـرأ الناس عليه فن المنطق ، وله اذ ذاك صيت عظيم وشهرة وافية » ، على حد شهادة ابن خلكان •

ولمتى تفسير من السرياني الى العربي • من تفاسيره : كتاب تفسيـر الثلث مقالات الاواخر من تفسير ثامسطيوس ، والكتب الاربعة في المنطق

« وعليها يعول الناس في القراءة » • وله نقول : كتاب البرهان الفص ، كتاب سوفسطيقا الفص ، كتاب الكون والفساد ، كتاب الشعر الفص • وله من الكتب : مقالة في مقدمات صدر بها كتاب انا لوطيقا ، كتاب المقاييس الشرطية ، كتاب ايساغوجي لفرفوريوس (٣١) •

ومن اكابر تلاميذ ابي بشر ابو زكريا يحيى بن عدي المتوفي سنة ٩٧١ م بعمر أحدى وثمانين سنة •

درس الفارابي المنطق على يوحنا

بيان جليا مما تقدم انه كان ثمة نشاط فلسفي في مرو وحران وبغداد والمراكز الاخرى التي تهم الفارابي سواء في زمانه او قبله ، وقد كان للناطقين بالسريانية مكانة علمية كبيرة فيها بفضل نقلهم التراث اليوناني الى العرب والاكثار من المدارس •

وكان لهؤلاء اهتمام خاص بعلم المنطق وكتبه ، نظرا لفوائدهالجزيلة باعتباره مفتاحا للعلوم الاخرى كلها ، سواء الدينية اللاهوتية ام المدنية المختلفة (٣٢) • وهو المنطق بالذات ما أخذ الفارابي عن يوحنا معلمه •

يقول صاعد ان الفارابي « اخذ صناعة المنطق عن يوحنا » (٣٣) ، ويعمم القفطي وابن العبري ذلك بقولهم انه قرأ ببغداد « العلم الحكمي على يوحنا » (٣٤) • ويوضح ابن ابي اصيبعة الامر فيقول ان الفارابي « تعلم من يوحنا بن حيلان الى آخر كتاب البرهان » ، لا بل انه « اخذ الصناعة عن يوحنا بن حيلان ببغداد في ايام المقتدر » (٣٥) • اما ابن خلكان فيعطي هو الوحيد دورا مهما لابي بشر متى في حياة الفارابي العلمية ، اذ يقول : « ولما دخل (الفارابي) بغداد ، كان بها ابو بشر متى يونس الحكيم المشهور ، وهو شيخ كبير ، وكان يقرأ الناس عليه فن المنطق ، وله اذ ذاك صيت عظيم وشهوة وافية ، ويجتمع في حلقته كل يوم المئات من المشتغلين بالمنطق ،وهو يقرأ كتاب ارسطوطاليس في المنطق ويملي على

تلامذته شرحه . فكتب عنه في شرحه سبعين شعرا . ولم يكن في ذلك الوقت مثله في فنه . وكان حسن العبارة في تآليفه ، لطيف الاشارة ، وكان يستعمل في تصانيفه البسط والتذييل ، حتى قال بعض علماء هذا الفن ما ارى ابا نصر الفارابي اخذ طريق تفهيم المعاني الجزلة بالالفاظ السهلة الا من ابي بشر ، يعني المذكور . وكان ابو نصر يحضر حلقته في غمار تلامذته . فاقام ابو نصر كذلك برهة ، ثم ارتحل الى مدينة حران وفيها يوحنا بن خيلان الحكيم النصراني . فاخذ عنه طرفا من المنطق ايضا، ثم انه قفل راجعا الى بغداد وقرأ بها علوم الفلسفة ... » (٣٦) .

ليس من شك انه كان للفارابي اكثر من معلم واحد ، منهم ابن السراج الذي قرأ عليه الفارابي صناعة النحو ، بينما قرأ عليه السراج صناعة المنطق (٣٧) . غير اننا نود التأكيد على ان الذي علم الفارابي صناعة المنطق هو يوحنا بن حيلان ، ولا بأس ان يكون الفارابي قد حضر مجلس ابي بشر احيانا ، فقد كان ممن يحبون الاستفادة من اكثر من شخص ومكان وبشتى الوسائل للتبحر في العلوم الحكمية ، وفي مقدمتها علم المنطق . لذا نراه يقصد بلدانا عديدة لتحقيق مأربه هذا .

لا يحق لنا ان نظلم يوحنا بن حيلان اكثر مما ظلمه التاريخ ، فلم يترك لنا شيئا نستدل منه على مقدار علمه وطريقته في التعليم ، وهل له تآليف ام لا . ولا يسعنا الا ان نجاهر بفضله على الفارابي في تعليمه صناعة المنطق . ولتقييم عمله هذا يجدر بنا ان نثبت شيئا من اهتمامات الناطقين بالسريانية والعلماء الآخرين بالمنطق ممن سبقوا يوحنا والفارابي او عاصروهما .

نصطدم هنا بالاقتباس الذي استقاه ابن ابي اصيبعة من كتاب الفارابي المذكور آنفا في ظهور الفلسفة ، وفيه خبر يضيق دراسة كتب ارسطو المنطقية في مدرسة الاسكندرية ، ولدى المسيحيين بالتالي ، ولا سيما لدى اولئك الذين اخذوا عن الاسكندرانيين هذا العلم ، وفي مقدمتهم

الناطقون بالسريانية • فنحن نقرأ ما يأتي : « وبطل التعليم من رومية ، وبقي بالاسكندرية • ثم نظر ملك النصرانية في ذلك واجتمعت الاساقفة، وتشاوروا فيما يترك من هذا التعليم وما يبطل ، فرأوا ان يعلم من كتب المنطق الى آخر الاشكال الوجودية ، ولا يعلم ما بعده لانهم رأوا في ذلك ضررا على النصرانية ، وان فيما اطلقوا تعليمه يستعان به على نصرة دينهم • فبقي الظاهر من التعليم هذا المقدار ، وما ينظر فيه من الباقي مستور ، حتى كان الاسلام بعده بمدة طويلة ، فانتقل التعليم من الاسكندرية الى انطاكية ••• » (٣٨)

غير انه ليس في التاريخ ما يؤيد هذا القول • اذ لم يقم مجمع كنسي حرم تدريس اي جزء كان من اجزاء المنطق (٣٩) ، بل العكس هو ما كان قائما ، فقد كان يستعان بالفلسفة اليونانية للتعمق في العلوم الدينية ، وقد كان ارسطو بالنسبة للناطقين بالسريانية رجل منطق بصورة خاصة (٤٠) • وثمة شيء من الصحة في قول الفارابي ، الذي أخذه حتما عن معلمه يوحنا ، وينقله ابن ابي اصيبعة الينا ، في أن كتب ارسطو المنطقية لم تكن كلها تقرأ وتدرس ، لا سيما قبل الاسلام فيقول الفارابي « انه تعلم من يوحنا بن حيلان الى آخر كتاب البرهان • وكان يسمى ما بعد الاشكال الوجودية الجزء الذي لا يقرأ الى أن قرىء ذلك وصار الرسم بعد ذلك حيث صار الامر الى معلمي المسلمين ان يقرأ من الاشكال الوجودية الى حيث قدر الانسان ان يقرأ • فقال ابو نصر انه قرأ الى آخر كتاب البرهان » (٤١) •

فما هي الكتب المنطقية التي كانت متداولة في عهد الفارابي وقبله؟

يقصد بالكتب المنطقية كتب ارسطو في المنطق ، وقد جمعت بمجلد ضخم تحت اسم « الاورغانون » (٤٢) ، ويسميها المؤرخون القدامى « المنطقيات » • ويختلف عددها بموجب تصنيفها وترتيبها ، فهي ثمانية

ان عدت اجزاؤها واحدا واحدا ، او ستة ان حذف منها كتابا الشعر والخطابة ، و خمسة في حالة دمج جزئي التحليلات . وهي [٤٣] :

١ ــ قاطيغورياس أي المقولات

٢ ــ باريرمينياس او باري ارمينياس أي العبارة

٣ ــ انالوطيقا الاولى أي تحليل القياس او القياس

٤ ــ انا لوطيقا الثانية او ابوذ يقطيقا أي البرهان

٥ ــ طوبيقا أي الجدل او المواضع الجدلية

٦ ــ سوفسطيقا أي المغالطون او الاقوال المغلطة او الحكمة المموهة

٧ ــ ريطوريقا أي الخطابة

٨ ــ ابو طيقا او بويطيقا أي الشعر

ولنستمع الى الفارابي عينه يشرح لنا سبب تقسيم علم المنطق الى الاجزاء المذكورة آنفا فيقول :

« واما اجزاء المنطق فهي ثمانية : وذلك ان انواع القياس وانواع الاقاويل التي يلتمس بها تصحيح رأي أو مطلوب في الجملة ثلاثة .وانواع الصنائع التي فعلها بعد استكمالها ان تستعمل القياس في المخاطبة في الجملة خمسة : برهانية وجدلية وسوفسطائية وخطبية وشعرية ... فتصير اجزاء المنطق بالضرورة ثمانية ، كل جزء منها في كتاب . الاول فيه قوانين المفردات من المعقولات والالفاظ الدالة عليها ، وهو في الكتاب الملقب اما بالعربية فالمقولات ، وباليونانية « قاطيغورياس » . والثاني فيه قوانين الاقاويل البسيطة التي هي المقولات المركبة من معقولين مفردين معقولين مفردين والالفاظ الدالة عليها المركبة من لفظين لفظين . وهو في الكتاب الملقب اما بالعربية فالعبارة ، وباليونانية باري ارمينياس .

والثالث فيه الاقاويل التي تسبر بها القياسات المشتركة للصنائع الخمس، وهي في الكتاب الملقب اما بالعربية فالقياس ، وباليونانية انالوطيقا الاولى. والرابع فيه القوانين التي تمتحن بها الاقاويل البرهانية ، وقوانين الامـور التي تلتئم بها الفلسفة ، وكل ما تصير به افعالها أتم وافضل واكمل .وهو بالعربية كتاب البرهان ، وباليونانية « انالوطيقا الثانية » . والخامس فيه الاقاويل التي تمتحن بها الاقاويل الجدلية وكيفية السؤال الجدلي والجواب الجدلي ، وبالجملة قوانين الامور التي تلتئم بها صناعة الجدل وتصير بها افعالها اكمل وافضل وانفذ . وهو بالعربية كتـاب المواضع الجدليـة ، وباليونانية طوبيقا . والسادس فيه اولا قوانين الاشياء التي شانهـا ان تغلط عن الحق وتلبس وتحير ، واحصاء جميع الامور التي يستعملهـا من قصد التمويه والمخرفة في العلوم والاقاويل ، ثم من بعدها احصاء جميع ما ينبغي ان تتلقى به الاقاويل المغلطة التي يستعملها المشنع والمموه، وكيف تفسخ ، وباي الاشياء تدفع ، وكيف يتحرز الانسان من ان يغلط في مطلوباته او يغالط . وهذا الكتاب يسمى باليونانية « سوفسطيقـا » ومعناه الحكمة المموهة . والسابع فيه القوانين التي تمتحن وتسبر بهـا الاقاويل الخطبية واصناف الخطب واقاويل البلغاء والخطباء ... وهـذا الكتاب يسمى باليونانية « ريطوريقا » وهو الخطابة . والثامن فيه القوانين التي تسبر بها الاشعار واصناف الاقاويل الشعريـة ... وهـذا الكتاب يسمى باليونانية « بويوطيقا » وهو كتاب الشعر .

« والجزء الرابع هو أشدها تقدما بالشرف والرياسة . والمنطق انما التمس به على القصد الاول والجزء الرابع ، وباقي اجزائه انما عمل لاجل الرابع : فان الثلاثة التي تتقدمه في ترتيب التعليم هي توطئات ومـداخل وطرق اليه ، والاربعة الباقية التي تتلوه فلشيئين : احدهما في كل واحد منها ارفاداما ومعونة ، على انها كالآلات للجزء الرابع ، ومنفعة بعضهـا

اكثر وبعضها أقل » [٤٤] .

ويؤكد الفارابي ذلك في كتاب آخر بقوله: « واما عدد اجزاء الصناعة (صناعة المنطق) فهو على عدد اصناف انقياد الذهن ، وعلى عدد الاشياء التي شأنها ان تتقدم تلك الامور . واصناف تلك الامور فهي خمسة على ما يين . والاشياء التي تتقدمها ثلاثة ..... فاجزاء صناعة المنطق ثمانية » [٤٥] .

وان نحن عرفنا ما الكتب المنطقية التي كانت متداولة في الاوساط الشرقية ، الهلينية والسريانية والعربية والفارسية وغيرها ، في ايام الفارابي ومعلمه ، كان بوسعنا تكوين فكرة جيدة عما اعطاه يوحنا بن حيلان من تعليم لابي نصر الفارابي .

يفيدنا ابن النديم [٤٦] والقفطي [٤٧] وابن ابي اصيبعة [٤٨] ، اكثر من سواهم ، في التعرف على الترجمات السريانية والعربية خاصة ، كما وعلى الشروح اليونانية وغيرها التي قام بها العلماء لكتب ارسطو في المنطق ننقلها هنا معتمدين ترتيب ابن النديم والقفطي .

١ ـ المقولات (قاطيغورياس) نقول : حنين بن اسحق الى العربية .

ضروح وتفاسير : فرفوريوس ، اصطفن الاسكندري ، امونيوس ، يحيى النحوي بطريرك الاسكندرية ، ثامسطيوس ، ثاوفرسطس ، سنبليقوس ، تيون بالسريانية . وقد نقل ابو زكريا تفسير الاسكندر الافرودويسي . وبالعربية ابو بشر متى بن يونس وابو نصر الفارابي .

مختصرات وجوامع : ابن المقفع ، حبيب بن بهريز ، الكندي ، اسحق ابن حنين .

٢ ـ العبارة (باريرمينياس) نقول : حنين الى السرياني ، واسحق ابنه الى العربي من الاصل .

تفاسير : الاسكندر ، يحيى النحوي ، امليخس ، فرفوريوس ، جالينوس .

جوامع : اصطفن . وفسره قويري . ابو بشر متى ، ثاوفسطوس ، الفارابي .

مختصرات : حنين بن اسحق ، ابن المقفع ، الكندي ، ابن بهريز ، ثابت بن قرة .

٣ ــ القياس (انالوطيقا الاولى) نقول : حنين قطعة منه ، واسحق الباقي الى السرياني ، تيادروس الى العربي مع اصلاح حنين .

تفاسير : الاسكندر الى الاشكال الحملية تفسيران ، ثامسطيوس فسر المقالتين بثلاث مقالات ، يحيى النحوي حتى الاشكال ، قويري الى الثلثة الاشكال ، ابو بشر فسر المقالتين ، الكندي .

ولا ننسى ان سركيس الراسعيني يذكر مسألة « الشكل » في الاقيسة (٤٩) .

٤ ــ البرهان (ابوديقطيقا او انالوطيقا الثانية) نقول : حنين بعضه ، اسحق الكل الى السرياني والى العربي .

شروح وتفاسير : ثامسطيوس ، الاسكندر ، كلام فيه لابي يحيى المروزي ، ابو بشر متى ، الكندي ، الفارابي .

٥ ــ الجدل) طوبيقا (نقول : اسحق الى السرياني ، وهذه الترجمة نقلها يحيى بن عدي الى العربي ، ابو عثمان الدمشقي سبع مقالات ، ونقل ابراهيم بن عبدالله الثامنة .

تفاسير : الاسكندر لقسم من المقالة الاولى ، وكل المقالات ٥ ، ٦ ، ٧ ، ٨ ، ثم نقل امونيوس الاولى والمقالات ٢ ، ٣ ، ٤ . ونقل اسحق

تفسيري الاسكندر وامونيوس الى السرياني ، وابو عثمان الدمشقي الى العربي ، وفسر ثامسطيوس المواضع منه ، وللفارابي تفسير وتلخيص .

٦ ــ المغالطون (سوفسطيقا) نقول : ابن ناعمة الحمصي ، ابو بشر متى الى السرياني ، يحيى بن عدي الى العربي ، اصلح ترجمة ابن ناعمة ابراهيم بن بكوس العشاري .

تفاسير : (الاسكندر) ، قويري ، الكندي .

٧ ــ الخطابة (ريطوريقا) نقول : نقل قديم ، اسحق الى العربي ، ابراهيم بن عبدالله . تفاسير : الفارابي .

٨ ــ الشعر (بويطيقا) نقول : متى بن يونس من السرياني الى العربي ، يحيى بن عدي تفاسير : كلام لثامسطيوس .

مختصرات : الكندي .

يبان من هذا الاستعراض ان كتب ارسطو في المنطق ، كان بعضها معروفا بالسريانية قبل حنين ومدرسته ، وقد غدت معروفة كلها بالسريانية في عهده وعهد ابنه اسحق (٥٠) ، كما ان الترجمات العربية لهذه الكتب كانت معظمها متوفرة في هذه الفترة ، حتى اكتملت في زمن الفارابي بالذات او قبله بقليل (٥١) . فقد كان « اورغانون » ارسطو جاهزا بالعربية ايام الفارابي . سؤالنا الآن هو التالي : ألم يكن ليوحنا بن حيلان معلم الفارابي فضل في ذلك ، سيما ونحن سنرى كم كان عظيما دور الفارابي في استكمال الكتب المنطقية ودفع هذا العلم خطوات كبيرة الى الامام ؟

يسعفنا صاعد الاندلسي بقوله ان الفارابي اخذ صناعة المنطق عن يوحنا بن حيلان « فبذ جميع اهل الاسلام فيها ، وأتى عليهم في التحقق بها ، فشرح غامضها وكشف سرها وقرب تناولها وجمع ما يحتاج اليه منها

في كتب صحيحة العبارة لطيفة الاشارة ، منبها الى ما اغفله الكندي وغيره من صناعة التحليل وانحاء التعليم ، واوضح القول فيها عن مواد المنطق الخمس ، وافراد وجوه الانتفاع بها ، وعرف طرق استعمالها ، وكيف تصرف صورة القياس في كل مادة منها ، فجاءت كتبه في ذلك الغاية الكافية والنهاية الفاضلة » (٥٢) . ويؤكد ذلك القفطي ايضا مع ورود ايضاحات اخرى في كلامه ، لذا فاننا ننقله لزيادة الفائدة والكشف عن الامور . يقول القفطي ان الفارابي قرأ « العلم الحكمي على يوحنا ... واستفاد منه وبرز في ذلك على اقرانه ، واربى عليهم في التحقيق ، وشرح الكتب المنطقية ، واظهر غامضها ، وكشف سرها ، وقرب متناولها ، وجمع ما يحتاج اليه منها في كتب صحيحة العبارة ، لطيفة الاشارة ، منبهة على ما اغفله الكندي وغيره من صناعة التحليل وانحاء التعليم ، واوضح القول فيها عن طرق المنطق الخمسة ، وافاد الانتفاع بها ، وعرف طرق استعمالها ، وكيف يصرف صورة القياس في كل مادة منها ، فجاءت كتبه في ذلك الغاية الكافية والنهاية الفاضلة » (٥٣) . ويعيد ذلك ابن ابي اصيبعة وابن العبري (٥٤) .

فالفضل اذا ليوحنا في تنشئة الفارابي وتعليمه منطق ارسطو ،سواء بالاستعانة بالنقول العربية ، ام بالرجوع الى النص اليوناني الاصيل ، ولربما بالاسترشاد بالترجمة السريانية احيانا ، لان الفارابي ، ومعلمه كذلك ، كان يجيد اكثر من لغة ، واللغات المذكورة من ضمنها (٥٥).

كما بوسعنا استنتاج مدى تأثير يوحنا على تلميذه ابي نصر من الآثار التي تركها لنا الفارابي في المنطق . فانه ولو ان التاريخ لايذكر لنا نقولا أو شروحا او تصانيف في المنطق ليوحنا بن حيلان ، فهو يطلعنا بكل اسهاب على آثار الفارابي في هذا العلم .

ويذكر كتب الفارابي في المنطق كل من ابن النديم وصاعد والبيهقي والقفطي وابن ابي اصيبعة .

يكتفي صاحب الفهرست بذكر كتب الفارابي التاليـة التي تخص المنطق : مراتب العلوم ، تفسير كتاب ارسطو في القياس ، وقاطيغورياس، والبرهان ، وانا لوطيقا الثانية ، والخطابة ، والمغالطين على جهة الجوامع. وله جوامع لطاف لكتب المنطق (٥٦) . ويذكر له صاعد احصاء العلـوم وفي اغراض فلسفة افلاطون وارسطو . وفي هذا الاخير وصف لاغراض ارسطو في تآليفه المنطقية والطبيعية كتابا كتابا ، والكتابان المـذكوران لا مثيل لهما (٥٧) . ويقول البيهقي ان للفـارابي المختصر الاوسط في المنطق ، والمختصر الموجز ، وكتاب البرهان ، وجوامع كتب المنطق(٥٨). اما القفطي وابن أبي اصيبعة (٥٩) . وبعدهما كثيرون ، فيقدمان لنـا لائحة طويلة باسماء شروح او جوامع او تصانيف الفارابي ، نرتبهـا كمـا يلي :

اولا ـ الشروح والتفاسير والمختصرات

١ ـ شرح كتاب المقولات على جهـة التعليق ، شرح المواضـع المستغلقة من كتاب قاطيغورياس ويعرف بتعليقات الحواشي .

٢ ـ شرح كتاب باريمينياس علـى جهة التعليق ، مختصر كتـاب باريمينياس .

٣ ـ شرح كتاب القياس وهو الشـرح الكبير ، كتـاب القياس الصغير ، احصاء القضايا والقياسات التي تستعمل على العموم في جميع الصنائع القياسية ، تعاليق على كتاب القياس ، كتاب المقاييس مختصر .

٤ ـ شرح كتاب البرهان ، شرح كتاب البرهان على طريقةالتعليق

٥ ـ شرح المقالة الثانية والثامنة من كتاب الجدل ، كتاب المواضع المنتزعة من المقالة الثامنة في الجدل .

٦ ـ شرح كتاب المغالطـة .

٧ ــ شرح كتاب الخطابة •

٨ ــ شرح كتاب ايساغوجي لفرفوريوس •

٩ ــ جوامع لكتب المنطق •

ثانيـا ــ التآليف

١ ــ كتاب المختصر الكبير ، كتاب المختصر الصغير

٢ ــ كتاب المدخل الى المنطق او التوطئة في المنطق

٣ ــ كتاب احصاء العلوم والتعريف باغراضها او ترتيبها ، كتاب مراتب العلوم

٤ ــ كتاب غرض المقولات

٥ ــ كتاب القياس الصغير ، كتاب شروط القياس ، كتاب اكتساب المقدمات وهي المسماة بالمواضع وهي التحليل ، كلام في المقدمات المختلطة من وجودي وضروري ، كتاب اصناف الاشياء البسيطة التي تنقسم اليها القضايا في جميع الصنائع القياسية •

٦ ــ كتاب البرهان ، كتاب شرائط البرهان

٧ ــ كتاب الجدل ، كتاب الرد على ابن الراوندي ، في ادب الجدل

٨ ــ كتاب المواضع المغلطة

٩ ــ صدر لكتاب الخطابة ، كتاب في الخطابة كبير بعشرين مجلدا

١٠ ــ كلام في الشعر والقوافي

١١ ــ كتاب عيون المسائل على رأي ارسطو

١٢ ــ كتاب اغراض ارسطو في كل واحد من كتبه (المنطقية)

١٣ ـ كتاب اغراض افلاطون وارسطوطاليس

١٤ ـ كتاب اسم الفلسفة ، في الفلسفة وسبب ظهورها •

١٥ ـ في ما ينبغي ان يتقدم الفلسفة او في الاشياء التي يحتاج ان تعلم قبل الفلسفة •

فهو تراث ضخم ما خلفه لنا الفارابي في المنطق ، فضلا عن اهتمامه بالعلوم الفلسفية الاخرى •

غير اننا لا نملك حاليا من شروح وتآليف الفارابي في المنطق سوى الاثار التالية :

١ ـ شرح كتاب العبارة ، وقد نشره اليسوعيان واهلم كوتش وستانلي مارو في بيروت عام ١٩٦٠ •

٢ ـ تفسير المقولات ، مخطوطتا الاسكوريال ٦١٢ ومونيخ ٣٠٧•

٣ ـ تفسير الانالوطيقا الاولى ، مخطوطة الاسكوريال ٦١٢ ؛ مع مختصر (مخطوطة مانشستر ٣٧٤) •

٤ ـ تفسير الايساغوجي لفرفوريوس Bodl. 1, 457.

٥ ـ احصاء العلوم ، نشره الدكتور عثمان امين في القاهرة سنة ١٩٣١ ، وطبع طبعة ثانية سنة ١٩٤٨ • وكان قد نشره المستشرق انجيل غنصليس بلانسية في مدريد سنة ١٩٣٢ وطبع طبعة اخرى سنة ١٩٥٣ •

٦ ـ كتاب الالفاظ المستعملة في المنطق ، نشره الاستاذ محسن مهدي في بيروت سنة ١٩٦٨ •

٧ ـ وقد طبع شتاينشنيدر ، مع ترجمة عبرية ، الكتب التالية : شرح القياس ، كلام (قول) في شرائط اليقين (انالوطيقا الثانية) ، طوبيقا ، سوفسطيقا ، فصول يحتاج اليها في صناعة المنطق

M. STEINSCHNEIDER, Al-Farabi, des Arabischen Philosophen Leben und Schriften, St. Petersbourg 1869.

٨ ــ وثمة باللاتينية تفسير في الخطابة لارسطو :

Declaratie Compendiosa supra libris rethericorum Aristetelis, Venet. 1464; Rethorica Aristotelis cum fundatissimi artium et theologiae doctoris Egidij de Roma... nec non Alpharabij compendiesa declaratione, addita ejusdem Arist. Poetica magni Averroys in eamdem Summa, Venet. 1515. (٦٠)

٩ ــ وقد طبع ديتيريتشي عدة مقالات للفارابي

F. DIETERICI, Leiden, 1895. (٦١)

١٠ ــ وكذلك طبعت للفارابي مقالات ومسائل في حيدر آباد يهمنا منها : رسالة في مسائل متفرقة سنة ١٣٤٤/١٩٢٥ ، رسالة في فضيلة العلوم والصناعات سنة ١٣٤٠/١٩٢١ (٦٢) .

طريقة تحصيله العلم ووضعه تاليفه

يصف لنا حنين بن اسحق الطريقة التي كان يسير عليها المتعلمون منذ ايام الاسكندرانين وحتى ايامه . وليس من المستبعد أن تكون هي الطريقة التي اتبعها يوحنا بن حيلان في تدريسه المنطق . فبعد أن يورد اهم كتب جالينوس الحكيم يقول حنين : « كانوا يقرؤنها (الكتب) على هذا الترتيب الذي اجريت ذكرها عليه ، وكانوا يجتمعون في كل يوم على قراءة امام منها وتفهمه ، كما يجتمع اصحابنا اليوم من النصارى في مواضع التعليم التي تعرف بالاسكول في كل يوم على كتاب امام ، اما من كتب المتقدمين ، واما من سائر الكتب . وانما كانوا يقرؤونها الافراد كل واحد على حدته بعد الارتياض بتلك الكتب التي ذكرت ، كما يقرأ اصحابنا اليوم كتب المتقدمين » (٦٣) . ويضيف مايرهوف انه « على هذا النحو

بقيت الدراسة في الشرق والغرب طوال العصور الوسطى ، بل لا تزال باقية حتى اليوم في الشرق الاسلامي • ويكفي ان يدخل المرء مسجدا من هذه المساجد التي تعقد فيها حلقات الدرس ليرى امامه الدراسة على هذه الصورة الموجودة بالاسكندرية : يقرأ التلميذ امام استاذه قطعة من كتاب رئيسي ، وحينئذ يتقدم الاستاذ بالشرح والقاء الاسئلة » (٦٣)•

ويفيدنا ابن خلكان بما يشبه ذلك لدى تعرضه لمجلس ابي بشر متى ابن يونس ، فيقول انه كان « يجتمع في حلقته كل يوم المئون من المشتغلين بالمنطق ، وهو يقرأ كتاب ارسطوطاليس في المنطق ، ويملي على تلامذته شرحه ••• وكان يستعمل في تصانيفه البسط والتذييل ، حتى قال بعض علماء هذا الفن ما ارى ابا نصر الفارابي اخذ طريق تفهيم المعاني الجزلة بالالفاظ السهلة الا من ابي بشر » • فقد كان الفارابي ـ حسب رواية ابن خلكان ـ يحضر حلقة متى بن يونس في غمار تلامذته ، وذلك قبل ان يأخذ « طرفا من المنطق » على يد يوحنا (٦٤) •

كان المعلم يقرأ النص • باصيله اليوناني ، او بترجمته العربية ، او يوعز الى احد تلامذته فيقرأه على مسمع من الجميع ، ثم يأخذ بتفسيره شارحا فحواه ، وقد يملي على التلاميذ شرحه للنص •

ولزيادة في التعرف على النهج المتبع في التحصيل المنطقي ، بوسعنا ان نتناول شرح الفارابي لكتاب العبارة لارسطو ، كمثال لاغير • فان ابا نصر ، بعد أن يعرض بمقدمة وجيزة غرض المعلم الاول ارسطو من كتابه هذا ، يأخذ في سرد اجزاء الكتاب ذاكرا ما يحتوي عليه كل جزء ، دون ان يغفل العنوان كاملا مع تعليق عليه وارجاعه الى الفرع من العلوم الذي ينسبه اليه واعلان مرتبته من الكتب الاخرى • ثم يشرع بعد ذلك بتفسير اقوال الحكيم اليوناني قطعة فقطعة ، قد تطول او تقصر وفقا لمعناها •وهو للتمييز بين كلامه وشرحه وكلام ارسطو وعبارته ، يستخدم كلمة «فقال» او « قوله » وما شابه ذلك للدلالة على كلام ارسطو ، وعبارة « ويريد

بقوله » او « اراد » او « يقصد » او « يعني » للدلالة على شرحه هو .

اما في التآليف فيعرض الفارابي غرضه من الكتاب او المقالة ، ثم يبدأ بحثه معددا الفصول او الاقسام التي يشتمل عليها ، ثم يأخذ بتناولها شيئا فشيئا حتى يختم الموضوع .

الفارابي يقيم صناعة المنطق

ان تضلع ابي نصر الفارابي من علم المنطق على يد يوحنا معلمه خاصة كان بمقدار كبير ، كما يشهد له بذلك المؤرخون . فصاعد يعتبره متفوقا على جميع اهل الاسلام في صناعة المنطق (٦٥) ، ويخلد البيهقي اربعة فلاسفة عظام ، ارسطو والاسكندر الافروديسي قبل الاسلام، والفارابي وابن سينا بعده (٦٦) . ويضعه القفطي في مرتبة تفوق سائر اقرانه في التحقيق وشرح الكتب المنطقية (٦٧) . وكذلك البيهقي وابن ابي اصيبعة وابن العبري ، منبهين الى ان من سبقوه كانوا يتعلمون الصناعة حتى الاشكال الوجودية ، بينما تعلم الفارابي الى آخر كتاب البرهان، ونبه الاخرين الى ما اغفله الكندي وغيره من صناعة التحليل وانحاءالتعليم وشرح الكتب المنطقية كلها . حتى انه ـ يضيف ابن ابي اصيبعة ـ عندما سئل : من أعلم، انت امارسطو ؟ اجاب: لو أدركته لكنت اكبر تلاميذه(٦٨)

ولكن لم كل هذا الاهتمام بالمنطق ؟ وما قيمة هذا المعلم ؟

سبق وان ذكرنا بعض الشيء فيما يفسر ذلك . نضيف أنه من اهتمامات العرب الاولى بالعلوم ، اهتمامهم بعلم المنطق . ويفيدنا المؤرخون المسلمون أنه في مقدمة العلوم التي ركز عليها العرب في صدر الاسلام ، ثم في عهد الخلافة العباسية وفي عهد المأمون خاصة ،علم الطب، وبجانبه من علوم الفلسفة علم المنطق، وعلم النجوم او الفلك ، ثم الرياضيات وغيرها (٦٩). وقد اقتبسوا هذه العلوم من اليونان بواسطة نقول متعددة قام بها الناطقون بالسريانية خاصة ، ثم طوروا هذه العلوم ونهضوا بصرح

الحضارة العربية خير نهوض .

ولنترك الكلام للفارابي عينه يحدثنا عن المنطق في اكثر من كتاب له.

ففي كتابه الشهير الموسوم (في احصاء العلوم) ، والذي كان فتحا في باب تصنيف العلوم وتقييمها ، يعقد الفارابي فصلا خاصا في المنطق، هو الفصل الثاني ، يذكر فيه منفعة المنطق ، وموضوعاته ، واجزاءه .

« المنطق » مشتق من النطق . وهذه اللفظة تقال عند القدماء على ثلاثة معان : احدهما القول الخارج بالصوت ... والثاني القول المركوز في النفس ... والثالث القوة النفسانية المنظورة في الانسان ، التي بها يميز التمييز الخاص بالانسان دون ما سواه من الحيوان ، وهي التي بها يحصل للانسان المعقولات ... (٧٠) ، وان المنطق يعطي قوانين في النطق بانواعه الثلاثة المذكورة .

و « صناعة المنطق تعطي بالجملة القوانين التي شأنها ان تقوم العقل وتسدد الانسان نحو طريق الصواب ونحو الحق في كل ما يمكن ان يغلط فيه من المعقولات ، والقوانين التي يمتحن بها في المعقولات ما ليس يؤمن ان يكون قد غلط فيها غالط » . او ، كما يقول في (كتاب الالفاظ المستعملة في المنطق) « الغرض في هذه الصناعة هو تعريف جميع الجهات وجميع الامور التي تسوق الذهن الى ان ينقاد لحكم ما على الشيء انه كذا أو ليس كذا » (٧١) .

لذا فان هذه الصناعة تناسب صناعة النحو « ذلك ان صناعة المنطق الى العقل والمعقولات كصناعة النحو الى اللسان والالفاظ » ، وهي « تناسب ايضا علم العروض » (٧٢) .

ويشبه الفارابي القوانين المنطقية بآلات « يمتحن بها في المعقولات ما لا يؤمن ان يكون العقل قد غلط فيه او قصر في ادراك حقيقة تشبه الموازين والمكاييل التي هي آلات يمتحن بها في كثير من الاجسام» (٧٣).

مما سبق تبدو جلية فائدة هذه الصناعة ، فهي « وحدها تكسبنا القدرة على تمييز ما تنقاد اليه اذهاننا هل هو حق او باطل » [٧٤] .

فالمنطق ضروري « في كل ما نلتمس تصحيحه عند انفسنا ، وفيما نلتمس تصحيحه عند غيرنا ، وفيما يلتمس غيرنا تصحيحه عندنا ... واذا جهلنا المنطق كانت حالنا في جميع هذه الأشياء بالعكس وعلى الضد ... فانا ان جهلنا المنطق لم نقف من حيث يتقن على صواب ما اصاب منهم كيف أصاب ومن اي جهة اصاب ، وكيف صارت حجته توجب صحة رأيه ... وهذه الاشياء تعرض لنا من الناس الذين يدعون عندنا الكمال في العلوم . فانا ان جهلنا المنطق ولم يكن معنا ما نمتحنهم به ، فاما ان نحسن الظن بجميعهم ، واما ان تتهم جميعهم ، واما ان نشرح في ان نميز بينهم ، فيكون كل ذلك منا بلا تثبت ومن حيث لا تنيقن » [٧٥].

اما موضوعات المنطق « فهي المعقولات من حيث تدل عليها الالفاظ ، والالفاظ من حيث هي دالة على المعقولات » ، فنحن انما نصحح الرأي بواسطة التفكير والامعان والتقييم ، لذلك نحتاج «الى قوانين تحوطنا في المعقولات وفي العبارة عنها ، وتحرسنا من الغلط فيها » ، لذا فالمنطق يقدم لنا القوانين سواء في ما نعقله ام في ما نعبر عنه بالنطق . والمنطق في ذلك « يشارك النحو بعض المشاركة بما يعطي من قوانين الالفاظ ، ويفارقه في ان علم النحو انما يعطي قوانين تخص الفاظ امة ما ، وعلم المنطق انما يعطي قوانين مشتركة تعم الفاظ الامم كلها » [٧٦] .

واجزاء المنطق ثمانية : « وذلك ان انواع القياس وانواع الاقاويل التي يلتمس بها تصحيح رأي او مطلوب في الجملة ثلاثة . وانواع الصنائع التي فعلها بعد استكمالها ان تستعمل القياس في المخاطبة في الجملة خمسة : برهانية وجدلية وسوفسطائية وخطبية وشعرية » . ويشرح الفارابي ذلك بقوله : « فالبرهانية هي الاقاويل التي شأنها ان

تفيد العلم اليقين في المطلوب الذي نلتمس معرفته ، سواء استعملها الانسان فيما بينه وبين نفسه في استنباط ذلك المطلوب ، او خاطب بها غيره •••• والاقاويل الجدلية هي التي شأنها ان تستعمل في أمرين: احدها ان يلتمس السائل بالاشياء المشهورة التي يعترف بها جميع الناس ••• والثاني ان يلتمس بها الانسان ايضاح الظن القوي في رأي قصد تصحيحه ، حتى يخيل انه يقين من غير ان يكون يقينا •والاقاويل السوفسطائية هي التي شأنها ان تغلط وتضلل وتلبس وتوهم فيما ليس بحق انه حق ••• والاقاويل الخطبية هي التي شأنها ان يلتمس بها اقناع الانسان في اي رأي كان ، وان يميل ذهنه الى ان يسكن الى ما يقال له ويصدق به تصديقا ما ، اما اضعف واما اقوى ••• والاقاويل الشعرية هي التي تركب من اشياء شأنها ان تخيل في الامر الذي فيه المخاطبة »• لذا فان اصناف القياسات والصنائع القياسية وانواع المخاطبات خمسة : يقينية ، وظنية ، ومغلطة ، ومقنعة ، ومخيلة « وكل واحدة من هذه الصنائع لها اشياء تخصها ، ولها اشياء اخر تشترك فيها»، وهي اما « مركوزة في النفس » ام « خارجة بالصوت » ، كما انها «مركبة» من « اقاويل بسيطة » (٧٧) •

وبصدد اجزاء المنطق نلقي التقسيم عينه في « كتاب الالفاظ المستعملة في المنطق » اذ يقول : « واما عدد اجزاء الصناعة فهو على عدد اصناف انقياد الذهن ، وعلى عدد الاشياء التي شأنها ان تتقدم تلك الامور • واصناف تلك الامور فهي خمسة ••• والاشياء التي تتقدمها ثلاثة ••• فاجزاء صناعة المنطق ثمانية » • يتناول الجزء الاول منها المعقولات المفردة او المقولات (قاطيغورياس) ويتناول الثاني المقدمات او العبارة (باريرمينياس) • وفي الثالث يتبين امر القياس المطلق او التحليلات الاولى (انالوطيقا الاولى) • بينما يتبين في الجزء الرابع امور البراهين او التحليلات الاخيرة (انالو طيقا الثانية)•ويبحث الجزء الخامس في الاشياء الجدلية (٧٨) •

فالمنطق يبدأ بالبرهان الاستدلالي ، ولكنه غير ممكن اذا لم ينسنى للقياس السلجستي ان يسوق اليه . وهذا يفترض القضية . والقضية تتألف من حدود يوافق كل منها احدى المقولات . ويقوم الى جانب القياس السلجستي القياس الجدلي ، ويأتي « المغالطون » لاثبات ما يمكن ان ينشأ من غلط (٧٩) .

« فاما مرتبة هذه الصناعة بحسب قياسها الى سائر الصنائع فانها تتقدم جميع الصنائع التي تشتمل عليها صناعة الفلسفة » (٨٠) .

ويقول الفارابي ان لارسطو كل الفضل في ابداع المنطق ، فهو « المنشيء لهذه (الصناعة) والمثبت لها » (٨١) . وهذا ما يذكرنا بكل ما كان متداولا في عهد الفارابي وقبله في الاوساط العربية والاسلامية وغيرها (٨٢) .

وكما فعل فرفوريوس الصوري فألف مدخلا الى المنطق بعنوان الايساغوجي ، والذي عرفه العرب واستفادوا منه كثيرا ، كذلك صنف الفارابي كتابا سماه « المدخل الى المنطق » او « التوطئة في المنطق » ، واننا نظنه « كتاب الالفاظ المستعلمة في المنطق » الذي استشهدنا به اكثر من مرة . اما اول كتاب منطقي فهو المقولات ، يليه كتاب العبارة ، فالقياس ، والبرهان ، والجدل ، والمغالطون ، والخطابة ، فالشعر (٨٣) .

« وليس منطق الفارابي مجرد تحليل للتفكير العلمي ، بل هو يشتمل الى جانب هذا على كثير من الملاحظات النحوية ، كما انه يشتمل على مباحث في نظرية المعرفة » (٨٤) .

اما ما كان يأتي بعد كتب المنطق ، حسب الفارابي ، فالكتب الثمانية التي تبحث في الطبيعيات ، وفي مقدمتها « السماع الطبيعي » او كما يسميه الفارابي «سمع الكيان» او «في ما ينبغي ان يتقدم الفلسفة» (٨٥) .

الهوامش والمصادر

(١) عن حياة الفارابي انظـر :

المسعودي ، التنبيه والاشراف ، القاهرة ١٩٣٨/١٣٠٧ ، ١٠٥ ـ ١٠٦ .

ابن النديم ، الفهرست ، (ط فلوجل ، ٢٦٣) ، تحقيق رضـا ـ تجدد ، ٣٢١ ـ ٣٢٢ (وسنعتمد هذه الطبعة) .

صاعد الاندلسي ، طبقات الامم ، ط الاب شيخو ، بيروت ١٩١٢، ٥٣ ـ ٥٤ .

البيهقي ، تتمة صوان الحكمة ، ط محمد شافع ، لاهور ١٩٣٥ ، ١٦ ـ ٢٠ .

القفطي ، تاريخ الحكماء ، ليبسك ١٩٠٣/١٣٢٠ ، ٢٧٧ ـ ٢٨٠.

ابن ابي اصيبعة ، عيون الانباء في طبقات الاطبـاء ، تحقيق نـزار رضا ، بيروت ١٩٦٥ ، ٦٠٤ ـ ٦٠٩ (اننا نستشهد بهذه الطبعة . امـا حسب المطبعة الوهبية لسنة ١٨٨٢/١٢٩٩ فهي في الصفحات ١٣٤ ـ ١٤٠) .

ابن خلكان ، وفيات الاعيان ، القاهرة ١٩٤٨ ، رقم ٦٧٧ ، ٢٣٩ ـ ٢٤٣ .

ابن الاثير ، الكامل في التاريخ ، بيروت ١٣٨٧ /١٩٦٧ ، ج ٦ ، ٣٣٧ (اي تحت سنة ٣٣٩ هـ) .

ابن كثير ، البداية والنهاية في التاريخ ، مصر ، ج ١١ ، ٢٢٤.

ابن العبري ، مختصر تاريخ الدول ، بيروت ١٩٥٨ ، ١٧٠ .

الشهرزوري ، نزهة الارواح وروضة الافراح ، مخطوطة ، نسخة في مكتبة المتحف العراقي .

هذا عدا مصنفات المحدثين التي سيأتي ذكر أهمها في الهوامش اللاحقــة .

(٢) ان الاستاذ ماكس مايرهوف وحده حاول اماطة اللثام عن هذه الشخصية المغمورة ، الا انه لم يترك لنا سوى بضعة اسطر لا تشفي غليلا. انظر : التراث اليوناني في الحضارة الاسلامية ، دراسات لكبار المستشرقين، ترجمة عبدالرحمن بدوي ، القاهرة ١٩٦٥ ، من الاسكندرية الى بغداد ، ٣٧ ــ ١٠٠ ، وخاصة ص ٧٥ .

(٣) التنبيه والاشراف ، ١٠٦

(٤) طبقات الامم ، ٥٣

(٥) الكامل في التاريخ ، جـ ٦ ، ٣٣٧

(٦) تاريخ الحكماء ، ٢٧٧

(٧) « كتاب في الفلسفة وسبب ظهورها » (القفطي ، ٢٨٠) ، او « كتاب في اسم الفلسفة وسبب ظهورها واسماء المبرزين فيها وعلى من قرأ منهم » (ابن ابي اصيبعة ٦٠٨ ، وانظر كذلك ص ٦٠٥)

(٨) عيون الانباء ، ٦٠٥

(٩) وفيات الاعيان ، رقم ٦٧٧ ، جـ ٤ ، ٢٣٩

(١٠) تاريخ مختصر الدول ، ١٧٠

(١١) التنبيه والاشراف ، ١٠٥

(١٢) طبقات الامم ، ٥٣

(١٣) تاريخ الحكماء ، ٢٧٧

(١٤) تاريخ مختصر الدول ، ١٧٠

(١٥) الكامل في التاريخ ، جـ ٨ ، ٤٩١

(١٦) التنبيه والاشراف ، ١٠٥ ــ ١٠٦

(١٧) ماكس ، مايرهوف ، من الاسكندرية الى بغداد ، ٦٣ ــ ٦٤

(١٨) عيون الانباء ، ٦٠٥

(١٩) مايرهوف ، المصدر السابق ، ٤٥ ــ ٤٦ و ٦٥ ــ ٦٧

(٢٠) وفيات الاعيان ، جـ ٤ ، ٢٣٩

(٢١) كانت مدرسة الكنيسة او الدير « اسكولا » ، واصل اللفظة يونانية . وعن دور الناطقين بالسريانية ومراكزهم الثقافية في تكوين الحضارة العربية كتب الكثيرون ، سيأتي ذكر بعضهم . وانظر خاصة: حسين قاسم العزيز ، دور المراكز الثقافية في تفاعل العرب والمسلمين الحضاري ، مهرجان افرام وحنين ، بغداد ١٩٧٤ ، ٣٨٣ ــ ٤١٣ .

(٢٢) عن هذا كله راجع أمهات الكتب في تاريخ الآداب والعلوم السريانية بشتى اللغات واهمها بالعربية : المطران ادي شير ، تاريخ كلدو واثور ، الجزء الثاني ، بيروت ١٩١٣ .

البطريرك اغناطيوس افرام الاول برصوم ، تاريخ اللؤلؤ المنثور في تاريخ العلوم والاداب السريانية ، ط١ ، حمص ١٩٤٣ ، ط ٢ ، حلب١٩٥٦

مراد كامل ــ محمد حمدي البكري ، تاريخ الادب السرياني من نشأته الى الفتح الاسلامي ، القاهرة ١٩٤٩ .

الاب البير ابونا ، ادب اللغة الارامية ، بيروت ١٩٧٠

وبالسريانية : جدول عبد يشوع الصوباوي ، ط ابراهيم الحاقلاني، روميه ١٦٥٣ ، وتكملة السمعاني ، المكتبة الشرقية ، م ٣ ، جـ ١ ، ثم مخطوطة الانبا شموئيل جميل . واننا نعد دراسة وطبعة له .

باللغات الاخرى :

A. BAUMSTARK, Geschichte der syrischen Literatur, Bonn 1922;

R. DUVAL, La littérature syriaque, Paris 1899;

J. - B. CHABOT, Littérature syriaque, Paris 1934.

Ortiz de URBINA, Patrologia Syriaca, Romae 1965.

(٢٣) الفهرست ، ٣٢١ ــ ٣٢٢ ، عيون الانباء ، ٣١٦ ــ ٣١٧

(٢٤) تاريخ الحكماء ، في مواضع شتى

(٢٥) مايرهوف ، من الاسكندرية الى بغداد ، ٧٠ فما بعدها

(٢٦) المسعودي ، التنبيه ، ١٠٥ ، ابن ابي اصيبعة ، ٦٠٥

(٢٧) عيون الانباء ، ٦٠٥ ، مايرهوف ، ٧٤

(٢٨) ابن النديم ، ٣٢١ ، القفطي ، ٧٧ ، ابن ابي اصيبعة ، ٣١٦

(٢٩) ابن النديم ، ٣٢٢ ، القفطي ، ٢٣٥ ، ابن ابي اصيبعة ٦٠٥ و ٣١٦

(٣٠) ابن النديم ، ٣٢٢ ، القفطي ، ١٦٩ ، ابن ابي اصيبعة، ٣١٦

(٣١) الفهرست ، ٣٢٢ ، تاريخ الحكماء ، ٣٢٣ ، عيون الانباء ، ٣١٧ ، تاريخ مختصر الدول ، ١٦٤ ، التنبيه والاشراف ، ١٠٦

(٣٢) ويشط او ليرى اذ يقول بان اهتمامهم كان مقتصرا على المنطق وحده ، انظر : د . لاسي او ليري ، علوم اليونان وسبل انتقالها الى العرب ، ترجمة وهيب كامل ، القاهرة ١٩٦٢ ، ٩٣ .

راجع الهامش ٢٢ ، وايضا :

E. RENAN, De philosophia peripatetica apud Syros, Paris 1852; A. BAUMSTARK, Aristoteles bei den Syrern ven V. bis VIII. Jahrhunderte, Leipzig 1900.

(٣٣) طبقات الامم ، ٥٣

(٣٤) تاريخ الحكماء ، ٢٧٧ ، تاريخ مختصر الدول ، ١٧٠

(٣٥) عيون الانباء ، ٣١٧

(٣٦) وفيات الاعيان ، ٢٣٩

(٣٧) ابن ابي اصيبعة ، ٣١٧

(٣٨) عيون الانباء ، ٣١٧

(٣٩) مايرهوف ، ٤٤

(٤٠) بول كروس ، التراجم الارسطالية المنسوبة الى ابن المقفع، تراث الاسلام ، ١٠٩ ، دي بور ، تاريخ الفلسفة في الاسلام ، ت محمد عبد الهادي ابو ريدة ، القاهرة ١٩٣٨ ، ٢٠

(٤١) عيون الانباء ، ٣١٧

(٤٢) L'Organon d'Aristete chez les Arabes, Paris 1934.

تعريب عبد الرحمن بدوي بعنوان « منطق ارسطو » ، القـاهرة ١٩٤٨ ـ ١٩٥٢

(٤٣) ابن النديم ، ٣٠٩ ـ ٣١٠ ، القفطي ، ٣٤ ـ ٣٨ ، ابن ابي اصيبعة ٩٢ ـ ٩٣

(٤٤) الفارابي ، احصاء العلوم ، تحقيق الدكتور عثمان امين ،مطبعة الاعتماد بمصر ، ط ٢ ، القاهرة ١٩٤٨ ، ٦٣ ـ ٧٢ . ولنلاحظ ان كلامه هذا ينقله المؤرخون الانفو الذكر (هامش ٤٣) بنوع يكاد يكون حرفيا .

(٤٥) الفارابي ، كتاب الالفاظ المستعملة في المنطق ، تحقيق محسن مهدي ، بيروت ١٩٦٨ ، ١٠٤

(٤٦) الفهرست ، ٣٠٩ ـ ٣١٠

(٤٧) تاريخ الحكماء ، ٣٤ ـ ٣٨

(٤٨) عيون الانباء ، ٩٢ ـ ٩٣

(٤٩) A. Baumstark, Geschichte der syrischen Literatur, 168

(٥٠) عن آثار حنين بن اسحق (المتوفى ٢٦٠/٨٧٣) وابنه اسحـق (المتوفي ٢٩٨ ـ ٢٩٩ / ٩١٠ ـ ٩١١) ونقولهم لكتب المنطق خاصة انظر: ابن النديم ، ٣٥٢ و ٣٥٦ ، ابن جلجل ، طبقات الاطباء والحكماء ، ٦٨ ، صاعد ، ٣٧ ، البيهقي ، ٣ ـ ٤ ، القفطي ، ٣٥ ـ ٣٦ ، ابن ابي اصيبعة، ٢٥٧ ـ ٢٧٥ ، حاجي خليفة ، كشف الظنون ، ٢ و ٥ والخ .

وانظر : عامر رشيد السامرائي ـ عبد الحميد العلوجي ، آثار حنين ابن اسحاق ، بغداد ١٩٧٤ ، ومقالات كتاب مهرجان افـرام وحنين ، بغداد ١٩٧٤ .

(٥١) راجع جدول عبد يشوع الصوباوي وفيه اكثر من اشارة الى اشتغال بعض المؤلفين الناطقين بالسريانية بالمنطقيات وترجمتهم لبعض كتب ارسطو . كما يأتي تأكيد المؤرخين بان كتب ابي بشر متى بن يونس في المنطق هي المعول عليها في زمانه في كل بلدان المشرق ، مطابقا لما قلناه. كل ذلك يحملنا على القول ان الناطقين بالسريانيـة كانوا ، حتى العصـر

العباسي ، يعنون بكتب المنطق الثلاثة الاولى ، لكنهم شرعوا يعنون بها كلها ، سيما بعد قيام بيت الحكمة في بغداد ونبوغ آل حنين في الترجمة. اما الترجمات السريانية القديمة للاورغانون فكانت تقف عند الفصل السابع من التحليلات الاولى (انالو طيقا الاولى) . فنحن نقرأ ص ٢١٢ من مخطوطة رقم ٣٣٨ محفوظة في مكتبة جامعة القديس يوسف ببيروت « تم كتاب انولو طيقا وليس بعده من هذه الكتب الا كتاب افود الطبيعي (أي السماع الطبيعي) ولم منعنا من استقرائه الا ما قدمنا في صدر الكتاب جماعا رأينا كافيا عن التفسير » . انظر :

FURLANI, Di una presunta versione araba d'alcuni scritti di Porfirio ed'Aristotele, Rendic, d. R. Accademia Naz. dei Lincei, Cl. di sc. stor. efil. II (1962), 205-13; M. STEINSCHNEIDER, Al'Farabi, des Arabischen Philosophen Leben und Schriften, Memeires de L'Académie imp. des sciences de St, Petersbourg XIII, 4, 1869.

(٥٢) طبقات الامم ، ٥٣ . وينقل ذلك ابن ابي اصيبعة ايضا ، ٦٠٥

(٥٣) تاريخ الحكماء ، ٢٧٧

(٥٤) عيون الانباء ، ٦٠٦ ، تاريخ مختصر الدول ، ١٧٠

(٥٥) يقول ابن خلكان ان الفارابي « يعرف اللسان التركي وعدة لغات غير العربي » ، ويروي عنه دخوله الى مجلس سيف الدولة بدمشق وادعاؤه انه يحسن « اكثر من سبعين لسانا » (وفيات الاعيان ، رقم ٦٧٧ ، جـ ٤ ، ٢٣٩ و ٢٤١) .

H. CORBIN, Histoire de la philosophie islamique, Paris 1964, 223.

(٥٦) الفهرست ، ٢٦٣

(٥٧) طبقات الامم ، ٥٤

(٥٨) تتمة صوان الحكمة ، ١٧

(٥٩) تاريخ الحكماء ، ٢٧٧ ـ ٢٧٨ ، عيون الانباء ، ٦٠٨ ـ ٦٠٩

(60) A. NAGY, Notizie intorno alla retorica d'Al Farabi.

Rendi Centi dell'Accademia R. d. Lincei 1893, 11, 684-91

(61) Cfr. C. BROCKELMANN, Geschichte der arabischen Literatur, I, 210; SI, 375; I. MADKOUR, La place d'Al-Farabi dans l'école philosophique musulmane, Paris 1934; R. WALZER, Al-Farabi, Encyclop. of Islam, New Ed., II, Leide-London 1965, 778-81.

(62) Cfr. L. LECLERC, Histoire de la médecine arabe, I, Paris 1876, 359-61; S. M. PLESSNER, Al-Farabi über Medizin, eine übersehene und eine neuentdekte Quelle, XXI Congr. Intern. St. Med. 1970, 1533 - 9; F. SEZGIN, Geschichte des Arabischen Schrifttums, III, 298-300; IV, 288-9.

خير الدين الزركلي ، الاعلام ، ط ٣ بيروت ١٩٦٩ ، جـ ٧ ، ١٤٢.

(٦٣) مايرهوف ، من الاسكندرية الى بغداد ، ٥٢

(٦٤) وفيات الاعيان ، جـ ٤ ، ٢٣٩

(٦٥) طبقـات الامم ، ٥٣

(٦٦) تتمة صوان الحكمة ، ١٦

(٦٧) تاريخ الحكماء ، ٢٧٧ . وكذلك ابن العبري ، ١٧٠

(٦٨) عيون الانباء ، ٦٠٦

(٦٩) انظر مثـلا : صاعد ، ٤٩ ، اوليري ، علوم اليونان وسبـل انتقالها الى العرب ، من ٢١٢ الى الاخير ، محمد عبد الرحمن مرحبا ، من الفلسفة اليونانية الى الفلسفة الاسلامية ، بيروت ١٩٧٠ ، محمـد علي ابو ريان ، تاريخ الفكر الفلسفي في الاسلام ، بيروت ١٩٧٠ ،اسماعيل مظهر ، تاريخ الفكر العربي ، بيروت ، ادوارد جي براون ، الطب العربي، ت داود سلمان علي ، بغداد ١٩٦٤ ، احمد فريد رفاعي ، عصر المأمون، القاهرة ١٩٢٨ ، حميد موراني ـ عبد الحليم منتصر ، قراءات في تاريخ العلوم عند العرب ، الموصل ١٩٧٤ .

(٧٠) احصاء العلوم ، ٦٢ . والكثير من اقوال الفارابي هذه ينقلها المؤرخون العرب حرفيا . انظر ابن ابي اصيبعة ، ٩٢ ــ ٩٣

(٧١) كتاب الالفاظ المستعملة في المنطق ، ١٠٤

(٧٢) احصاء العلوم ، ٥٤ و ٥٩

(٧٣) المصدر السابق ، ٥٤

(٧٤) كتاب الالفاظ المستعملة في المنطق ، ١٠٤

(٧٥) احصاء العلوم ، ٥٥ ـ ٥٨

(٧٦) المصدر السابق ، ٥٩ ـ ٦٠

(٧٧) المصدر عينه ، ٦٣ ـ ٦٤ و ٧٠

(٧٨) كتاب الالفاظ المستعملة في المنطق ، ١٠٤

(٧٩) لويس غرديه ـ ج . قنواتي ، فلسفة الفكر الديني بين الاسلام والمسيحية ، ت صبحي الصالح ـ فريد جبر ، بيروت ١٩٦٧ ، ١٧٥ـ ١٧٦

(٨٠) كتاب الالفاظ المستعملة في المنطق ، ١٠٨

(٨١) المصدر السابق ، ١٠٩

(٨٢) المسعودي ، ١٠٠ ، صاعد ، ٢٤ ـ ٢٦ ، ابن ابي اصيبعة ، ٩٢ والـخ .

(٨٣) كتاب الالفاظ المستعملة في المنطق ، ١١١ ، احصاء العلوم ، ٦٢ ـ ٧٢

(٨٤) دي بور ، تاريخ الفلسفة في الاسلام ، ١٣٥

(٨٥) المصدر السابق ، ١٣٢ هامش ٢

دراسات في العصر السلجوقي
(الأمير جاولي سقاوة)

الدكتور رشيد الجميلي
كلية الآداب - جامعة بغداد

ظهرت خلال العصر السلجوقي شخصيات هامة لعبت دورا بارزا في احداث التاريخ السلجوقي ومن بين تلك الشخصيات • الوزراء والحجاب وأمراء العسكر وحكام الاقاليم وأمراء الاطراف • وسنحاول في هذه الصفحات التعريف باحدى الشخصيات السلجوقية التي شاركت في رسم احداث التاريخ السلجوقي في اواخر القرن الخامس الهجري وحتى مطلع القرن السادس الهجري ، تلك هي شخصية الامير جاولي سقاوه •

والواقع أن المصادر العربية والفارسية لم تمدنا باية معلومات عن حياة هذا الامير قبل توليه حكم الاقاليم الشرقية الخاضعة للدولة السلجوقية ، لذا فقد ظل تاريخ مولد جاولي غير معروف لدينا ، ولا نعلم سيئا عن حياته الاولى أو تدرجه في المناصب حتى اصبح من كبار كبار الامراء السلاجقة في عهد السلطان ملكشاه ثم في عهد ولديه

---

(١) هكذا ورد الاسم في ذيل تاريخ دمشق لابن القلانسي ص ١٥٦ ، وقد ورد الاسم بصور مختلفة في بقية المصادر . فجاء في المنتظم لابن الجوزي ج ٩ ص ١٢٢ «جاولي شقاوه» في حين ذكر ابن الاثير في الكامل ج ١٠ ص ٢٩٨ جاولي شقاوه ، اما في المختصر لابي الفدا فقد جاء الاسم مطابقا لما ورد في ذيل تاريخ دمشق .

بركياروق ومحمد من بعده [٢] .

على أن اسم جاولي اخذ يتردد من خلال الصراع الذي تفجر بين السلاجقة بعد وفاة السلطان ملكشاه في سنة ٤٨٥ هـ ، حين اشتد النزاع حول السلطة بين اولاد ملكشاه من جهة وبينهم وبين اعمامهم من جهة اخرى [٣] .

ويستفاد من الروايات التاريخية التي تناولت اخبار الصراع السلجوقي أن جاولي هذا كان من مؤيدي السلطان بركياروق بن ملكشاه ووقف الى جانبه في صراعه ضد اخيه السلطان محمد بن ملكشاه ، وكان من بين امراء الاطراف الذين سارعوا للانضمام الى بركيا روق عقب هزيمته أمام عمه سنجر في سنة ٤٩٣ هـ . وكان جاولي آنذاك يتولى حكم البلاد الواقعة بين رامتهرمز وأرجان ، ويبدو أنه ظل على اخلاصه لسيده بركياروق حتى وفاة الأخير ، عام ٤٩٨ هـ . [٤]

جاولي والباطنية :

تفاقم خطر الباطنية وعظم شرهم في أخريات القرن الخامس الهجري وباتوا يشكلون مصدر قلق كبير للدولة السلجوقية ، فقطعوا الطرق في اقليم خوزستان وفارس ، فأخذ جاولي على عاتقه معالجة هذا الأمر بحكم قربه من مناطق تواجدهم في بلاد فارس ، فأعد العدة لقتالهم ووضع حد لنشاطهم المتزايد الذي يهدد سلامة وامن البلاد .

وقد استعمل جاولي الحيلة والدهاء للايقاع بالباطنية لعلمه مدى

---

(٢) ذكر المؤرخ ابن الجوزي ان جاولي كان رجل الترك وراسا فيهم (ج ٩ ص ١٨٥)

(٣) تفجر الصراع بين اولاد السلطان ملكشاه : بركياروق ومحمد ومحمود وبينهم وبين تتش بن الب ارسلان وسنجر بن الب ارسلان .

(٤) ابن الاثير ، الكامل ج ١٠ ص ٢٩٨ ، ابن خلدون ج ٥ ص ٢٤.

ما يتمتع به هؤلاء من قوة وما يحيط مواقعهم من حصانة بالاضافة الى ما عرف من تفانيهم في القتال • فاتفق مع جماعة من اصحابه ليظهروا الشغب في ولايته ليكون ذلك مبررا لطردهم من البلاد وانصرافهم الى الباطنية • وتم تنفيذ هذه الخطة ووفد اصحابه على الباطنية معلنين الموافقة لهم ونددوا بحكم جاولي سقاوه • فسمح لهم هؤلاء بالمقام عندهم حتى وثقوا بهم (٥) •

ولما أطمئن جاولي الى نجاح اصحابه في الوصول الى قلاع الباطنية وتقربهم الى زعمائهم بدأ في تنفيذ المرحلة التالية من مخططه فاشاع أن الامراء بني برسق عازمون على مهاجمة بلاده • وانه قرر الرحيل الى همذان لعجزه عن التصدي لهم ، وخرج على رأس قواته سالكا طريق همذان ، فلما علم اصحابه المقيمين عند الباطنية اشاروا على هؤلاء باغتنام هذه الفرصة وقطع الطريق على جاولي والاستيلاء على امواله (٦) •

فلقي هذا العرض استحسانا لدى الباطنية ، فساروا اليه في ثلثماية من اعيانهم ، « فلما توسطوا الشعب عاد عليهم ومن معه من اصحابه فقتلوهم فلم يفلت الا ثلاثة نفر تسلقوا في الجبال فغنم خيلهم واموالهم وتهذبت الطرق بهلاكهم » (٧)

وعاد جاولي الى ولايته بعد الفراغ من قتال الباطنية ، فاقام بها عدة سنوات ، عكف خلالها على القيام باعمال التحصينات وبناء القلاع ، ويبدوا ان علاقة جاولي بامراء الاطراف كانت سيئة وانه يخش قيامهم بمهاجمة بلاده ، كما أن جاولي لم يكن محببا الى أهل ولايته بسبب سياسة التعسفية ضدهم • فقد ذكر المؤرخ ابن الاثير ان جاولي اقترف اعمالا عدائية ضد

---

(٥) ابن الجوزي المنتظم ج ٩ ص ١٢٢ •

(٦) ابن الاثير ، الكامل ج ١٠ ص ٣٢٠ •

(٧) ابن الجوزي ، المنتظم ج ٩ ص ١٢٢ •

السكان فقطع ايديهم وجدع انوفهم وسمل اعينهم • (٨)

عزل جاولي عن ولاية فارس :

لم تستمر ولاية جاولي على بلاد فارس طويلا • فقد كانت وفاة السلطان بركياروق سنة ٤٩٨ هـ وانفرد اخوه محمد بالسلطنة ايذانا بنهاية حكمه في تلك البلاد بسبب موقفه السابق من الصراع بين الاخوين وانحيازه الى بركيا روق •

والواقع أن جاولي شعر بحراجة موقفه بعد وفاة سيده بركياروق ، وخشي من انتقام السلطان محمد ، وقد عبر ابن الاثير عن ذلك بقوله: «فلما تمكن السلطان محمد من السلطنة خافهجاولي» (٩) ، والحقيقة أنالسلطان لم ينس لجاولي مواقفه العدائية منهفبادر الى عزله عن الولاية ، وانفذ اليه العساكر بقيادة الأمير مودود (١٠) فتحصن جاولي ورفض المثول لأوامر السلطان محمد ، فدام الحصار ثمانية أشهر ، ادرك جاولي بعدها عدم جدوى العصيان ، فارسل الى السلطان يقول : « انني لا انزل الى مودود، فان أرسلت غيره نزلت » (١١) ، فانفذ اليه خاتمه مع أحد الامراء • فنزل جاولي وسلم البلد ، وقصد خدمة السلطان في اصفهان ، فاقام معه الى شهر المحرم من سنة ٥٠٠ هـ ، حيث اقطعه مدينة الموصل وعهد اليه بانتزاعها

---

(٨) ابن الاثير ، الكامل ج ١٠ ص ٤٢٢ .

(٩) نفس المصدر ، الكامل ج ١٠ ص ٤٢٢ .

(١٠) كان الامير شرف الدين مودود بنالتونتكين من ابرز قادةالسلطان محمد بن ملكشاه ، وقد تولى امارة الموصل في سنة ٥٠٢ هـ ولعب دورا كبيرا في الجهاد ضد الصليبيين ، ولقي مصرعه بجامع دمشق في عام ٥٠٧ هـ . ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق ص ١٨٧ .

(١١) ابن الاثير ، الكامل ج ١٠ ص ٤٢٢

من الأمير شمس الدولة جكرمش .[12]

فرحل الى بغداد وبقي الى بداية ربيع الأول من سنة ٥٠٠ هـ توجه بعدها الى الموصل فتمكن من الاستيلاء عليها ، غير ان جاولي لم يلبث ان استبد بشئون الامارة وعصى على السلطان محمد ، فبادر الأخير الى عزله عن الامارة وانفذ اليه الأمير مودود الذي نجح في انتزاع الموصل واستقر في حكمها في شهر صفر من سنة ٥٠٢ هـ ١٣ .

واضطر جاولي للرحيل عن الموصل بعد صدور الأمر بعزله عن الولاية، واخذ معه بلدوين الثاني أمير الرها الذي كان اسيرا في الموصل منذ سنة ٤٩٧ هـ [14] ، وحاول جاولي التماس الحلفاء في ديـار بكر والجزيرة لمساعدته على مواجهة قوات السلطان محمد ، الا انه فشل في ذلك واضطر للمسير الى الرهبة ، ولم يبق امام جاولي بعد ذلك سوى الاستعانة بقوى الصليبيين في بلاد الشام والجزيرة مستغلا في تحقيق اهدافه بلدوين امير الرها الذي لا يزال اسيرا عنده ، فعقد معه اتفاقا ينص على اطلاق سراح

---

(١٢) نفس المصدر ، الكامل ج ١٠ ص ٤٢٢ ، ابن خلدون ، ج ٥ ص ٧٨ ـ ٧٩ ، العيني ، عقد الجمان ج ١٥ ص ٦٠٥ ـ ٦٠٦

(١٣) الفارقي ، تاريخ ميافارقين ص ٢٧٥ ، ابن العبري ، تاريـخ مختصر الدول ص ١٩٩

ابو الفدا : المختصر ج ٢ ص ٢٢٩ ، وعن ولاية جاولي على الموصل انظر امارة الموصل في العصر السلجوقي ، رسالة دكتوراه في التـاريخ الاسلامي ، رشيد الجميلي بيروت ١٩٧٥

(١٤) العيني : عقد الجمان ج ١٥ ص ٥٦٩

Foucher of charter, P. 59.

كان بلدوين قد وقع في الاسر خلال معركة حران التي دارت رحاها على ضفاف نهر البليخ في شعبان من سـنة ٤٩٧ هـ وقد حمل جكرمش اسيره بلدوين الثاني الى الموصل في حين اخذ سقمان بن ارتق اسيـره جوسلين امير تل باشر الى حصن كيفا .

الأمير الصليبي مقابل التعهد بمساعدة جاولي والوقوف الى جانبه في صراعة ضد السلطان السلجوقي كما تضمن الاتفاق على ان يدفع بلدوين الثاني فدية كبيرة وأن يطلق من لديه من الاسرى المسلمين .(١٥)

وتقرر وضع بلدوين الثاني في قلعة جعبر ريثما يتم تسليم مبلغ الفدية، فبقي هناك حتى قدم اليه ابن خالته جوسلين أمير تل باشر الذى كان قد افتدى نفسه واطلق من الأسر ، فأقام رهينة عوضا عن بلدوين الثاني ليتيح له تدبير الفدية ، ويبدو أن جاولي كان في حاجة سريعة الى المال فعمد الى اطلاق سراح جوسلين ليستحث بلدوين الثاني على تنفيذ اتفاقه مع جاولي (١٦) .

وتوجه بلدوين الثاني الى الرها بعد اطلاق سراحه ، وكان حليفه تنكرد أمير انطاكية قد دخلها بعد هزيمة حران وتولى الوصاية على المدينة ريثمايتم اطلاق سراح بلدوين الثاني من الأسر ، ويبدو ان تنكرد رفض في باديءالامر اعادة الرها الى بلدوين الثاني مما أدى الى نشوب القتال بينهما (١٧) .

أما جاولي فقد سار الى الرحبة . حيث اتصل به هناك ابو النجم

---

(١٥) ابن الاثير ، الكامل ج ١٠ ص ٤٦٠ ، ابن خلدون ج ٥ ص ٣٩، ذكر المؤرخ السرياني المجهول ان مبلغ الفدية سبعون الف دينار ، انظر:
The Frist and Second Crusades from An Anonymous Syriac chronicle Journal of the Royal Asiatic Sociaty, London 1933 P. 81

(١٦) ابن الاثير ، الكامل ج ١٠ ص ٤٦٠ ، ابن خلدون ، ج ٥ص٤٠، ذكر ابن الاثير أن جاولي استبقى لديه اخا زوجة بلدوين الثاني واخا زوجة جوسلين .

(١٧) Anonymous, op. cit, P. 80.
ذكر المؤرخ السرياني المجهول ان تنكرد أمضى في الرها بضعة ايام حصل خلالها على اموال عظيمة ثم عاد الى انطاكية تاركا في الرها احد رجاله المدعو ريتشارد .

بدران وابي كامل منصور ابني سيف الدولة صدقة بن مزيد وكانا مقيمان في قلعة جعبر بعد مصرع أبيهما في الحرب التي اندلعت بينه وبين السلطان محمد سنة ٥٠١ هـ [١٨] . فالتمسا العون من جاولي لاستعادة امارة ابيهما (الحلة) ، فأبدى موافقته للمضي معهما الى العراق. وشرع في الاستعداد ، وقد تم الاتفاق بين الحلفاء على ان يكون بكتاش بن تكش بن الب ارسلان قائدا لهذه الحملة ، وبينما هم كذلك قدم عليهم اصبهذ صباوه أمير الرحبة ، فاجتمع الى جاولي وأوضح له خطورة العمل الذي يزمع الاقدام عليه ، وحذره من رد فعل السلطان محمد اذا تعرض للعراق ، ونصحه بتحويل نشاطه الى بلاد الشام لخلوها من العساكر السلطانية حيث تتاح الفرصة له لفرض سيطرته على اجزاء من هذه البلاد . ويبدو ان جاولي لم يشأ التورط في مواجهة السلطان فعدل عن مهاجمة العراق [١٩] .

ثم ان سالم بن مالك أمير قلعة جعبر ارسل يستنجد بجاولي على بني نمير الذين استولوا على مدينة الرقة وقتلوا ولده عليا [٢٠] ، فمضى جاولي لمساعدته في طرد بني نمير واستعادة المدينة ، فحاصر الرقة مدة سبعون يوما ، لم يتمكن خلالها من اقتحام البلد ، فراسله بنو نمير في الصلح وتعهدوا بدفع مبلغ من المال وعدد من الخيل ، فوافق جاولي على ذلك ورفع الحصار عن المدينة بعد ان وجد أن الاشتغال بحرب بني نمير لا يعود عليه بفائدة كبيرة وان هدفه الذي يسعى الى تحقيقه هو استعادة الموصل ودفع عساكر السلطان التي احاطت بالمدينة ، ويتضح ذلك من خلال رسالته

---

(١٨) ابن القلانسي ، ص ١٥٩

(١٩) ابن الاثير ، الكامل ج ١٠ ص ٤٦٢ — ٤٦٣

(٢٠) ذكر ابن الاثير أن الملك رضوان صاحب حلب اسرع الى الرقة بعد استيلاء بنو نمير عليها ، فاعترض في طريقه جماعة من الفرنج كانوا يحملون فدية بلدوين الثاني الى الامير جاولي ، فاخذها منهم وأسر عددا من رجالهم ، ثم تقدم الى الرقة فصالحه بنو نمير على مبلغ من المال وعاد الى حلب ، (ج ١٠ ص ٤٦٢ — ٤٦٣)

الى سالم بن مالك والتي جاء فيها :

« انني في أمر أهم من هذا ، وانا ازاء عدو ويجب التشاغل به دون غيره وانا عازم على الانحدار الى العراق فان تم امري فالرقة وغيرها لك ولا اشتغل عن هذا المهم بحصار خمسة نفر من بني نمير » (٢١) .

تجدد الحوار بين السلطان محمد وجاولي سقاوه :

زاد الصليبيون من تهديهم لطرابلس وضيقوا الخناق حول المدينة ، مما دفع أميرها فخر الملك ابن عمار الى طلب العون من السلاجقة ، فلما تأخر وصول العساكر اضطر للتوجه الى بغداد بنفسه ليستحث السلطان محمد على انقاذ طرابلس ، وكان الأخير قد انفذ معظم عساكره الى الموصل لمحاربة جاولي وعزله عن الولاية ، وقد استبد القلق بأمير طرابلس خوفا على المدينة من السقوط بايدي الفرنج ، فعمد السلطان الى اعادة الحوار مع جاولي ودعاه الى ترك العصيان والانضمام الى العساكر للدفاع عن طرابلس ، وقد أبدى جاولي استعداده للمثول لأوامر السلطان على أن يرحل مودود عن الموصل ويرسل السلطان من يتولى امرها . فمضى رسول السلطان الى الموصل ليطلب الى الامير مودود رفع الحصار عن المدينة والانضمام الى جاولي للجهاد ضد الصليبيين ، الا ان مودود رفض الانسحاب الا بأمر من السلطان محمد نفسه ، واقام على الموصل حتى تم له الاستيلاء عليها في شهر صفر من عام ٥٠٢ هـ (٢٢)

ولما بلغ جاولي سقوط الموصل في يد مودود شرع في التقدم غربا نحو بلاد الشام . فهاجم مدينة (بالس) من اعمال حلب ، ونجح في الاستيلاء عليها بعد حصار دام خمسة ايام ، واقدم جاولي على اعدام جماعة من اعيان المدينة بينهم القاضي محمد ابن عبدالعزيز بن الياس ، ثم قام بنهبها

---

(٢١) ابن الاثير ، الكامل ج ١٠ ص ٤٦٣

(٢٢) الفارقي ، تاريخ ميافارقين ، ص ٢٧٥ ، ابن الاثير ، الكامل ج ١٠ ص ٤٦٣/٤٦٤ . ابن خلدون ، ج ٥ ص ٨٦ .

واخذ منها اموالا كثيرة • [٢٣]

الحرب بين جاولي والصليبيين :

أثار هجوم جاولي على مدينة (بالس) مخاوف الملك رضوان وخشي أن يكون ذلك مقدمة للهجوم على حلب نفسها لا سيما وان جاولي كان يسعى الى تأسيس امارة في بلاد الشام ، وأراد رضوان أن يجعل من الصليبيين طرفا في نزاعه ضد جاولي ولم يتردد في محالفتهم والاتفاق معهم على تحقيق هذا الهدف ، فحذر الصليبيين من اطماع جاولي في بلاد الشام ومدى الخطر الذي سينجم عن مجاورته لهم فيما لو نجح في الاستيلاء على حلب ، ودعاهم الى ضرورة التصدي له والخروج لقتاله ، فاستجاب تنكرد أمير انطاكية لهذه الدعوة ، وخرج على رأس قواته لقتال جاولي ، فأمده رضوان بـ ٦٠٠ فارس من قوات حلب ، ولما علم جاولي بذلك استنجد بحليفه بلدوين الثاني أمير الرها ، تنفيذا للاتفاق الذي أبرمه معه بعد اطلاق سراحه ، وقيل ان جاولي اطلق له ما بقي من مال الفدية ، ولم يتأخر بلدوين الثاني في تلبية نداء جاولي فسارع للانضمام اليه في منبج ، وكان الأخير قد تفرق عنه بعض اصحابه بعد سقوط الموصل وعادوا الى بلادهم ولم يبق مع جاولي سوى الف فارس ، ثم انضمت اليه فيما بعد جماعات من المتطوعة [٢٤] فزحف نحو تل باشر حيث اشتبك مع تنكرد ومن انضم اليه من قوات حلب ، واسفر اللقاء عن هزيمة جاولي وحلفائه ، ونهب تنكرد اموالهم • وعاد جاولي الى الرحبة وتراجع حليفه بلدوين الثاني وجوسلين نحو تل باشر • [٢٥]

---

(٢٣) ابن الاثير ، الكامل ج ١٠ ص ٤٦٤

(٢٤) نفس المصدر ، الكامل ج ١٠ ص ٤٦٤/٤٦٥

(٢٥) ابن الاثير ، الكامل ج ١٠ ص ٤٦٦
Anonymous, op. cit, P. 82.

عودة جاولي الى طاعة السلطان وتوليه بلاد فارس :

تحرج موقف جاولي بعد هزيمته امام الصليبيين وادرك انه لا يمكنه المقام بعد ذلك بالجزيرة أو الشام فلم يجد امامه سوى طلب العفو من السلطان محمد والعودة الى خدمته ، وكان السلطان مقيما آنذاك بالقرب من اصفهان ، فرحل متخفيا لئلا يكشف أمره ، واتصل باحد اصحابه ليكون واسطة الصلح بينه وبين السلطان وهو الأمير حسين بن قتلغتكين. فدخل جاولي وكفنه تحت يده وطلب العفو من السلطان . فامنه وعفا عنه ، شرط أن يسلمه بكتاش بن تكش بن الب ارسلان فسلمه اليه فاعتقله باصفهان (٢٦) . ويبدو ان الاحوال في بلاد فارس كانت مضطربة فقرر تكليف جاولي بمهمة اخضاع امراء الأطراف واصدر أمره بتوليته امارة بلاد فارس وسلم اليه ولده جغري ليكون اتابكا له . (٢٧) وما ان استقر جاولي في منصبه الجديد حتى شرع في معالجة الامور في بلاد فارس ، وأعد العدة للتخلص من اعدائه الواحد تلو الآخر ، فبدأ باقوى هؤلاء وهو الأمير (بلدجي) (٢٨) . الذي كان يحكم عدد من القلاع مثل : كليل واصطخر وسرماه ، ووضع جاولي خطة لتنفيذ هذا الهدف ، فلجأ الى الحيلة وارسل الأمير بلدجي يطلب اليه الحضور لمقابلة جغري ولد السلطان محمد ، وكان جاولي قد اتفق مع جغري على ان يقول بالفارسية (خذوه) حين يدخل اليه الأمير بلدجي ، فيثب عليه الجند عندئذ ويقتلوه ، كما هي العادة عند السلاطين والملوك ، وقد تحقق ذلك فعلا عندما دخل بلدجي فقتل ونهبت امواله (٢٩) ، وبهذه السهولة تخلص جاولي من كبار الامراء الذين كان يخش بأسهم كما تمكن من استعادة قلعة اصطخر التي كان استقل

---

(٢٦) ابن الاثير ، الكامل ج ١٠ ص ٤٦٦

(٢٧) ابو الفدا ، المختصر ج ٢ ص ٢٢٩ ، ابن خلدون ، ج ٥ص٤٣

(٢٨) كان بلدجي من كبار امراء السلطان السلجوقي ملكشاه

(٢٩) ابن الاثير ، الكامل ج ١٠ ص ٥١٧

بها (الجهرمي) وزير بلدجي فأخذها جاولي وجعلها مركزا لحفظ امواله وخزائنه [٣٠] .

ويبدو أن نجاح جاولي في القضاء على بلدجي قد شجعه على مواصلة انتهاج هذه السياسة مستغلا في ذلك وجود جغري معه ، فارسل الى الحسن بن المبارز أمير (نسا) المعروف بخسرو ودعاه لخدمة ولد السلطان . الا أن خسرو هذا فطن الى ما كان يرمي اليه جاولي وكشف نواياه ، فرفض الحضور وأرسل يقول : « انني عبد السلطان ، وفي طاعته فأما الحضور فلا سبيل اليه ، لأنني قد عرفت عادتك مع بلدجي وغيره ، ولكنني احمل الى السلطان ما يؤثره » [٣١] وأثار موقف حسرو هذا غضب جاولي وصمم القضاء عليه باية وسيلة قبل ان يستفحل امره ويفقد جاولي سيطرته على اقليم فارس ، فتظاهر بالرحيل لمواجهة السلطان الذي كان مقيما آنذاك ببغداد فحمل اثقاله على الدواب ، وعاد رسول خسرو يخبره برحيل جاولي فاطمأن خسرو وانصرف الى ملذاته « وقعد للشرب وأمن» ، فأسرع جاولي عندئذ بمهاجمته ، فتمكن خسرو من الهرب واللجوء الى احد الحصون القريبة ، فتقدم جاولي الى المدينة وتسلمها ونهب عددا من مدن فارس ثم عاد للقبض على خسرو فحصره مدة دون ان يظفر بشيء لحصانة موقعه وكثرة ذخائره ، مما دفع جاولي الى مراسلته في الصلح ليتفرغ لاخضاع باقي امراء الاطراف . فرحل الى شيراز حيث اقام بها هناك مدة توجه بعدها الى مدينة (كازرون) فنجح في دخولها وتحصن أميرها ابا سعد محمد بن مما بعلقها . فحصره مدة عامين ، اضطره بعدها الى طلب الأمان بعد ان نفذ ما عنده من المؤن والطعام وتسلم الحصن [٣٢] واقام أبا سعد

---

(٣٠) المصدر السابق ، الكامل ج ١٠ ص ٥١٧ ، ابن خلدون ، ج٥ ص ٤٤ ، ذكر ابن خلدون ان اسم الوزير الخيمي

(٣١) ابن الاثير ، الكامل ج ١٠ ص ٥١٧

(٣٢) نفس المصدر ، الكامل ج ١٠ ص ٥١٨ .

بصحبة جاولي حتى أساء الأخير معاملته فهرب الى شعب جبل ، الا انه لم يلبث أن وقع بيد جاولي وأمر بقتله • (٣٣)

وواصل جاولي سياسته باخضاع اقاليم فارس فزحف نحو مدينة (دارا بجرد) فهرب أميرها الى كرمان ، حيث التجأ الى صهره الملك ارسلان شاه ، ودعاه الى توحيد جهودهما لقتال جاولي وصده عن البلاد ، وحاول جاولي اقتحام (دارا بجرد) وكان عليه ان يجتاز مضيق (رنه) الذي تحميه قلعة منيعة على قمة جبل عال ، وقد درج أهل دارا بجرد التحصن به عند تعرضهم لأي هجوم خارجي ، فأقاموا به وحفظوا مدخله ، فلما رأى جاولي صعوبة اقتحامه عمد كعادته الى المكر والخديعة ،فتظاهر بالتراجع سالكا طريق كرمان ، ثم عاد الى (دارا بجرد) ليوهم اهلها انه جاء نجدة لهم من ملك كرمان ، فاذنوا له بالمرور عبر المضيق ، فانقض على اهل الحصن وقتل عددا كبيرا منهم • ثم عاد الى موقعه السابق استعدادا لمواجهة عساكر كرمان ، وقد ادرك جاولي انه بحاجة الى مساعدة عاجلة فراسل خسرو ودعاه للحضور على رأس عساكره لمهاجمة كرمان فحضر خسرو خوفا منه ، وذكر ابن الاثير ان جاولي نجح في استمالة رسول ملك كرمان وجعله عينا له • وطلب اليه اقناع ملك كرمان بسحب قواته من موضع السيرجان حيث كانت تتمركز بقيادة الوزير ، فعاد الرسول واجتمع الى الوزير واوضح له أن جاولي لا يضمر السوء لكرمان الا انه استشعر من اجتماع العساكر بالسير جان والحكمة تقضي بالرحيل لاثبات حسن نيتنا تجاه جاولي،فاقتنع الوزير بذلك واصدر اوامره بالرحيل •(٣٤) فاتاح ذلك لجاولي تنفيذ مخططه وزحف نحو كرمان وهاجم مدينة (فرج) الواقعة على الحدود بين فارس وكرمان وشدد حصاره عليها ، فلما علم ملك كرمان بذلك تكشفت لديه نوايا جاولي وعذره ، فأمر باحضار الرسول

---

(٣٣) نفس المصدر ، الكامل ج ١٠ ص ٥١٨ .

(٣٤) ابن الاثير ، الكامل ج ١٠ ص ٥١٩

وأنكر عليه اعادة العسكر ، فاعتذر اليه ، وكان مع الرسول فراش لجاولي ينقل اليه الاخبار ، فارتاب الوزير به وأمر بالقبض عليه وتعذيبه فاعترف على خيانة الرسول ، فأمر الوزير باعدامهما . واستعد لمواجهة جاولي .(٣٥)

وأشار أحد الامراء على الوزير الكرماني بترك الطريق المسلوكة والتقدم بالعسكر عن طريق آخر غير معروف ليضلل جاولي الذي كان آنذاك يحاصر مدينة (فرج) . فارسل الأخير احد أمرائه ليرقب الطريق ويرصد تحركات قوات ملك كرمان . فلم ير الأمير المذكور أثرا لأي عسكر لأنهم سلكوا طريقا آخر ، فعاد الى جاولي واخبره بعودة عساكر كرمان الى بلادها خوفا من لقائه ، فاطمأن وانصرف الى شرب الخمر (٣٦) .

ووصلت قوات كرمان ليلا وفاجأه جاولي بالهجوم وكان نائما فانهزم وتفرق عسكره بعد أن قتل وأسر عددا كبيرا منهم وذلك في شوال من سنة ٥٠٨ هـ ، ودخل جاولي مدينة (نسا) واتصل به المنهزمون من اصحابه بعد أن اطلق ملك كرمان من لديه من الأسرى . (٣٧)

ولم توقف هذه الهزيمة جاولي عن مواصلة الحرب ضد اعدائه . فشرع في الاستعداد من جديد لمهاجمة كرمان والأخذ بثأره . وبينما هو كذلك توفي الملك جغري بن السلطان محمد في ذي الحجة من سنة ٥٠٩ هـ « ففت ذلك في عضده » (٣٨) وافقده سندا شرعيا كان يستمد من قوته ونفوذه في بلاد فارس باعتباره اتابكا لولد السلطان السلجوقي ، وكانت وفاة جغري هذا قد شجعت امراء الاطراف على التخلص من حكم جاولي ، فارسل ملك كرمان رسولا الى السلطان محمد يطلب اليه منع جاولي عنه ،

---

(٣٥) نفس المصدر ، الكامل ج ١٠ ص ٥٢٠

(٣٦) نفس المصدر ، الكامل ج١٠ ص ٥٢٠ – ٥٢١

(٣٧) نفس المصدر ، الكامل ج ١٠ ص ٥٢١

(٣٨) ابن الاثير ، الكامل ج ١٠ ص ٥٢١

الا ان السلطان التزم جانب جاولي لئلا يطمع به صاحب كرمان وغـيره وتخرج البلاد من يده فاشترط على ملك كرمان ارضاء جاولي بتسليمه مدينة (فرج) ، فعاد الرسول في ربيع الاول من عام ٥١٠ هـ . فتوفي جاولي بعد ايام قليلة وتنفس اعدائه الصعداء ، واضطر السلطان محمد الى التوجه بنفسه الى بلاد فارس لمعالجة الموقف الذي نشأ عقب وفاة جاولي سقاوه والسيطرة على الامور هناك (٣٩). وانتهت بذلك حياة هذا الأمير السلجوقي المليئة بالمغامرة والطموح والسعي لفرض سيطرته على اوسع رقعة مـن البلاد ، وكانت ظروف التي مرت بها دولة السلاجقة بعـد وفاة ملكشاه قد هيأت لهذا الأمير وامثاله العمل على الاستغلال في مناطق حكمهم بـل والتطاول على السلطنة السلجوقية ذاتها .

(٣٩) نفس المصدر ، الكامل ج ١٠ ص ٥٢١